الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجيلالي اليابس/ سيدي بلعباس

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

" تعدد أوجه الاستعمال اللغوي للمدلولات الكونية في القرآن الكريم "

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الدلالة

إعداد الطّالبة: بوغاري فاطمة

إشراف: د قندوز محمد

لجنة المناقشة:

عقّاق قادة	أستاذ التعليم العالي	(جامعة سيدي بلعباس)	رئيساً
سلامي عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	(جامعة تلمسان)	مناقشاً
قندوز محمد	أستاذ محاضر "أ"	(جامعة سيدي بلعباس)	مشرفاً ومقرراً
مبارك عبد القادر	أستاذ محاضر "أ"	(جامعة سيدي بلعباس)	مناقشاً
حمداد عبد الله	أستاذ حاضر "أ"	(جامعة سعيدة)	مناقشاً
خطاب محمد	أستاذ محاضر "أ"	(جامعة مستغانم)	مناقشاً

السنة الجامعية : 1436/1435هـ ** 2014 / 2015 م

كلمة شكـــر

لا يسعني في هذا المقام إلا إرجاع الفضل لأهله والاعتراف بالجميل

و الشّكر لأمي التي تحمّلت عبء تربية ابنتي، حتى يتمّ هذا العمل .

و للأستاذة الكرام:

الدكتور: قندوز محمد على صبره معي، وعلى كلّ ما قدّمه من توجيهات .

الأستاذ الدكتور: عقّاق قادة على وقفته الإنسانيّة معي .

الدكتور: تواتي خالد على كلّ ما قدّمه إليّ من مادة علميّة وتوجيهات ونصائح ، ودعم معنوي .

مُقَدِّمَةٌ

مقدمـة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وكرّمه بالعقل، وزوَّده بالبيان، وأضاء دروبنا بنور هديه، و أعزَّنا بالقرآن، وشرح صدورنا بالإسلام، وبعث فينا نبيَّه بالحقّ داعيا ومعلما، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه البررة الأخيار، أمّا بعد:

إنّ الخطاب القرآني هو بنية لغوية متكاملة ومتناسقة، ولّما كان موضوع علم الدّلالة هو دراسة المعنى، احتاج مفسّر القرآن إلى دراسة اللغة لفهم معانيه، فكانت العلاقة بين علم الدلالة وعلم التّفسير حاجة ضرورية استدعتها طبيعة الخطاب القرآني. و إذا كان النّص اللغوي يعكس رؤية مستعمل اللّغة للعوالم المحيطة به فإنّ الآيات الكونية في القرآن تعكس الرؤية الإلهية للكون، والهدف من عرضها هو الكشف عن أسرار الوجود وحقيقة العلاقة التي تربط بين النّواميس الكونية، ولقد اقتضت وحدة الخلق التشاكل بين البنية الكونيّة والبنية القرآنيّة، فكلّ منها شبكة من العلاقات تؤدي إلى نفس النتيجة، وهي وحدانية الخالق.

إنّ هذا التّوافق بين المضامين القرآنية والأسرار الكونية، دفع بالكثير من الدارسات في المجالات العلميّة إلى إثباته كوجه من أوجه الإعجاز، أطلقوا عليه اسم الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وإن كان قد سبقهم إلى إبراز هذه الفكرة الزرقاني في مناهل العرفان، كما كان للبوطي في كتابه كبرى اليقينيات الكونية طرح متميز لهذا الموضوع، من خلال ضبطه لمفاهيم تتعلق بموضوعات هذا الوجه من الإعجاز.

وأصبحت الآيات الكونيّة موضوعا للتفسير العلمي، و إن كانت كلمة التّفسير تعني البحث في دلالات النّص عن المعنى المقصود،يبقى أيّ تفسير نتاجا لفهم القارئ، يختلف باختلاف المرجعيات الفكريّة والمعرفيّة كما يختلف باختلاف منهجية التعامل مع النّص القرآني، ونظرا لطبيعة العلم المتأرجح بين النّظريّة والحقيقة الثابته، كان لا بدّ من وضع معايير تضبط

عملية التّفسير العلمي للقرآن، والتي من بينها الوقوف على لغة النّص القرآني وإدراك قواعدها وأساليبها، فإذا توافق مدلول الخطاب اللغوي مع الحقيقة العلميّة جاز تفسير الآية الكونيّة بها، وقد عملت هيئة الإعجاز العلمي على ترسيخ هذا المعيار في التّعامل مع القرآن الكريم؛ فاللّغة تبقى هي المدخل الأساسي الذي لا يمكن الاستغناء عنه في الدراسات القرآنية مهما اختلف موضوعها. ومن هنا بدأ اشتغال العلماء المسلمين على إبراز أوجه التّوافق بين الآيات الكونيّة ونتائج العلم الحديث، وكثرت الدراسات في هذا المجال أغلبها من المتخصصين في العلوم الكونيّة والتجريبيّة.

وفي محاولة لإثبات التّوافق بين القرآن والعلم، اتّخذ بعض الباحثين اللغة العربية مناطا لإسقاطات علميّة مجحفة لنظريات لم تثبت صحتها، خاصة في القرن العشرين؛ من هذه الدراسات: الكتاب والقرآن لمحمد شحرور، وأبي آدم لعبد الصبور شاهين... وبعد تأمّل لكيفيّة استغلال هؤلاء الباحثين للغة لاحظت افتقارا إلى المنهج في التعامل مع اللغة بما يتناسب مع طبيعة النّص القرآني، فالكثير من هؤلاء يركّز على الدلالة المعجمية أو أحد مرادفاتها في اللّغة، متناسين أنّ المفردة القرآنية لا تقبل مرادفا. وأنّ التناسق بين كلّ أنواع الدلالة على مستوى المفردة الواحدة، و التركيب، ثم الآية الواحدة، ثم مجموع آيات الموضوع الواحد، هو ما قد يقرّبنا من مقصدية النّص؛ فنحن بحاجة إلى منهج دلالي متكامل يتناسب مع طبيعة الخطاب القرآني من حيث بنيته، ومن حيث منهجه في طرح المفاهيم؛ خاصة منها التي يكون لها معادل واقعي أو علمي، فإنّنا قد لا نجده على مستوى آية واحدة.

إنّ السّعة التي يحملها مصطلح الدلالة تقتضي قابلية أن يكون هذا المعنى العلمي أحد الأوجه الدلالية للنّص خاصة وأنّ القرآن الكريم حمّال أوجه، لكنّ الإشكالية التي لا تزال قائمةً هي معايير التّعامل مع الطرح العلمي المشار إليه في الآيات الكونية. فرغم الجهود المبذولة في ضبط شروط التّفسير العلمي، إلاّ أنّ تعامل بعض المفسرين العلميين المعاصرين مع جزئيتي الإلمام باللّغة، وأراء المفسرين، تعامل سطحي قد لا يتجاوز العرض لإظهار الالتزام، لكن لا نجد ربطا وتحليلا يلمّ بجميع المستويات اللغوية للنّص القرآني وما تعطيه من دلالات، بل نجد

المفسّر يتخير منها بسطيحة - قد تعود إلى عدم التمكن نظرا لعدم التخصص- ما يثبت التوافق في نظره مع النتائج العلمية حقائق أو نظريات. فلو ذكرنا على سبيل المثال كتاب: التفسير العلمي للقرآن الكريم لمنير العلي. وهو كتاب قيم من النّاحية العلمية، إلاّ أنّنا نجده يهمل اللغة تماما، يعرض الآية موضوع البحث العلمي، ثم يذكر رأي المفسرين باختصار شديد كمعنى إجمالي للآية، ثم يعرض ما جاء به العلم في موضوعها.

إنّ مثل هذا التعامل مع النّص القرآني - وإن كان عن حسن نية- جعلني أتساءل عن أسباب وجود هذه الهوة في الدراسات القرآنية. وأبحث عن دور الباحث اللغوي وسط هذا الحراك العلمي الجديد.

و اخترت هذه الدراسة الموسومة بـ:" تعدد أوجه الاستعمال اللغوي للمدلولات **الكونية في القرآن الكريم" و** هي دراسة دلالية للآيات الكونيّة للكشف عن كيفية استخدام القرآن للغة في التعبير عن الظواهر الكونيّة، واستقراء المفاهيم القرآنية الخاصة بهذه الآيات. فالهدف هو الكشف عن العلاقة بين الظواهر اللغوية و الكونية، وإلى أي مدى يمكن تحديد مقصدية الخطاب القرآني الكوني بناءً على ما تفرزه مستويات هذه اللغة من دلالات في إطار السّياق الذي جاءت به.

إنّ البحث في المستويات الدلالية ليس بالجديد، فالكثير من أقلام الباحثين طرقت هذا الباب لبيان أوجه الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، ولعلّ الجدة في موضوعنا، التحليل الدلالي لآيات مدلولها يشكّل موضوعا للعلوم الكونيّة، ومقارنة المعطى من هذا التحليل مع الدلالة العلمية، وإبراز نقاط تلاقيها مع الدلالات اللغوية حين تكون الدلالة العلمية حقيقة ثابتة، و تحديد إشكالياتها حين تكون لا تزال قيد التنظير. فاخترت من المواضيع التي لم يصل العلم إلى حقيقتها، موضوع كيفية خلق الكون ، ومن الحقائق الثابته كيفية خلق الإنسان.

و كان البحث على مستويين: أفقي وعمودي؛ أفقي على مستوى الآية الواحدة التي تشكّل أحد عناصر هذا الموضوع، أو أحد المفاهيم الجزئيّة لهذا التصور من خلال الوقوف على

دلالات تعابيرها المفتاحية (الدلالة المعجميّة و الصوتيّة،و الصرفيّة، والتركيبيّة) دون إهمال السّياق الذي جاءت فيه، والاستشهاد بآراء علماء اللغة والمفسِّرين في أنواع هذه الدلالات. أمّا العمودي فهو على مستوى جملة من الآيات تمّ اختيارها بناءً على انتمائها إلى نفس الحقل الدلالي، وتكون قد اشتركت في عناصر التشكيل المعنوي لهذا المفهوم ومقارنته بالمدلول العلمي للظاهرة الكونية.

وللإلمام بالموضوع احتاج البحث إلى الوصف والتحليل، والمقارنة، وصف استدعاه الإعجاز القرآني بكلّ أنواعه، والآيات الكونية من حيث أقسامها وأغراضها، وتحليل استوجبته طبيعة الخطاب اللغوية، والمقارنة كانت بين المفسرين للآيات الكونيّة من القدامى والمحدثين، وبين ما يفرزه التّعبير القرآني من دلالات، وبين الحقيقة العلميّة لمدلول الآية، ولقد صعب علينا تناول جميع موضوعات الآيات الكونية لأنّها تتعدد بتعدد مظاهرها في الوجود، لذا اخترت لهذه الدراسة المحاور الكبرى في الكون، وهي: السّماء، والأرض، والإنسان لسببين؛ أحدهما هو: كثرة تناولها في القرآن مما يسمح بتحديد أدق لدلالاتها؛ والآخر: كونها موضوع علم الكونيات، وهو مجال التنظير وإثبات الحقائق الخاصة بها، فنتائجه هي التي تحمل على أنّها مدلول علمي لها. لذلك كان وضع محاور البحث بناءً على الإشكالات التي يطرحها التّفسير العلمي لهذه الآيات.

فجاءت محاور البحث كالآتي:

تضمّن البحث أربعة فصول الأول منها نظري، وبقية الفصول تطبيقية، وتناولتها كالآتي:

الفصل الأول وسمته : بأوجه الإعجاز في القرآن الكريم: تطرقت إلى توضيح الفرق بين الإعجاز والمعجزة في التمهيد، ثم عرضت آراء القدامى والمحدثين ودراساتهم للإعجاز، و نظراً لتعدد أوجه الإعجاز اخترت أبرز الوجوه، وبيَّنت الفرق بينها من خلال تعريفها، وسوق أمثلة حولها على الترتيب الآتي: 1- الإعجاز البياني. 2- الإعجاز التشريعي. 3- الإعجاز الكوني و4- الإعجاز العلمي. وقد توسعت في النّوعين الأخيرين باعتبارهما محور البحث،

فتطرقت في الأول إلى مفهوم الكون، والعلاقة بين القرآن والكون، ثم حددت المقصود بالآيات الكونية، وأنواعها وفق التقسيم القرآني لها، في قوله تعالى في الآية الثالثة والخمسين من سورة فصّلت: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ثمّ بيّنت مفهوم آيات الآفاق، وآيات الأنفس وذكرت نماذج من كلّ نوع. أمّا بالنسبة للإعجاز العلمي فقد وضحت الفرق بينه وبين التفسير العلمي، و إشكالية هذا الأخير بين المعارضة والتأييد. ثمّ تعرضت إلى ضوابط البحث في الإعجاز العلمي.

أمّا الفصل الثاني فوسمته : بدلائل آيات الآفاق في القرآن الكريم، و اخترت كلمة دلائل ولم أقل دلالة، لأنّ البحث على جميع المستويات اللغوية، وفي موضوع كيفية خلق الكون ، كلّ معنى مستفاد من أحد هذه المستويات يشكّل عنصرا جزئيا من عناصر تشكيل مفهوم خلق الكون في القرآن الكريم هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى تعدد أوجه دلالة الألفاظ الدالة على الظواهر الكونية في القرآن. وقد تطرقت في المبحث الأول إلى دلالة التعبير القرآني على الخلق وبدئه ؛ تناولت فيه مفهوم الخلق والفرق بينه و بين الإبداع في القرآن الكريم، ثم تعرضت إلى قضية بدء الخلق، والأمر الإلهي بالبحث فيه من خلال الوقوف على صيغ لفظه وأسلوب توجيه الخطاب الإلهي نحوه، أما المبحث الثاني فتناولت فيه: دلالة التعبير القرآني على خلق السّماوات والأرض من خلال الوقوف على الدلالة المعجمية للسّماوات والأرض واستعمالها في القرآن، وكذا الدلالة الصوتية و الصرفية، ثم دلالة التركيب والنّظم على كيفية خلقهما.

أمّا الفصل الثّالث فوسمته: بدلائل آيات الأنفس في القرآن الكريم، وكون موضوع آيات الأنفس هو الإنسان، وقد كانت عناية القرآن كبيرة بهذا المخلوق، حيث فصّل في كلّ مناحي حياته، وعلى قدر هذه السّعة، وحرصا منا على إبراز واقعية الخطاب القرآني من هذا الجانب الأقرب إلى ذهن المتلقي من خلال قدرته على استشعار هذه الواقعية بما زوّده الله من حواس، ومن قدرات ذهنية على التمييز، جاء هذا الفصل أكبر حجما، وإن لم أتطرق إلى كلّ الجوانب مفصّلة، حاولت الجمع بين الملمح العام لموضوعات هذا النّوع من الآيات، والتفصيل

في موضوع خلق الإنسان، لأنّه موضوع الإعجاز العلمي مما يسمح باستغلال نتائج هذا الجزء في الفصل الرابع. أمّا فيما يخص مباحث هذا الفصل، فآثرت أن أبيّن في أولها مسميات الإنسان في القرآن وتوضيح الفروق الدلالية بينها، ثم تعرضت في الثاني إلى دلالة التّعبير القرآني على خلق الإنسان وتكوينه وكان العمل في هذا المبحث على تحليل الآيات الدال على كيفية خلق الإنسان من أبينا آدم إلى مراحل تكوين الجنين، ثم تطرقت إلى دلالة التعبير القرآني على الذات الإنسانية بمُشكّلاتها (الروح والعقل والنّفس) باعتبارها المقابل المعنوي للجانب المادي في الإنسان.

أمّا الفصل الرابع فوسمته: بالإعجاز اللغوي وعلاقته بالتّفسير العلمي للقرآن الكريم. بناء على نتائج الفصلين السّابقين حاولت إحداث مقارنة ومقاربة بين دلالات التّعبير القرآني وبين التّفسير العلمي لهذه الظواهر الكونية: (السّماء، الأرض، الإنسان)، فتطرقت في المبحث الأول إلى: نشأة الكون بين التعبير القرآني والتفسير العلمي، بالتركيز على مرحلتي ما قبل الخلق ونشوء الكون. أمّا المبحث الثاني فموضوعه: حقائق السّماء والأرض بين القرآن والعلم، وآخر مبحث كان حول حقيقة خلق الإنسان بين التعبير القرآني والتّفسير العلمي، تعرضت فيه إلى إشكالية إسقاط النظريات العلمية على آيات خلق الإنسان، ثم تناولت حقائق العلم اليقيني الذي ثبتت صحته بالحس والمشاهدة، واتفاقها مع الوصف القرآن لكيفية تكوين الجنين.

وأنهيت هذه الدراسة بخاتمة جمعت فيها نتائج هذا البحث، والتي منها ما يتعلق بالجانب الدلالي في القرآن الكريم، ومنها ما يتعلق بالآيات الكونية وتفسيرها العلمي.

ولا يسعني -هنا- إلاّ أن أتوجّه بأسمى معاني الشّكر والامتنان والتّقدير للمشرف الدّكتور قندوز محمد على رعايته لهذا البحث وقد كان له كبير الفضل في تذليل كلّ صعب وترشيد كلّ عصيّ، حيث حباني بتوجيهاته ونصائحه فله منّي جزيل الشّكر والامتنان مرّة أخرى، كما أتوجّه بالشّكر لكلّ من قدّم إليّ يد العون على إنجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد.

و أقول في الأخير: ما هذا البحث إلاّ محاولة لإثارة إشكالية المنهج السليم في التعامل مع اللغة عند تفسير الآيات الكونية تفسيرا علميا، حتى يكون هذا الأخير خادما للنص القرآني خاصة في هذا العصر. و أرجو أن أكون قد وُفِقْتُ ولو بالقدر القليل في بيان العلاقة بين التعبير القرآني عن الظواهر الكونية وحقائقها الواقعية والعلمية، فما كان من صواب في هذه الدراسة فهو من فضل ربي، وما كان فيها من تقصير فهو مني، لذا أسأل الله العفو والتوفيق

سيدي بلعباس في: 2015/01/21

فاطمة بوغاري

الفصل الأول

أوجه الإعجاز في القرآن الكريم

تمهيد .

1- أوجه الإعجاز في القرآن الكريم .

1-1- الإعجاز في رأي القدامى .

1-2- آراء المحدثين حول الإعجاز .

2- أنواع الإعجاز في القرآن الكريم .

2-1-الإعجاز البياني

2-2-الإعجاز التشريعي .

2-3-الإعجاز الكوني .

2-4-الإعجاز العلمي .

2-4-1- الفرق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي .

2-4-2- التفسير العلمي للقرآن الكريم بين المعارضة والتأييد .

2-4-3- ضوابط البحث في الإعجاز العلمي في القرآن .

الفصـــل الأول:

أوجه الإعجاز في القرآن الكريم

تمهيد:

قال تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

تحدٍّ صريح من الله عزّ وجلّ لخلقه الجنّ والإنس في أن يأتوا بمثل هذا القرآن مهما بلغ علمهم وتوحدت قواهم؛ لأنّ الله جمع فيه كلّ أنواع الإعجاز، فكان معجزا بلفظه وبمعناه، فإذا كانت المعجزة هي القدرة الخارقة المقرونة بالتحدي[2]، ولا تتحكم فيها المسببات وإنّما هي هبّة ربانية ميزّ الله بها رسله، فجاء الإعجاز القرآني على يد المصطفى صلى الله عليه وسلّم إعجازا ليس الهدف منه تعجيز الخلق وإثبات ضعفهم، وإنّما هو حجة قائمة على قدرة الذات الإلهية وعلى وحدانية الله عزّ وجلّ، ودعوة إلى الحق سبحانه وتعالى.

لقد تميّز القرآن الكريم بالشّمولية والعالمية والزمانية والمكانية، هذه المعاني التي تجتمع في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٥٨﴾﴾[3]، فالنّداء واضح للقريب والبعيد من عموم النّاس وخصوصهم على مرّ الأزمنة، بدليل عدم استخدامه للفعل الماضي، وإنّما احتوت على الأمر والمضارع من الأفعال، وأبرزَ وجه الإعجاز في كتابه بوصف نبيّه فيها-الآية- بالأمي، فسبحان الذي بعث رسوله بالحق إلى بني البشر بكتاب معجز اختصر آيات الله الكونية، وآياته التشريعية، بلغة أعجزت أعلام اللغة بألفاظها

---

[1]- الإسراء، الآية/ 88.

[2]- الإتقان في علوم القرآن، ج 03/04.

[3]- الأعراف، الآية/ 158.

وأساليبها، ومضامين أعجزت علماء التشريع بالأحكام الواردة فيه، وعلماء العلوم التجريبية بالحقائق الكونية التي أشار إليها ...فتعددت أوجه الإعجاز فيه، وكثر القول فيها.

1- أوجه الإعجاز في القرآن الكريم:

لقد رأى المفسّرون وعلماء اللغة والأدب أنّ القرآن معجز من عدة أوجه، اختلفوا في بعضها واتفقوا في البعض الآخر منها، وذلك منذ القرن الثالث الهجري فكانت وجوه الإعجاز موضوعات مؤلفاتهم، من هذه المؤلفات: "تأويل مشكل القرآن" لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (**ت.276هـ**)، و"إعجاز القرآن البياني" لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (**ت.306هـ**)، و"النّكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن علي بن عيسى الرمّاني (ت.**384هـ**)، و"بيان إعجاز القرآن" لأبي سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (**ت388هـ**)، و"إعجاز القرآن" للباقلاني، و"إعجاز القرآن" للقاضي عبد الجبار (**ت415هـ**)، ودلائل الإعجاز، و"الرسالة الشّافية في الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني (**ت471هـ**)، "التنبيه على إعجاز القرآن" الخوارزمي الحنفي (**ت561هـ**)، و"نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز" لفخر الدين الرازي (**ت606هـ**)، و"البرهان الكاشف في إعجاز القرآن" لكمال الدين الزملكاني (**ت651هـ**) و"التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن" للزملكاني، و"البرهان في إعجاز القرآن" لابن أبي الإصبع (**ت654هـ**)، و"الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" للإمام يحي بن حمزة العلوي (**ت745هـ**)، و"كفاية الألمعي في إعجاز القرآن" لشّمس الدين بن الجزري (**ت833هـ**)، و"معترك الأقران في إعجاز القرآن" للإمام جلال الدّين السّيوطي (**ت911هـ**)... ومن كتب الإعجاز في القرن الرابع عشر، مؤلفات محمد متولي الشعراوي "المعجزة الكبرى"، إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي، و"النّبأ العظيم" لمحمد عبد الله درّاز، و"فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر" لنعيم الحمصي، و"المعجزة الخالدة" لحسن ضياء الدين، و"البيان في إعجاز القرآن" لصلاح الخالدي... وغيرها من المؤلفات التي حاول مؤلفوها الإلمام بجوانب الإعجاز في القرآن بما توفّر لديهم من آليات الفعل القرائي، كلّ حسب عصره.

1-1- الإعجاز في رأي القدامى:

إنّ الكلام حول إعجاز القرآن بدأ منذ نزوله على سيّدنا محمد صلى اللّه عليه وسلّم، لكن بدون استخدام مصطلح "الإعجاز" ؛ الذي يعني في اللغة الفوت والسّبق [1]، و هو في الأصل من عجز، و«الْعَيْنُ وَالْجِيمُ وَالزَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى الضَّعْفِ، وَالْآخَرُ عَلَى مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ.»[2] والقرآن الكريم منذ نزوله كان سباقا بما يحمله من أخبار غيبية، وعلوم مستقبلية فتجاوز عصره إلى آخر الزمان، ووقفت الألسنة والعقول أمامه ضعافا مذهولة، تَعجَبُ من صنيع لفظه وروعة أسلوبه، وتنوع معانيه، فكان برهانا وحجة على صدق نبوّة المصطفى صلوات الله عليه.

وبدأ العلماء من العرب يتداولون هذا اللفظ –إعجاز– و–معجزة– منذ القرن الثالث الهجري، على لسان المتكلّمين، مثل: إبراهيم النّظام[(3)]، فهو يرى أنّ«الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم»[(4)].

فالنّظام ينفي أن يكون القرآن معجزا بخصائصه ونظمه، لأنّه –حسب رأيه– كان في مقدور العرب المجيء بمثل ما جاء عليه القرآن من بلاغة وأسلوب ولفظ فصيح، لولا أن صرفهم الله على ذلك، يقول: «إنّ نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي –عليه السلام– ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة...»[(5)]، مادام الله قد صرف البشر على معارضة القرآن مع قدرتهم على ذلك، وهذا مذهب أهل الصرفة*، وقد نحا نحو أبو موسى عيس بن صبيح المزدار البصري (**ت226هـ**).

وممن استخدم مصطلح "إعجاز" الجاحظ (**ت255هـ**) رحمه الله خاصة في مؤلفه المفقود في نظم القرآن، والذي ردّ فيه على النّظام في قضية الإعجاز، والذي أخبر عنه في مجموع رسائله، يقول: «كتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن لمثلي في الاحتجاج للقرآن، والردّ على كلّ طعان

---

[1]– تهذيب اللغة، مادة (عجز).

[2]– مقاييس اللغة، مادة (عجز).

[3]– أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النّظام البصري، كان من المعتزلة، تكلم عن مسائل كثيرة منها "القدر" كفره جماعة من المعتزلة، مات سنة بضع وعشرين ومائتين. سير أعلام النبلاء ج 541/10.

[4] – إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء/ 70.

[5]– المرجع نفسه/ 128.

*– الصرفة: هي أن الله عز ّوجلّ قد صرف العرب عن معارضته.(إعجاز القرآن/13)

فلم أدع فيه مسألة لرافضيّ ولا لحديثي ولا لحشوي، ولا لكافر، ولا منافق مقموع ولا لأصحاب النّظام، ولمن نجم بعد النّظام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة...»[1]، وقد تحدّث الجاحظ عن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه "حجج النبوة"، و يرى أنّ معجزة النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه جاءت من جنس ما برع فيه قومه، كغيره من الأنبياء، يقول: «دهر محمد صلى الله عليه وسلم كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حُسن البيان، ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به، فحين استحكمت لفهمهم، وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق النّاس خطباؤهم بعثه الله –عزّ وجلّ– فتحداهم بما كانوا لا يشكّون أنّهم يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يقرّ عنهم بعجزهم، وينتقصهم على نقصهم حتى تبيّن ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبيّن لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما أتاه الله نبيا قط مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهان»[2]. والمقصود بالبرهان الإعجاز، فقد استعمل هذا اللفظ وكلمة الحجة والآية في معنى الإعجاز ويُعدّ الجاحظ هو السّبّاق إلى دراسة النّص القرآني والبحث في متنه.

ومن أشهر المؤلفين في إعجاز القرآن في القرن الرابع الهجري، الرماني (ت **384هـ**) في كتابه "النّكت في إعجاز القرآن"، والذي يُعتبر دراسة واسعة وعميقة للقرآن، وقد ذكر فيه سبعة أوجه للإعجاز هي: أولا: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، ثانيا: التحدي للكافة، ثالثا: الصرفة، ربعا: البلاغة، خامسا: الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، سادسا: نقض العادة، سابعا: قياسه بكل معجزة[3]. وهو يرفض أن يكون الوجه الأول –ترك المعارضة– إعجازا بل هو دليل على الإعجاز، وكذلك الوجه الثاني –التحدي للكافة– ليس وجها من أوجه الإعجاز بقدر ما هو داعية إلى الإعجاز، إذ أنه –التحدي– هو السبيل الذي استثار به الله البشر كافة لأنّ يعارضوا القرآن فانقطعوا ولم يستطيعوا[4]. أما باقي الأوجه فقد قبلها وتعمّق في جانب البلاغة.

---

[1]– رسائل الجاحظ ج287/03.

[2]– المرجع نفسه، ج03 /280.

[3]– ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/75.

[4]–المرجع نفسه/ 113.

ومن أهم كتب الإعجاز في القرن الرابع الهجري، كتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني (**ت403هـ**)، وهو يرى أن القرآن معجز من ثلاثة أوجه هي: الوجه الأول: تَضَمُّن القرآن، الإخبار عن الغيب، والاستدلال له. الوجه الثاني: إتيان القرآن بحمل ما يحدث: من عظميات الأمور، ومهمات السير، الوجه الثالث: بديع نظم القرآن، وعجيب تأليفه، وتناهيه عن البلاغة[1]، وقد أجمل الباقلاني في الحديث عن الوجهين الأول والثاني، وفصّل في الوجه الأخير وحدّد معالمه ومعانيه ؛ لأنّه يرى فيه السّبيل إلى الوقوف على إعجاز القرآن، يقول فيه: «إنّه لا يقف عليه إلاّ من عرف معرفة بيِّنَة وجوه البلاغة العربية، وتكوّنت له فيها ملكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام»[2]؛ أي من تكون له قدرة على التمييز بين أنماط الكلام عند النخبة من النّاس، فبلاغة القرآن لا تعلو إليها أيّ بلاغة كانت من شاعر أو خطيب أو أديب، في أيّ عصر من العصور.

وفي القرن الخامس الهجري برز كتاب "دلائل الإعجاز" للإمام عبد القاهر الجرجاني (**ت471هـ**) و قد ردَّ فيه الشّيخ عن القائلين بالصرفة خاصة وأنه يرى أن إعجاز القرآن في بلاغته وفصاحته، يقول: «أعجزتهم مزيا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صاد فوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها وواقعها»[3]، وتوافق ذلك مع المعاني، فإعجاز القرآن بالنسبة له ليس في اللفظ وحده، ولا في معنى اللفظ وإنّما في نظمه البديع، أيّ الإفصاح عن المعاني «في كلام يراعي التآخي بين معاني النّحو في الكلم، على حسب الأغراض التي تقصد»[4]، فرأيه في الإعجاز يوافق رأي الجاحظ و الباقلاني، كما ساهمت محاولات الكشف عن وجوه الإعجاز في نشأة نظرية النّظم عند الجرجاني.

ولقد قام الإمام فخر الدين الرازي (**ت606هـ**) بجمع ما قيل حول إعجاز القرآن في القرون التي سبقته في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" وذكر فيه خمسة أوجه للإعجاز على هذا الترتيب[5]:

---

[1]- إعجاز القرآن/ 48-71.

[2]- المرجع نفسه/151.

[3]- دلائل الإعجاز في علم المعاني ج01/ 39.

[4]- المرجع نفسه.

[5]- نهاية الإيجاز/ 104.

1.الصرفة، **2**.الأسلوب، **3**.خلوه من الاختلاف والتناقض، **4**.أخبار الغيب، **5**.الفصاحة، وهو لا يرى إعجازا في الوجوه الأربعة الأولى وقد ساق في كتابه حجج إبطاله لها، وقبل الرازي الوجه الخامس- الفصاحة- وتناوله بتوسع شمل البلاغة أيضا.

إنّ الكتب التي جاءت بعد القرن الخامس الهجري تعتبر كتباً جامعة ومُختصرةً لآراء العلماء والمفسرين في تلك الفترة، من هذه المؤلفات: "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للإمام جلال الدين الحضري السيوطي **(ت911هـ)**، والذي نقل فيه السيوطي أراء العلماء وعلّق عليها، ومن وجوه الإعجاز التي يذكرها في كتابه: «حسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحتها، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة، عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشّأن، فجاء نطقه العجيب، وأسلوبه الغريب مخالفا لأساليب كلام العرب، ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه، ووقعت عليه مقاطع آياته وانتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له»[1]، ومن وجوهه أيضا «إخباره بأحوال القرون السّالفة والأمم البائدة، والشّرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلاّ الفذّ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورد النّبي صلى الله عليه وسلم على وجهه، ويأتي به في نصه، ويعترف العالم بذلك بصحته وصدقه. وأنّ مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنّه صلى الله عليه وسلم أميّ لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة...» [2].

إنّ أقوال السّيوطي جامعة لوجوه الإعجاز التي اتفق عليها أغلب علماء التراث؛ فالقرآن معجز بلغته وبيانه، ومعجز بأخبار الغيب التي سيقت في متنه، والمقصود بالغيب كلّ ما كان مجهولا غير معلوم للنّاس، سواء من أخبار الماضي أو المستقبل القريب من زمن النبوّة أو البعيد عنها كعصرنا والعصور اللاحقة، ومعجز أيضا لما تضمنه من أحكام وشرائع تتعلق بحياة الإنسان في جميع المجالات، هذه ضروب الإعجاز التي اتفق عليها القدامى، ويبقى القرآن هو بحد ذاته آية معجزة لا يمكن حصر أوجه الإعجاز فيها، فهو معجز من «جهة اللفظ، ومن جهة النّظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أمر بها ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب في الماضي وعن الغيب في المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن

---

[1]- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج 23/01.

[2]- المرجع نفسه، ج 181/01.

المعاد، ومن جهة ما بيّن فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة»[1]، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤** ﴾[2]، وقال جلّ ذكره: ﴿ **وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧** ﴾[3].

1-2- آراء المحدثين حول الإعجاز:

دراسة القدامى للإعجاز في القرآن خلفية أثرت فكر الباحثين والدارسين من المحدثين فامتدت خطاهم على آثار الأولين، وطرق البعض منهم جوانب جديدة من الإعجاز، من هؤلاء اخترت سيد قطب ومحمد متولي الشعراوي.

سيد قطب **(ت1966م)** يرى أنّ الإعجاز في القرآن يكمن في المشاهد القرآنية ودقّة التصوير الفني، وجماله الحي والمحسوس على مستوى الآفاق والأنفس المترجم على آي القرآن في تناسق مذهل يقول فيه: «...هو تناسق يتجلى في جزئيات المشهد فتتبدى هذه الجزئيات منسقة بين بعضها البعض لونا من التماثل أو التشابه أو التداعي أو التقابل، ولكّنها من جوّ واحد لا نشوز فيه ولا مفارقات، ويتجلى ثانية في جرس الألفاظ ليدلّ هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان وليؤلف مع بقية الألفاظ إيقاعا يناسب جوّ المشهد في جميع الأحيان، فإذا الموسيقى المصاحبة للمشهد تكمل جوه، وتناسب أحاسيسه وتشترك مع الألفاظ في تصوير الغرض العام، ويتجلى ثالثة في اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه مع السياق الذي يعرض فيه، سواء جاء تعقيبا، أو مقدمة لبرهان أو تأكيدا لقضية أو تثبيتا للإيمان...» [4]، وهذا التناسق يشمل جميع آي القرآن وسوره، فإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا**

[1]- دراسات أصولية في القرآن الكريم/ 111.

[2]- الكهف، الآية/ 54.

[3]- الزمر، الآية/ 27.

[4]- مشاهد القيامة في القرآن/ 47.

نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢ ﴾[1]، نجد أنّ المشهد حيّ يتحرك عبر دلالة الألفاظ وجرس الحروف، من خلال ما يبعثه في النّفس من خوف واضطراب يتكرر كلما قرأنا هذه الآيات المصوّرة لحال الكافرين يوم القيامة، ولذلك يقول سيد قطب : «إنّ الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، وأجمله وأحياه أيضاً! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع و الظلال والجو. و مع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجوز الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال. و يبلغ من ذلك كلّه مستوى لا يدرك إعجازه أحد. »[2].

فإذا تأملنا أواخر الآيات فقط نجد معنى كلّ جملة يعود على آخر جملة من الآية التي قبلها، فـ"أصحاب السعير" صفة من ضلّ ضلال كبيرا–الكفار– بسبب تكذيبهم للرسل –النذير– لذلك سيلقون فيما يفور "جهنّم" وهو مصيرهم الأخير –فبئس المصير–.

بل حتى في تكرار الرّاء في نهاية الآية دلالة على تكرار العذاب –تفور، السعير– وعلى تعدد النذر – نذير– كلّ هذا يرسم مسحة الرّعب التي تدبّ في القلوب، وعلى الأبدان الراجفة من هول المنظر، فالحركة التي يلقيها تكرار الراء في هذه الآيات تعبّر بدقة عن أحد مشاهد يوم القيامة وهو أمر غيبي أخبر الله عنه العباد بحروف جعلته يبدو أمرا مشهودا.

فسيد قطب يرى الإعجاز «في التصوير القرآني الذي لم يسبق له مثيل والذي يبرز كظاهرة واضحة في أسلوب القرآن بشكل عام، وفي التعبير عن مشاهد الدنيا والآخرة بوجه خاص، حيث المشاهد القرآنية المتحركة والماثلة أمام العيان تراها العين، وتتمثلها الأذهان شاهدة مع التناسق في الجزئيات»[3]، كما أنه

---

[1]- سورة الملك/06-12.

[2]- في ظلال القرآن، ج 1787/03.

[3]- أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني/51.

–سيد قطب– يشير في كتبه: "في ظلال القرآن"، "التصوير الفني" إلى وجود الإعجاز في التشريعات التي تضمنها القرآن وأثرها في تنظيم حياة البشر.

محمد متولي الشّعراوي(ت1988م) من العلماء المحدثين الذين اهتموا بقضية الإعجاز، ورأى أنّ القرآن اخترق كلّ الحواجز الزمانية والمكانية، الزمانية بماضيها ومستقبلها وحتى أحوال الآخرة، أمّا المكانية فهي تشمل حتى النّفس البشرية وما يدور بداخلها من نوايا وسرائر، كما يرى الشّيخ الشّعراوي أنّ القرآن يفوق سائر الكتب السّماوية بمزايا عديدة من هذه المزايا: «أولا: أنّ معجزة القرآن معجزة عقلية باقية خالدة، لماذا؟ لأنّها معجزة للعالم وليست خاصة بأمة من الأمم، أو جنس من الأجناس، فهي باقية ببقاء الحياة وهذه الدار، ومن هنا فإنّ العالم لا يفتأ يجد فيها ما يسدّ فهمه ويشبع جوعته في شتى آفاق الحياة، فهي مأدبة الله في الأرض... أمّا في معجزات الأنبياء فهي معجزات حسية عادية تنتهي لمجرّد انتهاء عرضها.

ثانيا: المعجزة القرآن منهج ودستور.

ثالثا: إنّ معجزة النبّي صلى الله عليه وسلم صفة من صفات ربّ العزّة والجلال، وهي صفة الكلام والصفة باقية ببقاء الموصوف..» [1].

أمّا الأولى –المزية– فلما احتواه القرآن الكريم من معارف وعلوم متشعّبة، وما صحبها من دعوة العقل البشري للتدبر والتفكير، فلا تخلو آية فيها إشارة إلى عالَم كوني أو عالَم تكويني إلاّ واقترنت بذكر العقل أو العلم بمختلف صيغها، أو الألفاظ التابعة لدلالتهما، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴿١٦٤﴾ ﴾[2]، فالقرآن لم يترك صغيرة ولا كبيرة في هذا الكون إلاّ وذكرها، و تحدّث عن خلقها وتكوينها ومنفعتها وضررها بما في ذلك النّفس البشرية، والتوافق الموجود بين الحقائق العلمية والكونية في القرآن الكريم يبيّن ديمومة هذه المعجزة.

---

[1]– المنتخب من تفسير القرآن، ج01/ 16-17.

[2]– البقرة، الآية/ 164.

بالإضافة إلى ذلك الشّرائع التي تحكم النّاس، فإنّ أهميتها ظاهرة في حياة الإنسان، فالتّمسك بها والعمل بها يكسب الإنسان الرضا وصلاح أحوال الدنيا، والابتعاد عنها يوقعه في مطبّات الضياع، والمشاكل النّفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويكفينا مثالاً واقعنا المعيش، فالقرآن منهج ربّاني يتوافق مع الفطرة الإنسانية التي خَلقَ عليها ربّ العباد، والابتعاد عن المنهج هو انسلاخ عن الفطرة، وبذلك تبقى المعجزة القرآنية منهجا ودستوراً على مدى الحياة، وهي المزية الثانية في نظر الشّعراوي.

أمّا الثالثة فهي كون هذا القرآن كلام ربّ العالمين، و مادام الله دائم الوجود فإنّ كلامه مرتبط بوجوده.

لقد كثر القول في إعجاز القرآن عند القدامى والمحدثين، توحدت رؤاهم في بعض الوجوه واختلفوا في البعض منها، والقول الفصل: إنّ الإعجاز شمل القرآن لفظاً ومعنى وتعلّق ذلك بأبعاده وأهدافه في الحياة الدنيا والآخرة، فما كان -الإعجاز- منه على مستوى مبنى القرآن فهو إعجاز لغوي وبياني، وما كان على مستوى المعنى فهو أنواع عدّة، بل قد يرى بحسب أنواع المعارف وفروع العلوم، لذلك ظهرت مؤخرًا وجوه جديد مثل: الإعجاز العددي، والإعجاز العلمي، والإعجاز النّفسي... وهناك من الأنواع مازال العلم لم يكتشفها بعد في القرآن، لأنّ العلم مهما بلغ لن يستطيع الإلمام بالعلوم التي جعلها الله في كتابه، وسنتناول في هذه الدراسة أربعة وجوه هي:

-الإعجاز البياني.

-الإعجاز التشريعي.

-الإعجاز الكوني.

-الإعجاز العلمي.

2-أنواع الإعجاز في القرآن الكريم:

2-1-الإعجاز البياني:

إنّ ما تميّزت به ألفاظ القرآن من تناسب في الحروف، وإظهار للمعنى جعله كلاما فصيحًا مع كونه لفظاً عربياً مستعملا مؤدّياً للمعنى بوجه لا تعقيد به[1]، وبأساليب متنوعة لإيصال «المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»[2]، فكان بذلك بلاغيا، فقد جمع القرآن بين الفصاحة والبلاغة، و«المتتبع لآيات القرآن الكريم من العارفين بأفانين البلاغة يجد فيه فنونها بأسرها، من إفادة المعاني الكثيرة باللفظ القليل، ومن ضروب وأصناف الاستعارة، وحسن المطالع والمقاطع والفواصل، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، وخلوه عن اللفظ الغثّ، الشّاذ الخارج عن القياس، والشّارد النّافر عن الاستعمال إلى غير ذلك من أنواع الفنون البلاغية بحيث لا يرى المتصفح للقرآن الكريم وتراثيته، المتمرس في فنون البلاغة نوعا منها إلاّ مجده أحسن ما يكون»[3].

وهذا ما أقرّه علماء اللغة والأدب، والمفسرون خلال دراستهم للنص القرآني حين وقفوا على عجزهم أمام نظمه، لذلك نجد هذا الأخير قد احتل المساحة الأكبر في دراساتهم، فالإعجاز القرآني يتجلى من نظمه، كما قال النّورسي: «وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النّظم»[4]، فهو أول ملامح الإعجاز خاصة في الحقبة الأولى من الإسلام بالنسبة للعرب، فقد أعجزهم القرآن فيما عُرفوا به وبرعوا فيه، ولقد بهر النّظم القرآني «العرب بحسن مبادئ الآي والمقاطع، وتماسك الكلمات واتساقها في التركيب، وقد تأملوه آية آية، وعشرا عشرا، وسورة سورة فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى غيرها أصلح هناك وأشبه أو أخرى، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات ونظاما والتئاما وإتقانا وإمكانا لم يدع في نفس واحد منهم موضع طمع حتى خرست الألسن أن تدعي وتتقول»[5]، فألفاظه رغم أنّها الألفاظ المستعملة في كلام العرب والمتداولة في خطاباتهم، إلاّ أنّ استعمالها من طرف العزيز الحكيم أضاف إليها قيما دلالية وفنية أخرجتها عن المألوف، كما أنّها تحمل في الوقت

---

[1]- بدائع الفوائد، ج09/1.

[2]- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/ 76.

[3]- مباحث في إعجاز القرآن/121.

[4]- إشارات الإعجاز / 23.

[5]- المرجع السابق/ 142.

نفسه دلالات ماضيهم وحاضرهم، دنياهم وآخرتهم، ما يجهرون به وما يسرّون وما لا يعلمون من سرائر أنفسهم.

ومن نماذج الفصاحة في القرآن قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾[1].

إنّ وجه الفصاحة في هذه الآية أنّها شملت جميع حروف الهجاء، كما أنّ مفرداتها سهلة متناسقة تشمل تفاصيل واقعة أحد، فتظهر البلاغة جليّة على مستوى الألفاظ قبل التعبير، من ذلك: الإيجاز في كلمة "ثمّ" التي جاءت في بداية الآية «للدلالة على أنّ تراخيا من الزمن قد امتد بعد أن حلّ بهم ما حلّ في وقعة أحد في تلك الحادثة العجيبة، فبعد تصعيدهم في الجبل، وإشاحة وجوههم عن رؤية ما حدث لفرط ما نابهم من الدهشة واستولى عليهم من الفزع والهلع أتبعهم الله غما بعد غم، أو على غم، أو بسببه حدث نزول الأمن فرنّق النّعاس في الأجفان »[2].

ودلالة ثمّ على التراخي في الزمن تتوافق مع الحالة التي كانوا عليها حين أصابهم النّعاس وما يتبعه من استرخاء في المفاصل، فقد وافقت دلالة الألفاظ أحوال الأفراد، ومن مواطن الإيجاز أيضا كلمة "شيء" في هذه الآية، في قوله تعالى: ﴿هل لنا من الأمر شيء﴾ التي «احتوت على ما تضيق عنه الصحف كالنّصر والظهور على العدو، بعد أن اشتدت وطأته وضراوته»[3]. إنّ هذا التطابق بين دلالة الألفاظ، ودلالة الحروف والمعاني المرادة سمة في القرآن ووجه من أوجه فصاحته وبلاغته، فلا يخلو موضع في القرآن

---

[1]- آل عمران، الآية/154.

[2]- إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج79/02.

[3]- المرجع نفسه،ج80/02.

منه، فإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ** ۝١٨﴾[1]، نجد من الدقة في اختيار الألفاظ ما يتناسب مع طبيعة هذا المخلوق -النّمل- إعجازا في حد ذاته، فإذا تساءل القارئ لماذا قالت النملة "يحطمنّكم" ولم تقل "يقتلنّكم" أو "يقضي عليكم"؟!

إنّ التحطيم في اللغة هو التّهشيم، والتّهشيم يفيد ما كان يابسا وهو ما يتناسب مع جسم النملة، المغلف بغلاف يابس، لأنّه يتكوّن من نسبة كبيرة من الزجاج كما أثبته العلم الحديث، فكان التعبير بالفعل "يحطمنّكم" أنسب في هذا المقام لأنّ الحطم: «حقيقة الكسر لشيء صلب، واستعير هنا للرفس بجامع الإهلال»[2]، وجاء في لسان العرب في مادة "حَطْمٌ" «الحطم: الكسر في أي وجه كان، وقيل هو كسر الشيء اليابس كالعظم ونحوه، حطمه، يحطمه، حطما أي: كسره، وحطمه فانحطم، وتحطم، والحطمة، والحطام ما تحطم من ذلك ...والتحطيم: التكسير»[3].

إنّ هذا التوافق في مدلول المادة اللغوية لهذا الفعل، مع المادة التكوينية لهذا المخلوق هو سرّ الإعجاز في لغة القرآن، والذي يقول فيه مصطفى صادق الرافعي: «من أعجب ما رأيناه في إعجاز القرآن وإحكام نظمه أنّك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه، ثم تتعرّف ذلك وتتغلغل فيه، فتنتهي إلى أن معانيه منقادة لألفاظه، ثم تحسب العكس، و تتعرفه متثبّتا فتصير منه إلى عكس ما حسبت، وما إن تزال مترددا على منازعة الجهتين كلتيهما حتى تردّه إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة، ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة»[4]. وبذلك بلغ القرآن قمّة الفصاحة لما تتضمنه ألفاظه وحروفه من حقائق المضمون، وما يتضمّنه المضمون من طبيعة الملفوظ، ولا يمكن أن يصدر ذلك بهذه الدقة والإيجاز في التعبير، إلاّ من لدن حكيم، فالتعبير الواحد قد يتعدى حدود معنى معين للإشارة إلى عدة علوم.

أمّا من ناحية البلاغة فهي الوجه الثاني للبيان القرآني، الذي لا يكاد أن يخلو موضع فيه منها، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة هود: ﴿**وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ**

---

[1]- النمل، الآية/ 18.

[2]- التحرير والتنوير، ج19 /243.

[3]- لسان العرب، مادة (حطم).

[4]- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ 36.

﴿ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]، لقد تعددت اللطائف في هذه الآية من حيث المعاني، والبيان، لذلك أجمع علماء البلاغة: «على أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الشَّرِيفَةَ بَالِغَةٌ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ إِلَى مَحَلٍّ يَتَقَاصَرُ عَنْهُ الْوَصْفُ، وَتَضْعُفُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمَا يُقَارِبُهُ قُدْرَةُ الْقَادِرِينَ عَلَى فُنُونِ الْبَلَاغَةِ، الثَّابِتِينَ الْأَقْدَامَ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ، الرَّاسِخِينَ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ، الْمُطَّلِعِينَ عَلَى مَا هُوَ مُدَوَّنٌ مِنْ خُطَبِ مَصَاقِعِ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ، وَأَشْعَارِ بَوَاقِعِ شُعَرَائِهِمْ، الْمُرْتَاضِينَ بِدَقَائِقِ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَسْرَارِهَا »[2].

إنّ طريقة عرض خطاب الله للجمادات في هذه الآية من مقامه الشّريف وهو على عرشه، الدالة– الطريقة– على مطلق إرادته، هي وجه الإعجاز البلاغي في هذه الآية، من خلال النّداء المباشر والموجه إلى الأرض والسّماء، وكأنّها كائنات عاقلة: فالله تعالى عندما: «أراد أن يُبين معنى أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد، وأن نقطع طوفان السّماء فانقطع، وأن نغيض الماء النّازل من السّماء، من الكلام على تشبيه المراد منه بالمأمور الذي يتأتى منه لكمال هيبته العصيان، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النّافذ في تكوين المقصود تصويرا لاقتداره تعالى، وأنّ السّماوات والأرض وهذه الأجرام العظام التابعة لإرادته كأنّها عقلاء مميزون، وقد عرفوه حقّ معرفته وأحاطوا علما بوجوب الانقياد لأمره، وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده»[3]، ويدل على القوة التي تتضمّنها دلالة الأفعال المستعارة لبيان حال الأرض، وحال السّماء في امتثالها لأمر الله عزّ وجلّ، فهو حين أمر الأرض بالانشقاق "قيل يا أرض ابلعي ماءك"، استعار "البلع" وهو مخصص لما يؤكل ليعبّر بهذا اللفظ عن غور الماء في الأرض جملة واحدة، ثم أمر السّماء بالكفّ عن إرسال المطر باستعارة "الإقلاع"، والنّداء بهذا الأمر موجه إلى الأرض والسّماء لأنّهما تشتركان في إيجاد الماء، الأرض بما تتوفر عليه من عيون وأنهار، والسّماء بما تدّره من أمطار وقرينة المجاز في ذلك تكليف الجمادات.

والمعجز –أيضا– في هذه الآية أنّها تشكل وحدة متلاحمة يظهر من خلالها المشهد المقصود، بالصورة التي أرادها الله سبحانه وتعالى، وهي بيان عظمته وقدرته المطلقة من خلال تلاحق معاني الألفاظ وتعلّقها ببعضها، يقول عبد القاهر الجرجاني: « فتأملْ: هل ترى لفظة منها بحيثُ لو أُخِذَتْ من

---

[1]– هود، الآية/ 44.

[2]– فتح القدير، ج568/02.

[3]– الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني و البيان والبديع)/ 251-252.

بين أَخواتها وأُفردتْ، لأَدَّت منَ الفصاحة ما تُؤدِّيه وهي في مكانها منَ الآية؟ قُل: "إبلَعي"، واعتبرْها وحْدَها من غيرِ أن تَنْظُرَ إلى ما قَبْلَها وما بعدَها، وكذلك فاعتبرْ سائرَ ما يليها. وكيفَ بالشكَّ في ذلك ومعلومٌ أنَّ مبْدَأ العظمةِ في أن نُوديت الأرضُ، ثم أُمرَتْ، ثم في أن كان النداء ب "يا" دُوْنَ "أيّ"، نحوُ "يا أيتها الأرضُ"، ثم إضافةِ "الماءِ" إلى "الكافِ"، دونَ أن يقالَ: "ابلعي ماءك"، ثم أنْ أُتبعَ نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها، نداءَ السّماء وأمرَها كذلك، بما يَخصُّها، ثم أنْ قيل: و {وَغِيضَ الْمَاء}، فجاء الفعلُ على صيغة "فُعِل" الدالَّةِ على أنَّه لم يَغِضْ إلاَّ بأَمر آمرٍ وقُدرةِ قادرٍ، ثم تأكيدُ ذلك وتقريرُه بقولهِ تعالى: {وَقُضِيَ الْأَمْرُ}، ثم ذكرُ ما هو فائدةُ هذه الأمور، وهو: {اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي}، ثم إضمارُ "السفينةِ" قَبْل الذكْر، كما هو شرطُ الفخامةِ والدلالةِ على عِظَم الشأن، ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أَفَتَرى لِشيءٍ من هذه الخصائصِ التي تملوك بالإعجازِ روعةً، وتحضُرُكَ عندَ تصورِها هيبةٌ تُحيطُ بالنّفس من أقطارِها تعلُّقاً باللفظ من حيثُ هو صوتٌ مسموعٌ وحروفٌ تَتوالى في النُّطق؟ أم كلُّ ذلك لما بينَ معاني الألفاظِ مِنَ الاتِّساقِ العجيب؟ »[1]

إنّ معاني الآية الكريمة تنساب بالقوة التي تحملها دلالة الألفاظ من خلال رنين حروفها الذي ينقل القارئ إلى جوّ الآية ويجعله أحد عناصر الصورة الأدبية المشكَّلة، وذلك حين يحاول القارئ إيجاد القرائن لتحديد مقصديّة هذا الخطاب وهذه هي خاصية القرآن الكريم، فهو يخاطب النّاس بلغة رغم بساطة معانيها إلاّ أنّها ذات روحية عالية، من خلال قدرتها على حمل معان عدة، ورسم مشاهد مختلفة، بأسلوب بديع يتميّز بالمرونة في التعبير والقدرة المطلقة على التصوير معتمدا على الاستدلال بالمحسوسات والمعقولات بشكل يتناسب وسياق الآيات فـ «تبرز عظمة القرآن في مبانيه ومعانيه، وما أودعه الله فيه من دقائق الأساليب، وجوامع الإحكام والإتقان، ومراعاة أدق الفروق عند استعمال الألفاظ»[2]، لذلك فإنّ دائرة الحقول المفهوميّة للألفاظ تبقى مفتوحة على الاتساع بحسب الاستعمال، فالسياق قد يضيف للمادي منها معان روحية وعقلية، وقد يحدث العكس، بحسب طرفي الاستعارة، والجامع بينهما. والهدف من ذلك إيصال المعنى، وهذا الأمر يجعل أوجه الإعجاز ممكنة التعدد في الموضع الواحد من القرآن الكريم.

---

[1]- دلائل الإعجاز في علم المعاني، ج01/ 45.

[2]- درة التنزيل وغرة التأويل، ج01/ 162.

2-2- الإعجاز التشريعي:

إنّ حكمة المولى عزّ وجلّ من خلق الإنسان على وجه الأرض، اقتضت أن يضع له جملة من القوانين يُسيّر حياته وفقها؛ لأنّ الكون يسير وفق نواميس معينّة، وتَرْكُ الإنسان دون ضوابط يؤدي إلى اختلال نظام الكون. فكان لابدّ من وضع قوانين شرعية تتوافق مع النواميس الكونية، وقد تضمن القرآن الكريم هذه القوانين التي تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحها لكل زمان أنّها من عند الله، وأنّ لا طاقة للخلق أن يوجد لها نظيرا مهما بلغت العقول، ذلك أن التشريع مبني على تحقيق مصالح العباد في الدارين، ولا يحيط بتلك المصالح أحد من خلق الله لقصور العلم، والنّقص بالطبع، لكنّ الله سبحانه هو الخالق فهو أعلم بخلقه وحاجتهم وما يكون له صلاحهم وفسادهم[1]، قال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾﴾[2]، فالله سبحانه وتعالى عندما جعل المنظومة الكونية متعلقة بحياة الإنسان مسخّرة له، وضع جملة من الشرائع للمحافظة على توازنها، هذه الشرائع تتمثل في القوانين التي تضبط العلاقات بين الأفراد، في مختلف نواحي الحياة، مثل: الزواج والطلاق، والميراث، وقوانين عقود البيع والشراء، وغيرها من المفاهيم التي حمّلها الإسلام بمجيئه شروطا أعطتها صفة الشرعية، بهدف المحافظة على المنظومة الاجتماعية، وبالتالي تحقيق التوازن النّفسي للبشرية، ومن ثم الحفاظ على استقرار النظام الكوني، وهنا يكمن الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، فالحديث عنه هو «حديث عن النّظام الخالد للكون وما فيه، فالذي أبدع الكون من العدم، وأوجد فيه من المخلوقات ما لا يحصى عددا، وجعل أشرف هذه المخلوقات وأكرمها بني آدم، قد اختار لهذا المخلوق المعزز دستورا في الحياة ينظم سلوكه في الدنيا وعلاقته بنفسه وبخالقه سبحانه وتعالى، ورتب نتائج دنيوية وآخروية على نتيجة تسير وفق هذا الدستور الإلهي الكريم»[3].

والمتمعّن في القرآن الكريم يجد أنّ هذه الأحكام الشرعية تتميّز بالشمولية، أي أنّ الله سبحانه وتعال لم يترك صغيرة ولا كبير تتعلق بحياة الأفراد ومعاشها إلاّ وتناولها فقد شملت أحكامه علاقة الفرد بربِّه وبأسرته، وعلاقة الفرد بمجتمعه... فقد تضمنت هذه الأحكام قيما روحية وإنسانية نزهت الإنسان عن

---

[1]- المقدمات الأساسية في علوم القرآن/28.

[2]- الملك، الآية/ 14.

[3]- مباحث في إعجاز القرآن/231.

الحيوانية في قانونها. و«المتعمّق في دراسة التشريعات الإسلامية في مختلف مناحي الحياة؛ يدرك إدراكا واضحا وجليا أنّ هذه التشريعات تهدف إلى هداية الإنسان في حياته الدنيا إلى أقوم السبل التي تحفظ للإنسان إنسانيته، وتطلق طاقاته الإيجابية نحو الكمالات البشرية، وتحفظ له نظرته المستقيمة، وتوفر له التوازن الدقيق في متطلباته الجسدية والمادية، وأشواقه الروحية مع انسجام تام مع المحاكمات العقلية، مما يتم الطمأنينة النفسية والسعادة في حياته الدنيا، وهي السبيل إلى الحياة الباقية في الدار الآخرة»[1]، إنّ السّعادة الأبدية-في الدارين- المنشودة من الأحكام التشريعية، هي المطلب الذي فشلت النّظم والمذاهب البشرية في تحقيقه عبر التاريخ، ذلك لأنّها لم تراع مبدأ التضاد الذي جبل عليه هذا الكون.

فهي لم تحط بأسرار هذا المخلوق -الإنسان- ، إحاطة العليم بما يصنع، أمّا القرآن الكريم فقد جاء «بهدايات كاملة تامة تفي بحاجات جميع البشر في كل زمان ومكان؛ لأنّ الذي أنزله هو العليم بكل شيء، خالق البشرية والخبير بما يصلحها، ويفسدها وما ينفعها وما يضرّها، فإذا شرع أمرا جاء في أعلى درجات الحكمة والخبرة»[2]، فاهتم القرآن بتربية الفرد باعتباره الوحدة الأساسية في بناء المجتمع، فنظّم عقائد الإنسان وعباداته، وتعدى ذلك إلى علاقاته مع غيره كعلاقة الرجل بمحارمه أو زوجته، ولم يقف القرآن عند هذا الحد بل اهتم بتنظيم مصالح المجتمعات والسياسات والدول «فما اشتمل عليه القرآن من أحكام سواء ما كان منها يتعلّق بالأسرة أو ما يتعلّق بالمجتمع، وما يتعلّق بالعلاقات الدولية، فريد في بابه لم يسبقه شرع سابق، ولم يلحق بما وصل إليه شرع لاحق، وإذا ما كان ذلك كله قد جاء على لسان أمي لا يقرأ ولا يكتب...إنّ ذلك هو الإعجاز الذي تتيه العقول في تعرف سببه، إلا أن يكون ذلك من عند الله العلي الحكيم»[3]، المبلغ على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه، الذي تجسدت الشريعة الإسلامية في أقواله وأفعاله، وحتى في أخلاقه، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم شريعة الله فوق الأرض، فلقننا العقيدة الصحيحة وبيّن جوهر الإسلام في جانب المعاملات والعبادات.

إنّ الشّريعة الإسلامية تحترم الإنسان في جوهره، وتسعى إلى الرقيّ بروحه إلى أعلى مراتب الفضيلة الصادرة من عند الله عزّ وجلّ، لذلك تفوقت عبر جميع الأزمنة على غيرها من الشرائع، لأنّها تتناسب

---

[1]- مباحث في إعجاز القرآن/ 258.

[2]- عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنّة/ 50.

[3]- شريعة القرآن من دلائل إعجازه/ 13.

وقوانين الفطرة البشرية القائمة على العدل والخير والحق، فـ«إذا أجريت مقارنة بين ما اشتمل عليه القرآن وما اشتملت عليه الشرائع التي سبقته أو عاصرته بدا لك الفرق بين السّمو الروحي والأخلاق الأرضية... وإنّ القوانين التي تسير عكسا لا طردا كالقانون الروماني، قوانين ظالمة، كيف؟ لأنّها تستمد منطقها من القوة الغالبة، فكلما كان الشّخص من ذوي الجاه ضعفت عقوبته، وكلما كان من الضعفاء زادت من عقوبته، فهو يحمي الشريف ولا يحمي الضعيف، وقد سمّي القرآن ذلك حكم الجاهلية، ولذا قال الله في حق اليهود عندما طلبوا أن يحكم النبيّ على الشّريف الزاني بغير العقوبة المقررة[1] ﴿**أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ۝﴾[2] ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**إنّما** أهلك الذين من قبلكم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[(3)].

كيف إذن لشريعة تستند إلى العوارض في حكمها أن يدوم بقاؤها؟! لا القوة دائمة لصاحبها، ولا الضعف لازم بصاحبه، فموازين القوة والضعف متغيّرة وهنا يتجلى قصور العقل البشري عن إحاطته بأحوال النّاس، والتغيرات المستقبلية، بينما تستمد شريعة القرآن ثبوتها بالاستناد إلى مصدرها الإلهي الخالق لهذا العقل البشري المحيط علما بمتطلبات كلّ واقع، والعدل هو القطب الأساسي الذي بنيت عليه أحكام الشريعة الإسلامية فمن أعلى منزلة وشرفا في الإسلام من محمد وآل بيته، ورغم ذلك يتعهّد الرسول بتطبيق حد السرقة على ابنته لو فعلت ذلك، ويظهر من خلال ذلك أنّ شريعة القرآن تراعي المصالح العامة والنّاس عندها سواسية فحررت الإنسان من العبودية التي كانت نظاما ثابتا في الشّرائع السّابقة، فقد «قرّر أرسطو أنّ الرّق نظام الفطرة، لأنّ النّاس أناس لا يمكن أن يعيشوا إلا أرقاء، وآخرين لا يكونون إلاّ أحرارا...، فجاء النّبي الأمي وقال: (النّاس سواسية كأسنان المشط)، وقال: (كلكم لآدم وآدم من تراب)، ولم يسجل القرآن الرّق في محكم آياته بل سجل العتق، فلم يرد في القرآن نص قط يبيح الرّق، بل نصوصه كلّها توجب العتق»[(4)].

1- شريعة القرآن من دلائل إعجازه/13.

2- المائدة، الآية/50.

3- صحيح مسلم، 1315/3.

4- شريعة القرآن من دلائل إعجازه / 15.

إنّ قيام الشّريعة الإسلامية على مبدأ العدل، واحترام حرّيات الأفراد أشبعت الجانب الروحي للإنسان، ودفعته إلى إنشائها لأنّها لا تتعارض مع فطرته السليمة، فقد كفلت الشريعة الإسلامية للإنسان حرية التديّن ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1]، وبقيامها على هذه المبادئ -الحرية- تجلّت أخلاقياتها العالية، والتي دعا القرآن إلى التحلي بها في كثير من الآيات، لأنّها الأساس المتين والصحيح في تكوين اللبنة الأساسية في المجتمع، ألا وهو الفرد فالكثير من الآيات الكريمة تعرض «أمهات الأخلاق الفاضلة وتدعو إلى التمسك بها لأنّها أمر إلهي، وفي التّمسك بها فلاح البشرية وسعادتها والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، وبالنّص على هذه الأمور العامة وكأنّ الهدايات القرآنية ترسم الخطوط العريضة في خارطة السلوك البشري، وما ينبغي أن يكون الحال عليه»[2].

إنّ الكمال البشري لا يمكن أن يتحقق إلاّ إذا اتصف الإنسان بأخلاق الإسلام، المنثورة في كتاب الله والمنبثقة من أسمائه وصفاته العليا، وإنّ قراءة أيّ آية تدعو إلى خلق ما بعين مؤمنة، تضع القلب على أبواب الرحمة التي يفتحها الله للإنسان في كلّ آية، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[3]، تتحدث الآية الكريمة عن أنواع البرّ في مجال العقيدة وفي مجال الشريعة وفي مجال الأخلاق فإذا كان «البرّ سعة الإحسان وشدة المرضاة والخير الكامل الشامل لذلك توصف به الأفعال»[4]؛ فهو صفة للأفعال المحمودة الخالصة لوجه الله، فالعقيدة الصحيحة لا تملي على صاحبها القيام بأفعال مخصوصة في جهات معيّنة، هذا التصديق يرتبط بسلامة القلب وخلوه من النفاق، والشّريعة السمحة

[1]- البقرة، الآية/ 256.

[2]- مباحث في إعجاز القرآن/ 251.

[3]- البقرة، الآية/ 177.

[4]- التحرير والتنوير، ج128/04.

الهادفة إلى ربط أواصر الجامعة من خلال ترغيب النّاس في الإنفاق، ومن ثمّ تربية النّفس على القناعة، والشعور بالغير فلا يخلو أيّ حكم شرعي في مجال العبادات والمعاملات من القيم الروحية والأخلاقية، فالصلاة بالإضافة إلى أنّها صلة بين العبد وربّه فهي تهذب النّفس البشرية من خلال نهيها عن الفحشاء والمنكر، كما أنّها تقوي الروابط الاجتماعية من خلال أدائها في المساجد، ويزيد هذه الروابط توثيقا إيتاء الزكاة وما تنشره من رحمة بين النّاس.

وإذا أضاف الإنسان إليها الوفاء بالوعد، والصبر في السراء والضراء، وصل إلى أعلى مراتب الإحسان من خلال تطبيقه لشرائع الله في مجالي العبادات والمعاملات، يقول الطاهر بن عاشور في معاني هذه الآية: «فَلِلَّهِ هَذَا الِاسْتِقْرَاءُ الْبَدِيعُ الَّذِي يَعْجِزُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيبٍ وَحَكِيمٍ غَيْرَ الْعَلَّامِ الْحَكِيمِ.وَقَدْ جُمِعَتْ هَذِهِ الْخِصَالُ جِمَاعَ الْفَضَائِلِ الْفَرْدِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ النَّاشِئِ عَنْهَا صَلَاحُ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ أُصُولِ الْعَقِيدَةِ وَصَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ. فَالْإِيمَانُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ هُمَا مَنْبَعُ الْفَضَائِلِ الْفَرْدِيَّةِ، لِأَنَّهُمَا يَنْبَثِقُ عَنْهُمَا سَائِرُ التَّحَلِّيَّاتِ الْمَأْمُورِ بِهَا، وَالزَّكَاةُ وَإِيتَاءُ الْمَالِ أَصْلُ نِظَامِ الْجَمَاعَةِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، وَالْمُوَاسَاةُ تَقْوَى عَنْهَا الْأُخُوَّةُ وَالِاتِّحَادُ وَتُسَدِّدُ مَصَالِحَ للْأمة كَثِيرة وببذل الْمَالِ فِي الرِّقَابِ يَتَعَزَّزُ جَانِبُ الْحُرِّيَّةِ الْمَطْلُوبَةِ لِلشَّارِعِ حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَحْرَارًا. وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ فِيهِ فَضِيلَةٌ فَرْدِيَّةٌ وَهِيَ عُنْوَانُ كَمَالِ النَّفْسِ، وَفَضِيلَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَهِيَ ثِقَةُ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

وَالصَّبْرُ فِيهِ جِمَاعُ الْفَضَائِلِ وَشَجَاعَةُ الْأُمَّةِ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى هُنَا: أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ فَحَصَرَ فِيهِمُ الصِّدْقَ وَالتَّقْوَى حَصْرًا ادِّعَائِيًّا لِلْمُبَالَغَةِ، وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ تَحَقَّقَ فِيهِمْ مَعْنَى الْبِرِّ. »[1] إنّ أحكام الشريعة الإسلامية لا تقف عند الامتثال لأوامر الله عزّ وجل فقط، بل لها أبعاد إنسانية كونية تصل الكائنات ببعضها في مداها الدنيوي وتحفظ لكلّ مخلوق قيمته الوجودية.

فحين شرّع الزواج –على سبيل المثال– للمحافظة على بقاء النّسل، حافظ في نفس الوقت على أعراض النّاس من الانتهاك، والمجتمع من الوقوع في مطبات الفواحش وآثارها لذلك حرّم الزنا، يقول تعالى: **﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾**[2].

---

[1]- التحرير والتنوير، ج02/ 132.

[2]- النور، الآية/02.

وحين شرّع القصاص فمن أجل حقن دماء النّاس، وتعدى حكم القصاص الأنفس إلى الأعضاء لتفادي الاعتداءات، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾[1].

ويقول في سورة المائدة: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾[2].

إنّ هذه الأحكام التي تبدو في مظهرها قاسية، بل هي رحمة للبشرية، في غاياتها التي تكفل للفرد الرعاية الجسدية والنّفسية والروحية، ويكفينا أن نتصوّر الضرر الذي قد يلحق بمجتمع لا يتقيد بهذه الأحكام، ولماذا التصوّر! فواقعنا المعيش والظواهر السلبية الشائعة في مجتمعاتنا الإسلامية أكبر دليل على أثر الانحراف عن أحكام الشريعة الحقة التي ألمت قوانينها بحماية خصوصيات النّاس وعمومياتهم، فكما حمت الأبدان والأرواح والأعراض سنّت قوانين لحماية الأموال من أنواع الاستغلال اللاشرعي والاستيلاء، يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾[3]، فحرّم الله الرّبا والرّشوة وأحلّ البيع والشراء، ودعا النّاس إلى الإنفاق، وجعل للفقراء حقّا من أموال الأغنياء.

لقد شملت الرعاية الإلهية حياة الإنسان في كلّ جوانبها، فردا وأسرة، ومجتمعا وحتى دولا وحكومات؛ فـ«من الموضوعات اللافتة للنظر في القرآن الكريم تشريعاته المتعلقة بشؤون السّلطة والسياسة الداخلية والخارجية للدول الإسلامية في السلم والحرب، لقد أقام الإسلام دولة لم يشهد التاريخ لها مثيلا تحققت

---

[1]- البقرة، الآية/ 178-179.

[2]- المائدة، الآية/ 45.

[3]- البقرة، الآية/ 188.

فيها كلّ مقوّمات السعادة والأمن والعدل وكلّ مظاهر القوة والعظمة والمجد، وذلك نتيجة تطبيق أحكام القرآن، فالدولة تستمد عظمتها ومجدها من المبادئ التي تحملها الإنسانية وتسهر على تطبيقها بنزاهة وعدالة»[1].

إنّ قيام الدولة الإسلامية لم يكن على عبث، بل على جملة من الشرائع الإلهية الهادفة إلى صلاح الأمة، فكانت أسسها مثالية همّها الأول هو تحقيق الأمن والسلام، ولا يمكن توفر هذين العنصرين إلاّ إذا كان حاكم الأمّة عادلا بين الرعية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم المثال الأعلى للبشرية في حكمه، حيث نفّذ ما أمره الله به سبحانه وتعالى، إذ يقول: ﴿**فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ** ﴿١٥﴾﴾[2]، لما كان قيام الخليقة وتأسيس الدول وسعيها في الأرض وحرثها -عملها- بهدف هداية النّاس إلى الحق تبارك وتعالى، كان لابدّ أن يجد هذا المخلوق صفة خالقه في شرائعه، لذلك كان العدل المطلب الأساسي في الدعوة الإلهية، من خلال جعله مبدأ أساسيا في قيام الدولة الإسلامية، وقد جعل الله من سورة الشورى دستورا إلهيا لكلّ السياسات الهادفة بما تتضمّنه من قيم سياسية.

فبالإضافة إلى العدل، تحدثت السّورة أيضا عن "الشورى" وهي من المبادئ الأساسية التي تضمن دوام أنظمة الحكم واستقرارها إذا كان ساستها صالحين، يقول تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾**﴾[3]، ويقول في سورة آل عمران: ﴿**فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ**

---

[1]- مباحث في إعجاز القرآن/ 243.

[2]- الشورى، الآية/ 15.

[3]- الشورى، الآية/ 38.

﴿159﴾[1]، نجد أنّ القرآن الكريم أولى اهتماما كبيرا بالشخصية الحاكمة فأكّد على تكوينها الديني (قيامها بالعبادات) وتكوينها الأخلاقي في (المعاملات)؛ لأنّها الشخصية المحورية التي تقوم عليها الدول، والتي يجب أن تكون قدوة لرعيتها حتى تشمل المصلحة المادية والمعنوية جميع أفرادها.

إذن، فالشريعة الإسلامية شريعة شاملة لجميع مناحي الحياة، مطاوعة من حيث إنّها تناسب كلّ العصور مهما اختلفت الفروق بينها –أي بين العصور–، لأنّ الله سبحانه وتعالى كان دقيقا في وضعه لهذه الشرائع، فضبط أنواع العبادات وكيفياتها، لأنّ ذلك متعلق به جلّ وعلا، وترك الكيف في بعض الأحكام المتعلقة بالمعاملات للعبد مادامت الوسائل المتاحة في تطبيقها متعددة، وتختلف من جيل إلى جيل كالشورى مثلا، كما أنّها شريعة عادلة، لأنّها تتحرى العدل في كلّ العلاقات، فكان الإعجاز التشريعي؛ لأنّ«القرآن معجز في تنظيمه لأحوال البشر في جانب العقائد والعادات وفي تنظيمه لجميع مصالح الأفراد والمجتمعات والسياسات والدول، فقد نظّم الإسلام حياة الإنسان في نفسه ومع غيره»[2]، وأعطى الأهمية الكبرى للأخلاق لأنّ الهدف من تنظيم الشرائع هو إقامة حياة فاضلة، يبلغ الإنسان فيها أعلى مراتب الكمال البشري، فإذا «كانت العقائد تشكل أركان الصرح الإسلامي، فإنّ التشريعات تكون تقسيمات حجراته وممراته ومداخله والأخلاق تضفي البهاء والرونق والجمال على الصرح المكتمل، وتصبغه الربانية المتميّزة»[3]، وإذا نظرنا إلى الأخلاق التي دعا إليها القرآن، نجد أنّها من صفات وأسماء الله، الذي وضع هذه الأنظمة حتى لا يختل التوازن الإنساني الذي يعتبر حلقة أساسية في المنظومة الكونية، فالنّظام هو المنهج الرباني الذي خلق الله عليه خلائقه.

ولابدّ من التّوافق بين الشريعة الإلهية والشريعة الفطريّة –الكون– لأنّها من مصدر واحد فالشّرائع حجة بيّنة على أنّ هذا القرآن وحيٌ من عند الله عزّ وجلّ، كما أنّها جوانب الإعجاز القرآني الذي تحدى به العرب وغيرهم من حيث المحتوى الذي أفحم المفكّرين على اختلاف العصور، فكيف يتأتى لمحمد صلى الله عليه وسلّم في تلك الفترة القصيرة التي دعا فيها إلى الإسلام أن يبتكر وتظهر هذه التشريعات التي تناولت جميع مجالات الحياة سياسية، واقتصادية وتربوية وعقائدية وتشريعية، لا تقتصر على وقت معين،

---

[1]– آل عمران، الآية/159.

[2]– دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم/ 133.

[3]– مباحث في إعجاز القرآن/ 269.

أو تهتم بجيل خاص، وإنّما تصلح لجميع الأزمان، والأمكنة، وبجميع الأجيال التي تختلف في تفكيرها وعلومها، وقدراتها بتلك الأحكام الضابطة لأمور الدنيا والآخرة جميعا لا تتغيّر، لأنها من وضع العليم الخبير الحكيم»[1]. فقد وضعها سبحانه وتعالى مع ما يتناسب وفطرة الإنسان، والقوانين التي سنها في هذا الكون، فكان قوله الحق وفعله الحق، ومنهجه الحق، هذه الحقائق التي جعلت من كتابه كتابا خالدا. فهو كتاب جامع لكلّ المباحث المتعلقة بحياة الإنسان وغيره من الكائنات، كما أنّه جامع لكلّ أنواع المعارف والعلوم، والشّرائع، وكتاب ذكر كما أنّه كتاب دنيا وكتاب آخرة فهو منار الصراط لمن تعلّق قلبه بالله.

وكلّ هذه المباحث في القرآن بنيت على حجج عقلية، حتى يتسنى للإنسان بلوغها عن طريق العلم الذي هو الأساس الأول في بناء عقيدة صحيحة، وبناؤها لا يكون إلاّ بمعرفة الله التي لا تكون إلاّ بالتدبر في ملكوته ومكتوبه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[2] فأيّ نوع من الإعجاز تحمل هذه الآيات. وما هي أبعاد العلاقة بين القرآن والكون؟

2-3- الإعجاز الكوني:

2-3-1- تعريف الكون:

الكون في اللغة: «الحدث يكون بين النّاس، ويكون مصدراً من كان يكون... والكينونة في مصدر كان أحسن. والكائنة أيضاً: الأمر الحادث. والمكان: اشتقاقه من كان يكون، فلما كثرت صارت الميم كأنها أصلية فجمع على أمكنة، ويقال أيضاً: تمكّن، كما يقال من المسكين: تمسكن»[3]، وحول دلالة الأصل اللغوي لهذه المفردة يقول ابن فارس: «الْكَافُ وَالْوَاوُ وَالنُّونُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِخْبَارِ عَنْ حُدُوثِ شَيْءٍ، إِمَّا فِي زَمَانٍ مَاضٍ أَوْ زَمَانٍ رَاهِنٍ. يَقُولُونَ: كَانَ الشَّيْءُ يَكُونُ كَوْنًا، إِذَا وَقَعَ

[1]- عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن/ 158.

[2]- آل عمران/190.

[3]- العين، مادة (كون).

وَحَضَرَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: **280**] ، أَيْ حَضَرَ وَجَاءَ. وَيَقُولُونَ: قَدْ كَانَ الشِّتَاءُ، أَيْ جَاءَ وَحَضَرَ. وَأَمَّا الْمَاضِي فَقَوْلُنَا: كَانَ زَيْدٌ أَمِيرًا، يُرِيدُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي زَمَانٍ سَالِفٍ»[1].

وجاء في التعريفات للجرجاني: «الكون: اسم لما حدث دفعة؛ كانقلاب الماء هواء، فإنّ الصورة الهوائية كانت ماء بالقوة، فخرجت منها إلى الفعل دفعة، فإذا كان على التدريج فهو الحركة، وقيل: الكون حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن حاصلة فيها، وعند أهل التحقيق: الكون: عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم لا من حيث إنّه حق، وإن كان مرادفًا للوجود المطلق العام عند أهل النظر، وهو بمعنى المكون عندهم»[2].

من خلال هذه التعريفات يمكن القول إنّ مفردة "كون"، تدل على حدوث أفعال وأحوال تدل بتجليها للأعيان على وقوعها في حيز زماني ومكاني معين بفعل إرادة معينة، كما يعطيها اقترانها بالألف واللام دلالة الاستغراق لكل الحوادث الحاصلة ذات الوجود المادي، مما يسمح لنا بإطلاق لفظة موجود عليه، ويتحقق بذلك الترادف بين لفظة الكون ولفظة الوجود ليكتسبا معا دلالة اصطلاحية واحدة حين يتعلق الأمر بالعوالم المادية التي تدل على الإرادة الإلهية.

الكون اصطلاحا: لم ترد لفظة الكون في القرآن الكريم معرفة أو نكرة، أما العبارة الدالة على حدوث الأمر الإلهي وتحقق إرادته، فهي قوله تعالى: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾، وقد جاءت في ثمانية مواضع، كلّها في سياق الحديث عن القدرة الإلهية على الخلق، سواء تعلق الأمر بخلق السّماوات والأرض وما بينهما، أو خلق الإنسان؛ منها قوله تعالى: ﴿**أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ**

[1]– مقاييس اللغة، مادة (كون).

[2]– التعريفات، ج 188/01.

مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1]

ويقول البوطي في تعريف الكونيات: أنّها: «كلّ ما علم بطريقة القطع واليقين من شأن الموجودات ممّا أمر الله عزّ وجلّ بمعرفته والاعتقاد بوجوده، والموجودات تشمل: الإنسان، والجان والملائكة وسائر المخلوقات، والمكونات الأخرى من سماوات وأفلاك وأرض وبحار بما يتضمنه كلّ ذلك من أسباب ومسببات، وحركات كونية مختلفة؛ فكلّ هذه الأشياء يطلق عليها المكوّن أو الكون»[2]، أو الوجود، وتختلف مراتبه من عدة زوايا، ولعلّ أعظمها السّماوات، وأشرفها الإنسان، وتشترك كلّها في التدليل على وجود الخالق ووحدانيته، وعظيم قدره، وكان هذا السياق العام الذي تذكر فيه الآيات الدالة على الكون في القرآن الكريم.

2-3-2-القرآن والكون:

إنّ من المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، هداية الإنسان إلى الحق عزّ وجل، ومن ثمّ إلى التوحيد، ولما كان القرآن رسالة الله المتضمّنة لأفعال وأقوال الخالق سبحانه وتعالى، الموجّهة إلى عقول بشرية كانت حكمة الخالق أن يتضمّن كتابه ظواهر الكون وحقائقه، الموجودة في العالم المادي للإنسان، ولأنّ الله جلّت قدرته والعليم بخبايا النّفس البشرية أدرك أنّ هذا العالم المادي سيحير العقل البشري بسعته وأسراره، جعل في كتابه مفاتيح استقراء هذا الكون، وجعل العلاقة بينهما تلازمية عند إرادة فهم كليّهما؛ فـ«القرآن المقروء هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع الذي هو قرآن آخر عظيم منظور»[3]، فالتوافق بينهما دليل على صدق النبوة، فأنّى لأمّي أن يدرك كيفية خلق المخلوقات وأسرار الموجودات، ويعرضها بهذه الطريقة التي « تدل بذاتها على مصدره إنّها المصدر الذي صدر منه الكون؛ فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون من أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال وأضخم الخلائق.

1 يس، الآية/81-83.-

2- كبرى اليقينيات الكونية/243.

3- إشارات الإعجاز/ 18.

والقرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني»[1].

فالظواهر الكونية آيات شاهدة على خالقها، والقرآن آيات مسطورة ومسموعة دالة أيضا على قائلها وفاعلها، وبما أنّ القرآن حقّ فقد «أخبر أنه لابدّ أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أنّ آياته المتلوة حقّ، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه»[2]، لذلك نجد الله سبحانه وتعالى يدعونا في مواضع كثيرة إلى تدبر آياته، ويربط بين العقل والتفكر والعلم والظواهر الكونية عند عرضها، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾**﴾[3]، ويقول: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾**﴾[4]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾**﴾[5]، لقد وجّه الله خطابه في معرض حديثه

---

[1]- مباحث في إعجاز القرآن/ 151.

[2]- الفوائد/ 21.

[3]- البقرة، الآية/ 164.

[4]- الرعد، الآية/ 02-03.

[5]- يونس، الآية/ 05.

عن الآيات الكونية إلى العقل لأنه وسيلة التفكر، والتفكر أحد سبل المعرفة والعلم بالله، أي بوجوده ووحدانيته، والاستدلال عليه يكون بمظاهر هذا الكون فـ«الطبيعة شريعة إلهية فطرية، أوقعت نظاما دقيقا بين أفعال وعناصر وأعضاء جسد الخليقة المسمى بعالم الشهادة هذه الشريعة الفطرية –الطبيعة– في الكون وعلى الإنسان أن ينظر إلى الآثار الإلهية لا من جهة الممكنات، ولكن من جهة القدرة الثابتة التامة لواجب الوجود بآثارها المحيرة للألباب، وإنّ صنعة الله في نظام العالم لا يستطيع العقل أن يتصوّر أدق منها ولا أعجب ولا أعزّ، وكما أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا، كذلك سطور كتاب العالم يفسر ما وراءه من حكمة وإتقان»[1]، حكمه المولى عزّ وجل وإتقانه، فالغاية من إيجاد هذه الموجودات ومن عرضها على صحائف الرحمن هداية النّاس من خلال مخاطبة العقل وتكليفه باستخدام الحواس لإدراك الإعجاز في هذا الكون والإعجاز في القرآن، فالكون معجز بالخصائص التي تتضمنها عناصره، والقوانين التي يسير عليها، وعجز النّاس فيه كامن في عدم قدرتهم على تغيير نواميسه، ولا الإتيان بمثل ما فيه أو حتى الإلمام بأسراره.

أمّا القرآن فهو معجز بقدرته على وصف دقة خلق الخلائق، ونظام الحياة على الأرض وما فيها وما يعلوها، وصف عليم بما صنع فجاء عرضه شاملا مجيزا، سهلا ممتنعا فتنوعت المقاصد حسب أنواع القول في الإفصاح، والإشارة، والسكوت، تحت هدف عام هو الهداية، و«العلاقة بين آيات الحق في القرآن والكون يجمع في ترابط محكم بين إعجاز السبق والبيان في كتاب الإسلام الخالد، وإعجاز القدرة الإلهية في كتاب الكون اللانهائي، ليدلي كل إعجاز بشهادة تسليم وتصديق للآخر، وليكون في الإعجازين عبرة لكل ذي عقل رشيد، أو لمن كان له قلب وألقى السمع وهو شهيد، فكما أنّ الأدلة القاطعة برهنت على أنّ القرآن الكريم لا يمكن إلاّ أن يكون من عند الله الواحد بدليل عدم الاختلاف بين آياته، كذلك فإنّ النظام الكوني المعجز بكلّ ما فيه من تدبر وإحكام لا يمكن إلاّ أن يكون من صنع الله الذي أتقن كلّ شيء»[2].

فالقرآن الكريم من خلال عرضه لآيات الكون فهو يمنهج عقولنا ويدرب أنظار ويفتح قلوبنا على الظواهر الكونية، وطريقة عرض القرآن لها تحرر العقل وتغذي الفكر، يقول مصطفى مسلم: «ومثل هذه

---

[1]– من قضايا الإنسان في فكر النورسي/ 86.

[2]– الموسوعة القرآنية المتخصصة/ 693.

الإشارة ترد كثيرا في القرآن الكريم لتجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النّواميس الإلهية في الوجود، يقرر لها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير، وحياة للأرواح والقلوب، ويقظة في المشاعر والحواس، إنّ هذه الظواهر هي حقائق ضخمة، ولكن الألفة والعادة بلدت حواس النّاس فلا تشعر بدلالاتها، إنّ الأنفس من صنع الله، وما حول النّاس من ظواهر الكون من إبداع قدرته، والمعجزة كامنة في كمال ما تبدعه يده، وهذا القرآن قرآنه ومن ثمّ يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم، يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لديهم التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها لأنّهم غافلون عن مواضع الإعجاز فيها»[1]، وقد أشار الله سبحانه وتعالى في بعض آياته الكونية إلى هؤلاء المعرضين عن آيات الله في الكون، يقول المولى عز وجل: ﴿**وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ۝١٠٥﴾[2]، ويقول أيضا: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ۝٣١ **وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ** ۝٣٢﴾[3].

إنّ سبب إعراض بعض النّاس عن آيات الله في الكون ليس الألفة فقط، وإنّما مفهوم المعجزة عندهم، فليس بالضرورة أن تكون المعجزة في خوارق العادات أو مما لا تتأتى القدرة للبشر على الإتيان به، وإنما تكمن في النّهج الرباني في عرض آياته وبسطها، لكنها فيما يخص الآيات الكونية المشهودة والمسطورة معجزة «تتجه إلى العقل، وهي موجودة يلتقي بها من يريدها حيثما التفت إليها، متمثلة في الاطراد المنتظم بظواهر الكون والحياة التي لا تتبدل ولا تتحول»[4]، قال تعالى: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا** ۝٤٣﴾[5].

---

[1]- مباحث في إعجاز القرآن/ 151.

[2]- يوسف، الآية/ 105.

[3]- الأنبياء، الآية/ 31-32.

[4]- الموسوعة القرآنية المتخصصة/ 693.

[5]- فاطر، الآية/ 43.

فالغاية من ذكر هذه الدلائل الكونية، هي توجيه نظر الإنسان إلى معرفة حجمه في هذا الكون من خلال التعرّف على أسراره، فهو حين يدرك مكانته ويعرف أنّ الله قد سخّر له هذا الكون الكبير، وهو العبد الضعيف الصغير، يدرك الغاية من خلقه فيوحد خالقه.

2-3-3- الآيات الكونية:

من خلال ياء النّسبة وتاء التأنيث المضافتان إلى الكون عند إطلاق هذا اللفظ على الآيات القرآنية الدالة على العوالم المخلوقة، يمكن القول إنّ الآيات الكونية هي: الآيات «المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كوّنه الله تعالى فكان، وذلك السّماوات والأرض وما فيها، وما بينهما من سائر المخلوقات»[1]، فهي كلّ الآيات التي تتحدث عن مظاهر قدرة الله سبحانه وتعالى في خلقه، وقد أخذت من مجمل آي القرآن نسبة كبيرة، إذ تجاوزت ألف آية صريحة، يقول زغلول النجار: «إنّ القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التي تشير إلى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، وإلى صور نشأتها ومراحل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها، وقد أحصى الدارسون من مثل هذه الآيات حوالي الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، مما يبلغ بالآيات الكونية إلى سدس آيات القرآن الكريم تقريبا»[2]، وكان هذا الإحصاء بناءً على موضوعات هذه الآيات والإشارات العلمية الواردة فيها، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، وقد اجتهد بعض الدارسين[3] في تصنيف هذه الآيات حسب المجالات العلمية المختلفة التجريبية وغيرها، أمّا القرآن الكريم فنجده يصنّف هذه الآيات إلى نوعين على وجه العموم، باعتبار أنّ القرآن خطاب موجه إلى كلّ النّاس، وليس إلى فئة مخصوصة.

[1]- أيسر التفاسير في كلام العلي الكبير، ج 141/01.

[2]- السّماء في القرآن الكريم/63.

[3]- ينظر: العلوم في القرآن/67-84.

واستنادا إلى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[1]، يمكن القول إنّ الآيات الكونية نوعان: آيات الآفاق، وآيات الأنفس.

أ- آيات الآفاق:

الآفاق في اللغة جمع أفق: «وهي النواحي من الأرض، وكذلك آفاقُ السّماء نواحيها»[2]، أمّا الآيات الآفاقية؛ فهي: «كُلُّ مَا هُوَ غَيْرُ الْإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ هَذَا الْعَالَمِ وَهِيَ أَقْسَامٌ كَثِيرَةٌ»[3]؛ فالمقصود بها إذا كلّ العوالم العلوية والسفلية المحسوسة والدالة على مطلق القدرة الإلهية، وقد فصّل القرآن في ذكرها وذكر أحوالها في مواضع متعددة ومتخلفة من القرآن الكريم، ومن أقسامها:

1- السّماوات والأرض:

- أحوال الليل والنهار، والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾[4]، وقال أيضا: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[5].

---

[1]- فصلت، الآية/53.

[2]- العين، مادة (أفق).

[3]- مفاتيح الغيب، ج 530/27.

[4]- الأنبياء/33.

[5]-سورة يس/37-40.

- الأفلاك والكواكب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾[1].
- النّجوم؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾[2].

1- عناصر الطبيعة ومظاهرها:

- الماء؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾[3].
- الرياح؛ قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٤٦﴾[4].
- النبات؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٩٩﴾[5].

---

[1]- سورة الصافات/04-06.

[2]- سورة النحل/16.

[3]- سورة النحل/10-11.

[4]-سورة الروم/46.

[5]- سورة الأنعام /99.

- الدواب؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾[1].

- البحار وما فيها؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾[2].

- الجبال والأنهار؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[3].

- الحديد؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[4].

ب- آيات الأنفس:

الأنفس في اللغة: جمعُ نَفْسٍ، وتتعدد معانيها؛ فهي تطلق على ذات الشيء أو جوهره[5]، كما أنّه لفظ متعلق بالدلالة على أحوال الإنسان البدنية والمعنوية استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا

---

[1]- سورة النور/45-46.

[2]- سورة النحل/14.

[3]- سورة النحل/15.

[4]- سورةالحديد/25.

[5]- لسان العرب، مادة (نفس).

﴿تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]، فآيات الأنفس إذا هي دلائل القدرة الإلهية في خلق الإنسان وتكوينه قبل الولادة وبعدها، وحتى في مماته، وفي أحوال النّفس البشرية، وما يعتورها من تناقضات، وما يصدر عنها من سلوكات. وقد كانت عناية القرآن شاملة لكلّ هذه الجوانب، حيث عبّر بشكل دقيق عن خفيّها وظاهرها تعبير المحيط بأسرار خلقه؛ فلاحظ كيف يعبّر بإيجاز عن أحوال تواجد الجنس البشري، ومبدأ خلقه؛ قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾[2].

ويقول سبحانه وتعالى في الإنسان قبل وبعد ولادته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم

[1]- سورة الذاريات/21.

[2]- سورة الروم/17-23.

مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝

﴾[1]، كما تضمن القرآن ألفاظ حواس الإنسان في سياقات مختلفة، يقول عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾[2]، ويقول في سياق استنكار عدم إعمال هذه الأعضاء فيما يرضي الله من الأعمال الصالحة والإيمان به: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾[3].

ومجمل القول: لقد تضمن القرآن جميع الآيات الدالة على حواس الإنسان، وعلى أعضاء جسمه الظاهرة والباطنة، والنّفس البشرية أقسامها وأحوالها. كلّ هذا وغيره من دلائل الأنفس كان بأساليب متنوعة، وفي سياقات مختلفة، والمقام لا يسع لذكر جميع الآي.

لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن المكّية منها أو المدنية من ذكر الكون أو ما يتّصل به فقد جمع القرآن في متنه كلّ القضايا المتعلّقة بهذا الكون خلقه، وفناؤه، علاقة الإنسان به في كلياته البيولوجية، والفيزيولوجية، النفسية والاجتماعية، والتربوية ....

إنّ تضمُّن القرآن لهذا الحقائق الكونية يعتبر إعجازا من نوع آخر، إعجاز يصل القرآن بالواقع، ويسمو بالعقل البشري إلى البحث في ماهية هذه الحقائق، فيصبح القرآن بذلك معجزا علميا، يقول الراغب الأصفهاني في كتابه "مقدمة التفسير": «ثم إنّ القرآن –وإن كان في الحقيقة هداية لبشرية– فإنّهم لن

[1]– سورة الحج/05.

[2]–سورة النحل/78.

[3]– سورة الأعراف/179.

يتساووا في معرفته، وإنّما يحظون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم، فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه، وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه...»[1]، وهذا ما يجعله كتابا جامعا لكلّ العلوم، فكلّ عصر يجد فيه من حاجاته ما يقصر عنه الوصف، وهو ما يجعل من القرآن كتابا مفتوحا على المعاني المتجددة حاله حال هذا الكون الذي تغيب حدود منتهاه في مدى شساعته.

وتبقى الوظيفة الأساسية للعقل البشري هي البحث عن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، هذا العقل يمنحه كلّ عصر إمكانيات تحمل خصوصيته، وتساعده على اكتشاف بعض الأوجه، فقد ساعد « العقل على ذلك في صدر الإسلام تمكن العرب المسلمين من أساليب الفصاحة والبلاغة، وبلوغهم فيها شأوا بعيدا وساعده على ذلك بعد صدر الإسلام إلى يوم اطراد التقدم البشري في العلوم الكونية والإنسانية وغيرها مما جعل المسلمين المنصفين ينظرون إلى القرآن الكريم باعتباره الكتاب الإلهي الوحيد الذي (بقي) وسيظل شامخا جامعا شاملا كلّ حاجات الإنسانية، فيجدون أنّ هذا القرآن يعايش الحياة كلها أرضها وسماؤها، محسوسها ومعنوياتها، وأنّه يجمع بين دفتيه علوما لا حصر لها، وأنّ أيّ خطوة يخطوها الإنسان في اكتشاف أو اختراع أو تشريع أو تقنين عادل فإنّ القرآن الكريم يعتبر سابقا بالإشارة أو العبارة كل ما يصل إليه البشر»[2]، لقد تعددت أوجه الإعجاز بتعدد أنواع العلم المقتبسة من كتاب الله، فإذا كان العلم يصنف حسب الموضوعات التي يتناولها ومصادرها وطرق تحصيلها ومعالجتها فالأمر كذلك بالنسبة للإعجاز، ومن هذا المنطلق اكتشف علماء عصرنا وجها جديدا للإعجاز يحمل سمة عصر العلم وهو ما يعرف بالإعجاز العلمي.

2-4- الإعجاز العلمي في القرآن:

يعتبر العلماء المتأخرون طنطاوي، الشعراوي، الرافعي...إخبار القرآن عن الظواهر الكونية ووصفها إعجازا علميا، فالإعجاز العلمي للقرآن الكريم هو ما «بيّن الله في هذا الكتاب، ودلّ عليه من الآيات في السّماوات والأرض والأنفس، مما لم يكن ليحيط به علم بشر في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–

[1]– تفسير الراغب الأصفهاني، ج1/ 10.

[2]– تبسيط العقائد الإسلامية/ 154.

من تلقاء نفسه، ثم يبقى النّاس يكتشفون أسراره في الكون، والقرآن قد سبق به منذ دهر بعيد تصريحا وتلويحا، كان يتلوه على النّاس نبي أمي، لم يدرس علوم الفضاء ولا البيئة ولا البحار ولا طبقات الأرض ولا الأجنة. لينبئ العالم أنّه رسول ربّ العالمين، وأنّ هذا القرآن من علم الله الذي أحاط بكل شيء»[1]، من خلال هذا التعريف ندرك أن العلم المنسوب إلى الإعجاز هو العلوم التجريبية التي تبحث في الظواهر الكونية، والإعجاز هنا يكمن في أنّ القرآن كان سبّاقا إلى الإخبار عن هذه الحقائق، التي يصل إليها الإنسان تدريجيا حسب التطوّر العلمي، فوجودها ثابت في القرآن. وهذه «الحقائق المتعلقة بحقائق الوجود وقوانينه فهي متجددة حسب ما وصل إليه كلّ جيل من العلم، وما فهم من قوانين الكون، مثل كروية الأرض والغلاف الجوي، وعلم الأجنة وغير ذلك، فالقرآن الكريم هنا يعطي لكلّ عقل قدر حجمه، ويعطي لكلّ عقل ما يعجبه ويرضيه، فإذا ما كشف الله لنا عن سر جديد في الكون رجعنا إلى الآية الكريمة فنجدها تؤدي هذا المعنى الجديد»[2].

إنّ هذه العطاءات المتجددة للقرآن الكريم في مجال العلوم التجريبية، دفعت الكثير من العلماء إلى تفسير القرآن علميا، والكثير من النّاس لا يفرقون بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي.

2-4-1- الفرق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي:

إذا كان الإعجاز العلمي هو سبق القرآن إلى ذكر الحقائق الكونية، قبل اكتشافها من طرف العلماء التجريبيين، بما يتوفر لديهم من آليات البحث العلمي التجريبي الدقيق، فإنّ التفسير العلمي «يراد به الكشف عن معان جديدة للآية القرآنية، أو الحديث النبوي في ضوء ما ترجّحّت صحته من نظريات للعلوم الكونية، دون إسراف في التأويل، بمعنى أن تكون هذه العلوم في خدمة تفسير القرآن والسنّة مثلما خدمته علوم اللغة في العبارات القرآنية عن الحقائق الكونية عن مدلول يشير إلى مصطلح علمي في مجال معين، ليجري مقاربة بين مدلول الآية والحقيقة العلمية والمدخل.

أما فيما يخص قضية الإعجاز العلمي، فقد عدّه بعض العلماء والمفسرين القدامى والمحدثين ضمن أوجه الإعجاز تحت موضوع: اشتمال القرآن على الحقائق وتضمنه الأسرار والدقائق»[3]، ومن التفسيرات التي

1- المقدمات الأساسية في علوم الإنسان/29.

2- المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة/ 73.

3- الموسوعة القرآنية المتخصصة/694.

تركز على هذا النوع من الدلائل، تفسير "مفاتيح الغيب للرازي"[1]، فقد اجتهد عند كل آية كونية في توضيح معانيها. وأراء المتكلمين في موضوعها، وما جاء عنها في الكتب السماوية الأخرى، وغاية الرازي **(ت606هـ)** من ذلك أن يبين منهج القرآن في كيفية الاستدلال على وجود الصانع[2].

كما اعتبر السيوطي **(ت911هـ)** اشتمال القرآن على هذه الحقائق الكونية من أوجه الإعجاز، يقول: «ما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد يبنى من كليات العلوم المعقلية والسمعية إلاّ وكتاب الله قد نطق به»[3]، فالقرآن في عرضه لهذه الظواهر لم يكن مجرد عرض لأسماء هذه المسميات في الوجود، وإنّما تضمن دقائق هذه الموجودات في كيفيات تكوينها أو خلقها، كما تضمنت هذه الآيات مقاصد القرآن من النطق بها من خلال قرائن دالة على تلك المقاصد، كنهاية لآيات بأسماء الله الحسنى، أو إحالتها إلى السمع أو البصر أو العقل ...فالله سبحانه وتعالى يعرضها وفق منهج محدد لغاية مقصودة.

يقول الزرقاني في ذلك: «القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم النّاس إلى عقولهم وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض وحيوان ونبات وخصائص وظواهر، ونواميس وسنن، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقا كلّ التوفيق بل كان معجزا أبهى الإعجاز، لأنّ حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها المحيط بعلومها ومعارفها»[4]، ويعتبر العظيم الزرقاني من أهم المحدثين الذين أقروا بالإعجاز العلمي في القرآن وحثّ المسلمين على الانتفاع والاستفادة بالعلوم الكونية، لأنّهم أولى من غيرهم بذلك من حيث حاجتهم إليها لفهم القرآن، وكذلك لخدمة مصالحه الفردية والجماعية[5].

وفي نفس الوقت يحذر من إقحام النظريات العلمية على النصوص القرآنية وعدّها من علوم القرآن، يقول: «لا يجمل اعتبار علوم الكون وصنائعه من علوم القرآن مع أنّ القرآن يدعو إلى تعلمها، لأنّ هناك فرقا كبيرا بين الشيء يحث القرآن على تعلمه في عموماته أو خصوصاته، وبين العلم يدل القرآن

---

[1]- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج03/398-404.

[2]- التفسير الكبير، الرازي، ج04/196.

[3]- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج01/346.

[4]- مناهل العرفان في علوم القرآن/24.

[5]- المرجع نفسه/ 25.

على مسائله أو يرشد إلى أحكامه أو يكون ذلك العلم خادما للقرآن بمسائله أو أحكامه أو مفرداته»[1].

ذلك أنّ اتساع دائرة استعمال الحقول الكونية في القرآن يبقى حججا عقلية يخاطب بها الله الإنسان من أجل هدايته، خاصة وأنّ القرآن ليس موجها للعرب فقط حتى تكفيهم فصاحته وبلاغته في الإيمان بإعجازه، بل هو موجه إلى كافة النّاس من العرب والعجم ولكلّ زمان ومكان لذلك توفر على كلّ أنواع الحجج، ويبقى فهم هذه الحجج على عاتق كلّ جيل بحسب عصره؛ وعصرنا هذا عصر العلم دليل على صدق الرسالة المحمدية لغير المسلمين، ودافع إيماني للمسلمين، فمحمد صلى الله عليه وسلم «كانت معجزته علمية عقلية مصدرها الوحي الرباني الذي يكون لإدراكه، ومعرفة كنهه وحقيقته فسحة عمر الإنسانية، ومضي الزمان الذي يعيش فيه الإنسان فوق هذه الأرض، فلا تنقضي عجائبه، ففي كل زمان يظهر من هذا الوحي علامة بيّنة وبرهان ساطع وآية واضحة على صدق من جاء بهذا الوحي، وأنه نبي مرسل من عند الله العلي العليم الخبير»[2]، وتبقى معاني القرآن تتجلى حسب إرادة الله كما تعودنا في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾[3]، وقوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾[4]، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾[5].

يعتبر محمد متولي الشعراوي من المفسرين المحدثين الذين توسعوا في تفسير الآيات الكونية وربطها بالعلم، يرى أنه: «من مظاهر الإعجاز القرآني مطابقته لما توصل إليه العلم في العصر الحديث من نظريات وبحوث واكتشافات... وأنّ ما جاء في القرآن الكريم من أخبار غيبية بدأت تتجلى وتظهر آثارها بدقة في

---

[1]- المرجع نفسه، ج74/02.

[2]- تجربتي مع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية/ 10.

[3]-سورة ص، الآية/88 .

[4]- الأنعام، الآية/ 67.

[5]- النمل، الآية/93.

إنجازات العلم وبحوثه في العصر الحديث، وأنّ هناك حقائق كونية لم تكن معروفة من قبل جاء القرآن متحدثا عنها من قبل أربعة عشر قرنا من الزمان لتظهر آثارها جلية في العصر الحديث»[1].

فالشيخ الشعراوي يقرّ بالإعجاز العلمي في القرآن، وبأنّ التطور العلمي في عصرنا هو الذي ساعد العقل البشري على رؤية هذا الوجه في القرآن، وهذا ما جعله يختلف عن غيره من معجزات الرسل السابقين، فمعجزاتهم –الرسل– كانت حسّية، أمّا القرآن فهو معجزة عقلية تزداد معانيها وضوحا، كلما توسعت آفاق العقل البشري، في المجالات المختلفة من العلوم، ورغم ذلك يجب الحذر عند التأويل، فلا يجب أن تقوم معانيه على معايير العلم الحديث، فـ«القرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود، ولكنّه أشار إليها وسجّلها ليظهر الإعجاز الإلهي للنّاس في كلّ عصر ومع تقدم العلم البشري، على أنّ ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية شيء لا يجب أن يحدث، فالقرآن لا تربط صحته بالثقافة مع نظرية علمية أيا كانت، ولكن العلم هو الذي يستمد صحته وبيانه، إذا اتفق مع آيات القرآن الكريم، فكلّ علم مخالف لحقائق القرآن هو علم زائف، لأنّ قائل القرآن هوكلام الله سبحانه وتعالى وخالق الكون هو الله سبحانه وتعالى»[2]، لذلك لا يمكن أن يتعارض منظور الله مع مكتوبه لأنّ المصدر واحد، والمقصد الأساسي من وجود هذه الحقائق في المتن القرآني وتوافقها مع الوجود، هو إرشاد النّاس إلى لحق، وتعزيز عقيدة التوحيد، ومن ثم فإنّ «الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة والإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، حتى يظل القرآن الكريم مهيمنا على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله»[3]، وإنّ هذا الاتساع في الدلالة في زمن التطور المعرفي جعل الكثير من العلماء والباحثين يهتمون بإبراز هذه الإشارات العلمية، بل قد تجاوز بعض الباحثين فكرة الإشارة وجعلوا منها علوما قائمة في القرآن، واختلفوا في حدود المقاربة في مؤلفاتهم في الإعجاز العلمي للقرآن والتي كثر عددها، وتباينت قيمها، من بين هذه المؤلفات: معجزة القرآن الكريم للشيخ محمد متولي الشعراوي، أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية لموريس بوكاي، الصيام معجزة علمية لعبد الجواد الصاوي، ومعجزة القرآن الكريم لرشاد خليفة، معجزة القرآن لنعمت صدقي، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لمحمد سامي محمد علي، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم للسيد الجميلي،

---

[1]– المنتخب من تفسير القرآن ، ج19/01-20.

[2]– معجزة القرآن، ج03/ 398-399.

[3]– عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم/93.

الإعجاز العددي للقرآن الكريم لعبد الرزاق نوفل، بالإضافة إلى الموسوعات مثل: موسوعة الأعداد في القرآن الكريم لمهدي سعيد رزق كريم، الموسوعة الكونية الكبرى (آيات الله في خلق الكون ونشأة الحياة) لماهر أحمد الصوفي وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة، لمحمد راتب النابلسي.

هذه بعض المؤلفات ويوجد من غيرها الكثير، حاول أصحابها إبراز التوافق بين بعض العلوم الحديثة والإشارات القرآنية للظواهر الكونية، لكن يوجد من بالغ في تأويل الآيات إلى درجة الإسقاط المباشر لنظريات لم يجزم حتى العلم بصحتها، كما هو الحال في قضية بدء الخلق.

2-4-2- التفسير العلمي للقرآن الكريم بين المعارضة والتأييد:

إنَّ ظهور هذا المنحى الجديد في تفسير القرآن الكريم أثار جدلا كبيرا بين العلماء بين رافض ومؤيد لهذا التوجه. إنَّ معارضي التفسير العلمي للقرآن يرون أن القرآن كتاب هداية، وليس كتابا للعلوم الطبيعية، وإقحام هذه الأخيرة وحملها على كتاب الله عز وجل ينتج عنه سلبيات كثيرة نظرا لطابعها المتغير، و«هل يكفي أن يحاكم القرآن إلى هذه العلوم المادية العلقة الحائرة، بينما القرآن هو تلك الحقائق العلوية الثابتة من أفق الحق الأعلى، الذي يعلم السر وأخفى»[1]، فالتغيّر والتطور المتميّز بالثبات حتى وإن وردت فيه الإشارات العلمية، فسيكون ذلك «في سياق التدليل على قدرة الله تعالى، والدعوة إلى الإيمان به تعالى وحده لا شريك له»[2]، وليس بهدف الكشف عن حقائق علمية.

لذلك ينفي المعارضون أن يكون القرآن مصدرا للإعجاز العلمي رغم اعترافهم بالإشارات الواردة في متنه؛ لأنَّ «النصوص القرآنية لا تطرح قضايا معينة للبحث، وتقدم لها الإجابات في صيغة دراسة لقضية بعينها، فالسّور القرآنية لا تعتمد على وحدة الموضوع، وإنّما ترد كافة المفاهيم المتعلقة بمختلف الموضوعات في سياق التدليل على القدرة الإلهية، أي أنّ مضمونها وعظي وليس تعليمي»[3]، وبالتالي فهم يكرهون إسقاط النظريات الحديثة على آي القرآن، وإجراء معانيها على لسان الله سبحانه وتعالى،

[1]- مناهل العرفان في علوم القرآن، ج258/1.

[2]- إعادة القرآن الكريم/30.

[3]- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم/28.

وتحميل الآيات ما لا تحمل من المعاني، فالقرآن الكريم حجة قائمة بذاته على خالقه، ودليل رباني على محدودية قدرة البشر، فإعجازه تجاوز الواقع المادي إلى واقع روحي وغيبي تتجاهله العلوم التجريبية، وهو ما يتناقض مع طبيعة النّص القرآني، الذي يجمع بين البساطة والعمق في التعبير، لذلك يجب الانطلاق من النّص إلى النّص في محاولة فهم القرآن، وأن تكون آلية القراءة من طبيعة هذا النص، أي اللغة.

بينما يرى مؤيدو التوجه العلمي في تفسير القرآن أنّ طبيعة العصر الحديث -الذي يعتمد على المنهج العلمي في الوصول إلى الحقائق مهما كانت طبيعتها- يفرض علينا الاعتماد على أصول علمية أثناء الدراسات القرآنية، فهذا لا يسيء للنص القرآني، فهو ثابت بحروفه ومعطياته. لكن ذلك لا يعني محدودية معانيه، ومادام العلم في تقدم وتطور «فإنّ حفظ القرآن يعني بقاءه بلفظه ومعناه الموافق لما صحّ من العلم حتى آخر الزمان، وإذا كان من ميزات القرآن أن تفهم آياته حسب المستوى العلمي والثقافي للدارس المتدبر فيه، يستفيد منه الكل، وكل حسب قدرته وثقافته؛ فهو من جهة أخرى يفهم حسب العصر والزمان الذي يدرس فيه، وذلك معنى صلاحيته لكل زمان ومكان، فليس هناك تعارض، ولا تناقض بين ما يفهم في عصر وما يستنبط في عصر آخر، فمعانيه متفاوتة في العمق، تظل تساير التقدم العلمي، بل يظل العلم يكتشف ما أقرّه القرآن وأثبته، وذلك الإعجاز»[1]، فمجيء هذه الإشارات – العلمية- مقترن دائما بالدعوة إلى التدبر والتفكير والعلم دليل على أنّ الحقائق العلمية تدخل ضمن نطاق المفاهيم القرآنية، ففي قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣**﴾[2]، وقولـــــه: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي**

[1]- خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية/24.

[2]- فصلت/53.

﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾[1]، توجيه من الله سبحانه وتعالى على البحث في علوم الكون، وإقرار بوجود الإعجاز العلمي –حسب رأي الزرقاني- دون أن يكون هناك إقحام للنظريات العلمية على النصوص القرآنية، بل محاولة التوفيق بين الإشارات القرآنية والحقائق العلمية للظواهر الكونية.

فكون القرآن الكريم كتاب هداية هذا لا يتعارض مع الإعجاز العلمي فيه، بل ذلك دليل على ديمومة تفاعل القرآن مع الواقع في كلّ زمان ومكان وعلى عطاءاته المتجددة، وفي هذا يكمن إعجازه الدائم حسب رأي الشعراوي فـ: «القرآن يعطي لكل جيل عطاءه... ويعطي لكل عقل حاجته دون أن يتناقض مع الحقيقة العلمية أو يتصادم مع حقائق الكون... فهو متجدد العطاء دائما... وحقائق الكون لا يمكن أن تتصادم أبدا مع القرآن لأنّ الله هو الفاعل... والله هو الخالق... والله هو القائل»[2]، ويبرر الشعراوي في نفس الوقت لظهور هذا المنحى الجديد في تفسير القرآن بقوله: «ما هو متصل بقوانين هذا الكون مما سيكشفه الله من علم البشر في المستقبل... وما سيظهر بعد ذلك للعالم، فلم يتعرض له التفسير... لماذا... لأنّ العقل في ساعة نزول القرآن لم يكن عنده الاستعداد العلمي ليفهم حقائق الكون، ولذلك أخذ منها قدر حجمه وأعطاه القرآن ما يعجبه ويرضيه... ثم مرّت السنوات أو القرون... وظهرت حقائق علمية حديثة... فتبيَّن لنا أن عطاء القرآن فيها كان متجددا»[3].

إنّ التوجه نحو تفسير علمي للقرآن ضرورة يفرضها تطور المستوى الثقافي والعلمي للمتدبر والمفسر، خاصة وأن الهدف من التفسير كشف دلالات النص وتحديد المشكلات والحلول، والإنسان بحاجة إلى أن يجد الإجابات والحلول المناسبة لتساؤلاته خاصة الوجودية منها في المتن القرآني، فهذا يزيد من توطيد العلاقة بينه وبين دينه في هذا العصر الذي طغت فيه النزعة العقلانية على التفكير البشري، فطبيعة

[1]- العنكبوت/48-49.

[2]- مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج72/02.

[3]- المرجع نفسه، ج88/2.

التفكير تفرض آلية الفهم وطرق الإقناع، ومن ثم تعددت أنواع الإعجاز في القرآن، فمنذ نزوله كلّ مرحلة كانت تفرز مفاهيم ومعان جديدة، فإذا كان «مستوى الفهم في تلك المرحلة ما كان يتفق مع عرض الحقائق العلمية بطريقة مباشرة، وأنَّ البلاغة هي مطابقة مقتضى الحال، فكان لا بدّ من اللجوء إلى الإيماء والإيحاء، والتلميح والرمز، فإنّ علينا أن نلاحظ القرآن من واقع نصوصه ذاتها يصف نفسه بالعلو عن شروط الزمان والمكان، ويعلن أنَّه يحوي حقائق الوجود بأسره، وأنه لم يختص بنفسه عصرا معينا أو مجتمعا معينا أو مستوى معينا في التفكير، وإنما قصد إلى تقديم الحقيقة الإلهية للبشرية جمعاء»[1]، فيمكن النظر للقرآن الكريم من أي زاوية في الواقع، مهما كانت أبعادها والمسافات الفاصلة بينها وبين وقت نزوله.

إنّ القرآن بنصه دعوة متجددة لتوحيد الخالق عزّ وجلّ، واحتواء متنه على تلك الإشارات العلمية إحدى صور الإعجاز العلمي والبياني، وذلك «لأنّ كلّ إشارة علمية وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز والدقة في التعبير والإحكام في الدلالة والشمول في المعنى ما يمكّن النّاس على اختلاف ثقافاتهم وتباين مستويات إدراكهم وتتابع أجيالهم وأزمانهم أن يدركوا لها من المعاني ما يتناسب وهذه الخلفيات كلّها، بحيث تبقى المعاني المستخلصة من الآية الواحدة يكمل بعضها بعضا في تناسق عجيب، وتكامل أعجب، لأنّه تكامل لا يعرف التضاد»[2]، رغم اتساع دائرة المعرفة الإنسانية، فتكامل الدلالات مع بعضها البعض في تناسب يتوافق مع ثبات اللفظ القرآني يثبت النهج الواقعي للقرآن.

وقد أجمل الزرقاني في مناهل العرفان آثار امتزاج العلوم الكونية بالتفسير فيما يلي:

«- مسايرة أفكار النّاس ومعارفهم، وتفسير القرآن لهم تفسيرا يشبع حاجاتهم من الثقافة الكونية.

- إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن من ناحية ما يحويه، ويرمز إليه من علوم الكون، والاجتماع.
- دفع مزاعم القائلين بأنّ هناك عداوة بين العلم والدين.

[1]- نقد الفهم العصري للقرآن/60.

[2]- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم/30.

- استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمي الذي يخضعون له دون سواه في هذه الأيام.
- البحث على الانتفاع بقوى الكون ومواهبه.
- امتلاء النفس إيمانا بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان في تفسير كلام الله على خواص الأشياء ودقائق المخلوقات حسب ما تصوّرها علوم الكون»[1].

مما سبق يمكن القول: إنّ ربط تفسير القرآن بالعلوم الكونية يرتبط بالجانبين الديني والدنيوي لحياة الفرد، فهو يحقّق للإنسان الاستقرار الوجودي حين يدرك التفاعل التام بين الوجود والقرآن الكريم، كما تتوسع الأفق الدلالية للمتن القرآني بما ينسجم مع متغيرات الوجود وفق قواعد وضوابط محددة.

أمّا موقف المعتدلين من قضية التفسير العلمي للقرآن فإنّهم يرون في قوله تعالى: ﴿**أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ٢٨**﴾[2]، دعوة إلى النّظر في ملكوت الله والبحث في آياته الكونية، لأنّ في ذلك دعوة إلى الله عزّ وجلّ، ولا يتأتى للإنسان ذلك إلاّ إذا كان هناك رابط بين دلالة النصوص القرآنية والكشوفات العلمية الثابتة فـ: «يجب ألاّ نجرّ الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية، ولكن إذا اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»[3]، فإسقاط الحقائق العلمية على آي القرآن دون قرائن لا يجوز، لذلك يجب الانطلاق من واقع النص الإلهي إلى عالم الموجودات، ومن ثم يجب الانطلاق من اللغة، «فدلالة النصوص ليست إلاّ محصلة لعملية التفاعل في عملية تشكيل النصوص ومنعها من جانبي اللغة والواقع والكائنات كلاها هام لاكتشاف دلالة

[1]- مناهل العرفان في علوم القرآن، ج72/02.
[2]- فاطر، الآية/27-28.
[3]- التفسير والمفسرون، ج478/02.

النصوص، وتتبادل اللغة والواقع الأدوار والمركز، فاللغة –لغة النص– تتبدى واقعا بملامحه وقيمه»[1]، دون أن نُحَمِّلَ الألفاظ فوق ما تحتمل، ويمكن الاستعانة أثناء ذلك بعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة، وكذلك العلم بأسباب النزول وغيرها من العلوم التي يمكننا الاعتماد عليها لإبراز التوافق بين دلالة النصوص والحقائق العلمية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة، وذلك لأنّ التفسير يبقى جهدا بشريا خالصا بكلّ ما للبشر من صفات القصور[2]، لذلك يجب التعامل مع هذه الكشوفات والنظريات على أنّها معان محتملة للآيات، وليست تفسيرات قطعية، فالقرآن لا يحتاج إلى هذه الحقائق لإثبات إعجازه، وإنّما الشّرف لهذه الحقائق بأن أشار الله إليها في محكم تنزيله.

كما يجب على المفسّر أو على الموظّف لهذه المعارف العلميّة في تفسير القرآن أن يكون متخصصا في العلم المتعلّق بموضوع الآيات، كما يجب أن يكون ملمّا بالعلوم العربيّة وضوابطها وأساليبها، فمن «واجب المتخصصين، إلماما بحد أدنى من علوم اللغة العربيّة وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والكلام وقواعده،وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين ثم يعود هؤلاء إلى دراسة الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله –كلّ فيما يخصه– محاولين فهمها في ضوء معطيات العلوم وكشوفه، وقواعد المنطق وأصوله، حتى يدركوا ما يستطيعون من فهم للكتاب، حتى تتحقق نبوءة المصطفى صلى الله عليه وسلم في وصفه لكتاب الله أنه لا تنتهي عجائبه»[3].

إذن، فللأخذ بالتفسير العلمي يجب أن تتوافق المعارف العلميّة مع مدلول الآيات الكونية الذي يعرف من خلال فهم لغة النص القرآني، فلا شك أنّه لا يوجد تعارض بين ملفوظ الله ومشهوده (الكون)،

[1]– النص بين الدلالة والتأويل، (قراءة في خطاب القرآن الأصولي)/116.

[2]– تفسير الآيات الكونية في القرآن/33.

[3]– المرجع نفسه.

لذلك لا يجب أن يكون هناك تعارضا بين الحقائق العلمية والمدلولات اللغوية للآيات الكونية حتى يمكننا اعتماد هذا التفسير واستغلاله في الدعوة إلى الله.

2-4-3- ضوابط البحث في الإعجاز العلمي للقرآن:

إنّ باستطاعة العلماء «أن يتلمّسوا دلائل إعجازه في شتى المجالات، فإذا كنا بصدد "إعجازه العلمي" تحتم علينا أن نتوخى الدقة التامة، فلا نفتعل مناسبة كأن نتشبث بلفظة ونحملها فوق ما تحتمل، أو نجهل أو نتجاهل حقائق التاريخ، وينبغي أن يكون لنا في الأئمة السابقين أسوة حسنة حين نرى مناهجهم العلمية عندما تناولوا القرآن من نواحيه اللغوية والبلاغية والتشريعية وغيرها»[1].

إنّ البحث في الإعجاز العلمي في القرآن، والقول به لابدّ فيه من توفر شروط من بينها:

-اليقين التام بأنّ علم الله هو العلم الشّامل والصّحيح والتّام، وعلم الإنسان مهما بلغ يبقى قاصرا ومعرضا للخطإ.

-لا يمكن أن يقع صدام بين حقائق المضمون وحقائق الوجود، لذلك لا يجب تأويل الآيات الكونية إلاّ بحقائق علمية قطعية، فـ«إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص، ونظرية علمية، رفضت هذه النظرية، لأنّ النّص وحي من الذي أحاط بكلّ شيء علما، وإذا وقع التوافق بينهما كان النّص دليلا على صحة تلك النظرية، وإذا كان النّص ظنّيا، والحقيقة العلمية قطعية يؤوّل النّص بها»[2]، إذا لم تتعارض مع ما تدل عليه اللغة، لأنّ الخطاب القرآني خطاب لغوي بالدرجة الأولى، «فلابدّ من:

أ- أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبّان نزول الوحي، ويراعى كذلك استعمالها.

ب- أن تراعى القواعد النحويّة ودلالاتها.

ج.أن تراعى القواعد البلاغيّة ودلالاتها، خصوصا قاعدة "ألا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية"»[3]، إذن فعلى الباحث في الإعجاز العلمي بالإضافة إلى وجوب تخصصه في مجاله العلمي أن يمتلك كلّ آليات الفعل القرائي اللغوية وغير اللغوية، حتى يبلغ الغاية من بحثه، كما ينبغي الترقيّ في فهم آيات القرآن والكون إلى درجة الفقه حتى ندرك الحكمة وراء إعجازها، ونبلغ درجة الإحسان في قراءة

---

[1]- الموسوعة القرآنية المخصصة/699.

[2]- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ 15.

[3]- المرجع السابق / 699.

الكتابين: المسطور والمنظور، «أمّا نهاية الإحسان في قراءة آيات القرآن فتعني تجاوز حدود الأصوات والألفاظ، واختراق حاجز الزمان والمكان، وصولا إلى الاستماع من المتكلم الأزلي جل جلاله، وأمّا نهاية الإحسان في قراءة آيات الكون –كتاب الله المنظور– فتعني تجاوز حدود البحث العلمي الآلي بعناصره ووسائله وأدواته واختراقه عالم النظريات والقوانين العلمية بصياغاتها اللفظية، وصولا إلى إدراك أنه كل علم من العلوم الباحثة في ظواهر الكون والحياة، هو في حقيقته علم يبحث بلغته الخاصة عن الله خالق الكون والحياة...»[1]، وليس المقصود بالتجاوز عدم اعتماد هذه الآليات والمناهج، بل النّظر إلى أبعاد هذه المدلولات في الآفاق والأنفس، فهي تحيل في النهاية إلى وحدة الله.

[1]– موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسّنة/ 697.

الفصل الثاني

دلائل الآيات الآفـــــاقية في القرآن الكريم

1- دلالة التعبير القرآني على الخلق وبدئه .

1-1- الخلق في القرآن الكريم .

1-2-بدء الخلق .

2- دلالة التعبير القرآني على خلق السّماوات والأرض .

2-1- الدلالة اللغوية .

2-2- دلالة الأصوات والصيغ الصرفية .

3- دلالة التركيب والنظم .

3-1- دلالة التركيب على مرحلة ما قبل الخلق .

3-2- دلالة التركيب على خلق السّماوات والأرض .

الفصل الثاني:

دلائل الآيات الآفاقية في القرآن الكريم

1- دلالة التّعبير القرآني على الخلق وبدئه:

1-1- الخلق في القرآن الكريم:

قضية الخلق حقيقة أقرّها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في مواضع عديدة منها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾[1]، وقوله أيضا: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٤﴾[2]، وقال جل ذكره: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٢﴾[3]، وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾[4].

وإن اختلفت الأوجه في المقصود "بالحق" في هذه الآيات حسب السياق إلاّ أنّها تؤكد على وجود حقيقة الخلق لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٧٣﴾[5].

---

[1] – سورة النحل، الآية/ 03.

[2] – سورة العنكبوت، الآية/ 44.

[3] – سورة الجاثية، الآية/ 22.

[4] – سورة الأحقاف، الآية/03.

[5] – سورة الأنعام، الآية/73.

فقوله "كن فيكون" تدل على الوجود الفعلي لهذه الحقيقة بإرادة المولى سبحانه وتعالى لحكمة اقتضاها وهو الأعلم بها، فكونه محقق بين الكاف والنون، يقول الزمخشري (ت**538هـ**) في هذا المعنى: «والمعنى أنه خلق السّماوات والأرض قائما بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء كن، فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة، أيّ لا يكون شيئا من السّماوات والأرض وسائر المكونات إلاّ عن حكمة وصواب»[1]، وقد جاءت جملة نهاية الآية تؤكد على وجود هذه الحكمة و"هو الحكيم الخبير"، فهو الذي خلق السّماوات والأرض وما بينهما وما بثّ فيهما «بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وهو أن جعلها مقار المكلفين ليعملوا فيجازيهم»[2]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣**﴾[3].

ولقد ذكر لفظ الخلْق بتسكين اللام في القرآن الكريم أربع عشرة مرة، وجاءت معرفة في كلّ المواضع للدلالة على استغراق جميع ما أبدع وأنشأ وأوجد الله سبحانه وتعالى.

مفهوم الخلق:

إذا بحثنا عن ماهية الخلق في اللغة وجدناه «في كلام العرب: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وقول أبو بكر الأنباري: الخلق في كلام العرب على ضربين أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر التقدير، وقال في قول الله عزّ وجل: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾[المؤمنون: 14]، معناه أحسن المقدرين، وكذلك قوله: ﴿أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ﴾ [العنكبوت: 17] أي تقدرون كذبا»[4]، وجاء أيضا بهذا المعنى –التقدير– في الصحاح[5]، ويقول الزمخشري في أساس البلاغة: «خلق الله الخلق: أوجده

[1] – الكشاف عن حقائق التأويل وغوامض التنزيل، ج38/02.
[2] – الكشاف، ج546/04.
[3] – سورة التغابن، الآية: 03.
[4] – تهذيب اللغة، مادة(خ ل ق).
[5] – الصحاح تاج اللغة، وصحاح العربية، مادة (خ ل ق).

على تقدير أوجبته الحكمة البالغة، وهو ربّ الخليقة والخلائق»[1]، والخلائق جمع الخليقة وهي بمعنى الطبيعة وتعني أيضا الخلق: كما جاء عن الخليل[2].

ويجمع ابن منظور (**ت711هـ**) هذه المفاهيم في لسان العرب، ويرى أنّ الخالق صفة الله عزّ وجلّ واسم من أسمائه، ويقول بأنّ الخلق: «ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه: وكلّ شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه: ألا له الخلق والأمر...ابن سيدة: "خلق الله الشيء يخلقه خلقا" أحدثه بعد أن لم يكن، والخلق يكون المصدر ويكون المخلوق»[3]، ومن ثمّ فإنّ الخلق هو إيجاد المخلوقات بقدرة القادر وحكمته التي اقتضت تنوع الخلائق وتعددها، فأبدع وأنشأ وكوّن، وحقق ذلك في هذا الوجود، وتجلت حقيقة الألوهية في هذا الكون الذي «خلقه الله سبحانه خلقا وأنشأه إنشاءً، بعد أن لم يكن، سواء في ذلك مادة بنائه الأساسية، أو الصورة التي ظهرت فيه...وأعطى كلّ شيء خلقه، وأعطى كلّ شيء صورته، وأعطى كلّ شيء وظيفته...»[4].

فكان الخلق من العدم إبداعا، والخلق بالاعتماد على المادة الأساسية خلقا، وإعطاء الأشياء صورتها ووظيفتها جعلا، لذلك نجد التعبير القرآني في الآيات الكونية ينوّع في الاستخدام اللفظي بين الخلق والإبداع والجعل، وهو تنوع يتضمن فروقا دلالية تتناسب مع كيفية وجود هذه الموجودات، فكان الخلق على ضربين: خلق إبداع، وخلق تكوين، والفرق بينهما هو أنّ: «الإبداع إيجاد الشيء من لا شيء، والخلق إيجاد شيء من شيء، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ﴾[5]، وقال: ﴿خلق الإنسان﴾ والإبداع أعم من الخلق»[6]، لذلك لم يعبر عن خلق الإنسان بالإبداع من حيث إنّ الابتداع -كما يقول الجرجاني في التعريفات هو: «إيجاد شيء غير مسبوق بمادة ولا زمان، كالعقول، وهو يقابل التكوين لكونه مسبوقا بالمادة والأحداث لكونه مسبوقا بالزمان والتقابل بينهما تقابل التضاد إن كانا وجوديين، بأن يكون الابتداع عبارة عن الخلو عن المسبوقية بمادة، والتكوين عبارة عن المسبوقية

1 – أساس البلاغة، ج264/01.
2 – كتاب العين، مادة(خ ل ق).
3 – لسان العرب، مادة(خ ل ق).
4 – مقومات التصور الإسلامي/ 227.
5 – البقرة/ 117، سورة الأنعام/ 101.
6 – التعريفات/ 08.

بمادة»[1]، كما هو الحال بالنسبة لخلق الإنسان الذي خلق من سلسلة من المواد المتصلة- الحلقات- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[2]، بينما جاء التعبير بالخلق والإبداع عن السّماوات والأرض؛ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾[3]، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾﴾[4].

1-2- بدء الخلق:

إنّ عملية الخلق من حيث بداياتها وكيفياتها جاء عرضها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة من سوره، وكلّها تحيل إلى المبدأ الأول لهذا الفعل–فعل الخلق– وهو الله سبحانه وتعالى. فقد «جاءت مادة "خلق" بمشتقاتها في القرآن الكريم مائتين وإحدى وستين مرة، للتأكيد على أنّ عملية الخلق هي عملية خاصة بالله تعالى وحده دون غيره، فهي عملية لم يشاركه فيها أحد، ولا يقدر عليها غيره»[5]، فكلّ هذه العوالم من صنعه فهو مبدئها ومعيدها.

وقبل أن نعرض الآيات والأحاديث التي جاءت في هذا الموضوع، لابدّ من توضيح الملمح الإعجازي في قضية بدء الخلق، والمتمثل في توجيه الخطاب إلى العقل البشري في صيغ وسياقات مختلفة تؤكد على وجود بداية لفعل الخلق.

---

[1] – المرجع نفسه.

[2] – المؤمنون/ 12-14.

[3] – الأنعام/ 101.

[4]– الزمر/ 05.

5– السّماء في القرآن/ 78.

بعد تحديد ماهية "الخلق" لابدّ من تحديد ماهية "البداية" أو "البدء" قبل الحديث عن الكيفية.

جاء "الخلق" مصدرا مقترنا بالفعل "يبدأ" في مواضع عدة منها قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝﴾[1]، وقال أيضا: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝﴾[2]، وقال في سورة النّمل: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝﴾[3].

وقال في موضع آخر: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾[4].

بما أنّ التوحيد أمر عظيم فكان لابدّ أن يكون التدليل على وجود الواحد الأحد الصانع لهذا الكون بما هو عيان للمخلوق، وبعيد عن قدرته ؛ استدل ببدء الخلق وبإعادة ذلك على يوم البعث، فقد بيّن الله تعالى «بالدليل كونه خالقا للأفلاك والأرضين، ويدخل فيه أيضا كونه خالقا لكلّ ما في هذا العالم من الجمادات المعادن والنبات والحيوان والإنسان، وقد ثبت في العقل أنّ كلّ من كان قادرا على شيء وكانت قدرته باقية ممتنعة الزوال، وكان عالما بجميع المعلومات فإنّه يمكنه إعادته بعينه»[5]، فقد دلّ على التوحيد بالخلق بدءا وتسخيرا وبعثا، ولذلك جاء الفعل "يبدأ" في جميع المواضع في الزمن المضارع؛ لأنّ عملية الخلق تتكرر في كلّ أصناف الكائنات الحية، والإنسان يرى هذا التجدد في خلق الإنسان

1- يونس، الآية /03-04.

2 - يونس، الآية/ 34.

3 - النمل، الآية/ 64.

4 - الروم، الآية / 11.

5 - مفاتيح الغيب، ج17 / 205.

والنبات والحيوان وموتها، وهذا التجدد في الخلق يمتد إلى البعث، فيشمل فعل البدء حاضر المخلوقات ومستقبلها، ولم يقف الخطاب القرآني عند هذا الحد في التدليل على التوحيد ببدء الخلق، وإنّما دعا العقل البشري للنظر والبحث عن أسرار ذلك.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)﴾[1].

الآيتان التاسعة عشرة والعشرون من سورة العنكبوت، تحملان من اللطائف والدلائل ما يشمل الخلق من بدايته إلى نهايته، ودعوة ربانية إلى التّفكر والنظر في سر إيجاد هذه الموجودات، فالآيتان تتضمنان استعمالا ثنائيا لفعل البدء، ومصدر الخلق، وفعلي الإعادة والإنشاء وفاعليه الخالق عزّ وجلّ في سياق التدليل على قدرته ووحدانيته، والتعجب من إنكار الكفار لهذا الحقيقة، فقد«أنكر الله تعالى على المشركين كفرهم بربهم العظيم، والدلائل الدالة على وجوب الإيمان به قائمة عليهم في أنفسهم وفي الكون من حولهم، والدليل القائم عليهم من أنفسهم أنّهم كانوا أمواتا عدما غير موجودين فأحياهم الله، ثم يميتهم في الدنيا، ثم يعيدهم إلى الحياة يوم القيامة»[2].

لقد جاءت هذان الآيتان في سياق الحديث عن كفر قوم نوح وقوم إبراهيم عليهما السلام بدعوة نبيهما، فاستدل على صدقها بدليل الخلق وقد فعل ذلك –في الآية التاسعة عشرة– بأسلوب بلاغي بديع وهو الاستفهام الإنكاري ﴿أولم يروا...﴾ وهو يحيلهم بذلك إلى رؤية الله في أنفسهم وكيفية خلقهم.

فإذا كان «البدء فعل الشيء أولٌ...وبدأ في أسماء الله عزّ وجلّ المبدئ: الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداءً من غير سابق مثال»[3]، جعله –بدء الخلق– سبحانه وتعالى محل الدليل العقلي على

1 – العنكبوت/19-20.

2 – الله يحدث عباده عن نفسه/ 16.

3 – لسان العرب، (مادة بدأ).

العلم الواضح الذي لا جدال فيه، من حيث إنّ عملية البدء هذه تتكرر رؤيتها بتكرار حصولها وانقضائها بخلق الخلائق وموتها في الحياة الدنيا، والبينة الدلالية والتركيبية لهذه الآية تؤكد هذا المعنى.

والجانب التركيبي لهذه الآية يقتضي بأن «الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، ولم حرف نفي وجزم وقلب، وكيف اسم استفهام في محل نصب مفعول يروا، لأنّها علقت عن العمل بالاستفهام والرؤية قلبية، والمراد بها العلم الصحيح الواضح لأنّه كالرؤية البصرية؛ "ثمّ يعيده" كلام مستأنف أو هو كلام معطوف على "أولم يروا"، وسبب امتناع عطفه على يبدئ لأنّ المقصود الاستدلال بما عملوه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته، فلو كان معلوما لهم لكان تحصيلا للحاصل، ولا يقال: إنّه من قبيل عطف الخبر على الإنشاء، لأنّ الاستفهام متضمن معنى الإنكار، والتقرير هو بمثابة الإخبار، وإنّ واسمها وعلى الله: متعلقان بيسير ويسير خبر إنّ»(1)، إذن فقد عبّر عن العلم بالرؤية، وعلق هذه الأخيرة بالكيفية، وجعل فعل الخلق وإعادته أمرا يسيرا على الله عزّ وجل.

إنّ هذه الآية «خطاب لكلّ منكر لله ولقائه خطاب دليله الكون ومجاله السّماء والأرض على طريقة القرآن في اتخاذ الكون كلّه معرضا لآيات الإيمان ودلائله، وصفحة مفتوحة على الحواس والقلوب... إنّهم ليرونّ كيف يبدئ الله الخلق يرونه في النبتة النامية، وفي البيضة والجنين، وفي كلّ ما لم يكن ثم يكون مما لا تمتلك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوه أو يدَّعوا أنّهم خالقوه! وكان وما يزل معجزا في معرفة منشئه وكيف كان. »[2] لذلك جاء أمره تحديا للعقل البشري أن يمضي في هذه الأرض ويدرك سر الخلق الأول وكيفيته في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾** ﴾[3]، وقد جاءت في نفس سياق الآية التي سبقتها، محورها استفهامي —كيفية بدأ الخلق– لكن بين الرؤية والنظر بين المضارع والماضي بين الإعادة والنشأة، وبين اليسر والقدرة، وبين الإظهار والإضمار للفظ الجلالة فروقا دلالية لا تعرف إلاّ بالمقاربة.

---

[1] – إعراب القرآن الكريم وبيانه، مج05/ 683.

[2] – في ظلال القرآن، ج2725/05.

[3] – العنكبوت/20.

فهل هذه الفروق تعني أن هناك فرقا بين الخلق في الآيتين؟ خاصة وأنّ التعامل اللغوي مع الآيات الكونية –تحديدا– لابدّ فيه من «الجمع بين الآيات، وملاحظة الفروق الدقيقة بينهما، ودلالة الكلمات والنظر إلى السّياق القرآني مع محاولة تلمّس علاقة تلك الآية الكونية بالهدايات القرآنية فالسّؤال الذي يطرح نفسه دائما هو: ما هي حكمة الإتيان بتلك الآية الكونية –دون غيرها– وعلم النحو المذكور في ذلك السياق؛ كما يجب محاولة فهم وبيان دلالات الحروف والألفاظ في الآيات، وعلاقة ذلك بالمعنى المراد، ولا يجوز القول بأنّ كلمة وردت أو تكررت دون أن تضيف شيئا للمعنى وأنّ لفظة وردت في صورة معينة فقط لمراعاة الفواصل، والواجب هو الإيمان اليقيني بأنّ الكلمة في صورتها تلك لها مدلول في السياق، وأنّ الإعجاز يشمل النواحي جميعها»[1]، بتطبيق هذه القاعدة على الآيتين التاسعة عشرة والعشرين من سورة العنكبوت، فلا بدّ من عرض البنية التركيبية للآية عشرين، و قد تقدم عرض ذات البنية للآية التاسعة عشرة، ثم البحث في الفروق الدلالية.

يقول محي الدين درويش في إعراب هذه الآية: «﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾ الكلام حكاية قول إبراهيم لقومه، أو حكاية قول الله لإبراهيم، وسيروا: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، وفي الأرض: متعلقان بسيروا، فانظروا: عطف على سيروا، وكيف: حال، وبدأ الخلق: فعل وفاعل ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثم: حرف عطف، والله مبتدأ، وجملة ينشئ: خبر، والنشأة الآخر: نصب على المصدرية المحذوفة الزوائد، والأصل: الإنشاء، وقرئ: النشأة بالمد، وهما لغتان كالرأفة، والرآفة، وإنّ واسمها، وعلى كلّ شيء: متعلقان بقدير، وقدير: خبر إنّ»[2]، لقد وقع الطلب على إدراك الحال التي بدأ عليها الخلق من خلال النظر، مع التأكيد على وجود نشأة آخرة، كما كان الحال في وجود نشأة أولى، وكلّ ذلك بيد الله عزّ وجلّ، فهو من يستأنف النشأة الآخرة كما يدل عليه ترتيب الآية من خلال وقوع لفظ الجلالة مبتدأ، وتكراره اسما لأنّ في جملة خاتمة الآية، وكلّ هذا يدل على مبدأ الثبات في الخلق لثبات الخالق –ووحدانيته– كما أنّه سمة تميز بها المنهج القرآني في عرض دلائل التوحيد، وفي ذات الوقت يحمل بين

[1] – الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية/ 15،16.

[2] – إعراب القرآن وبيانه، مج05/683.

سطوره الحركة التطورية للمجالات المعرفية بشكل لا يتعارض مع ثبات النواميس الكونية، كما أنّه منهج يتوافق كلّ التوافق مع طبيعة العقل البشري في عملية الإدراك.

بالمقارنة بين الآية التاسعة عشرة والآية العشرين من سورة العنكبوت يمكن طرح الإشكاليات التالية:

-ما الفرق بين الاستفهام والأمر؟

-ما الفرق بين الرؤية والنظر؟

-ما الفرق بين التعبيرين يبدئ وبدأ؟

-ما الفرق بين الكيفية في الآية الأولى، والكيفية في الآية الثانية؟

-ما الفرق بين الإعادة والإنشاء؟

-ما دلالة حرف العطف "ثم"، ولما جاءت الجمل بعده مستأنفة؟

-ما هي الحكمة من إظهار لفظ الجلالة، وإضماره في الآيتين؟

سبق الذكر أنّ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾، هو استفهام إنكاري؛ لماذا؟

معلوم أنه عندما يأتي بعد همزة الاستفهام نفي يكون الاستفهام إنكاريا الغرض منه إقرار المخاطب بما يقابله، وهو المعنى المراد بالآية، «أولم يروا كيف يخلقهم الله ثم يتوفاه بعد ذلك، وكذلك سائر الحيوانات، وسائر النباتات، فإذا رأيتهم قدرة الله سبحانه على الابتداء والإيجاد، فهو القادر على الإعادة لأنه إذا أراد أمرا قال له: كن فيكون»[1]. لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إقرارهم بما يعلمون حجة على أنفسهم، وهذا من بديع الأسلوب القرآني، وبلاغة نظمه، يقول الجرجاني في تفسيره الاستفهام الدال على الإنكار: «واعلم أنّا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإنّ الذي هو محض المعنى: أنّه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إمّا لأنه ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: "فافعل"فيفضحه ذلك، وإمّا لأنّه همّ بأن يفعل ما لا

[1] - فتح القدير، ج228/04.

يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبّه وعرف الخطأ، وإمّا لأنّه جواز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه، وقيل له: فأرناه في موضع وفي موضع وفي حال، وأقم شاهدا على أنه كان في وقت...»[1].

وهذا الحاصل بين الآيتين فبعد الاستفهام الذي أراد الله به إمهال المشركين فرصة الإقرار بالتوحيد، عمد إلى الأمر حتى يدرك المخاطب بالتأمل الطويل، والتفكير العميق، خلال عملية السير التي تستلزم التنقل في الأرجاء الفسيحة على هذه الأرض، والتي تلازمها عملية النظر الذي يستلزم الوسيلة بمختلف أنواعها، فهو نظر تأمل وبحث وتفكر، هذه الملازمة دلّت عليها "الفاء" التي تأتي دالة على التعقيب، وجاء-الأمر- بعد زيادة المشركين لتمسكهم بكفرهم، يقول الرازي في الآية العشرين من سورة العنكبوت: «الآية المتقدمة —الآية التاسعة عشرة-كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل، من غير طلب، فقال: "أولم يروا" على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه، وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري، وهذا لأنّ الإنسان له مراتب في الإدراك بعضهم يدرك شيئا من غير تعليم وإقامة برهان له، وبعضهم لا يفهم إلاّ بإبانة، وبعضهم لا يفهمه أصلا؛ فقال: إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا في الأرض-أي سيّروا فكركم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق»[2].

إنّ هذا التدرج الأسلوبي من الإنكار المحيل إلى الإقرار، ثم إلى الأمر الناطق بالتحدي بدليل قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾[3]، تجد تجاوز زمن سيدنا إبراهيم عليه السّلام ومن بعده محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنّه هو أيضا واجه هذه الأسئلة حول حقيقة البعث[4]؛ وممتد هذا الأمر إلى زمننا والأزمنة اللاحقة من حيث إنّ التعبير بالأمر يفيد طلب الدوام والاستمرار.

---

[1] - دلائل الإعجاز/ 120.
[2] - مفاتيح الغيب، ج25/40.
[3] - العنكبوت/ 22.
[4] - جامع البيان في تأويل القرآن،ج21.

إنّ هذا التنوع الأسلوبي ليس تنوعا بلاغيا فحسب، وإنّما هو تنوع تعليمي يراعي فيه المولى عزّ وجلّ مستويات الإدراك البشري كما أنّه دليل على رحمته الشاملة للإنسان.

فإذا كان العلم بهذه الكيفية –بدء الخلق– حجة على حقيقة البعث بالنسبة للمشركين فهي بالنسبة للمسلمين دعوة إلى استخدام العقل والاعتماد على العلم في معرفة الله عزّ وجلّ، لأنّ «مبادئ العقل تتوافق مع أنظمة الكون، والعقل أداة معرفة الله»[1]، ولقد جاء أمر الله سبحانه وتعالى بالنظر والتفكّر وإعمال العقل في الكثير من الآيات القرآنية، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾[2]، وقال أيضا: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠١﴾[3]، وقال في موضع آخر: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾[4]، كما أثنى الله سبحانه وتعالى على المتدبرين لهذا الكون، فقال في محكم تنزيله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾[5].

إنّ دقة التعبير القرآني تعكس دقة النسيج الكوني، وتضع الإنسان المتدبر على سلم الرقي الفكري السليم، لأنّها دقة تتماشى مع أنواع المعرفة وطرق الحصول عليها، القرآن في أسلوبه –كما رأينا مع الاستفهام والأمر–وفي لغته يتفق مع الإدراك الفطري، كما أنّهما مرنان بحيث يتفقان كلّ الاتفاق من حيث الكيفية والمدلول مع التحليل المنطقي والعلمي لكلّ أنواع الحقائق.

[1] - مقومات التكليف/ 18.
[2] - الروم/ 50.
[3] - يونس/101.
[4] - الروم/ 08.
[5] - آل عمران/ 191.

فبين الرؤية والنظر في الآيتين السابقتين مفارقة تجعل الثانية وسيلة حصول الأولى في المنظور العام للإدراك، أمّا في هذا الموضع من القرآن الكريم، فهذا الاستعمال يحمل حكمة خاصة، يقول الرازي: «قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر، ما الحكمة فيه؟ نقول: العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين، والرؤية أتم من النظر لأنّ النظر يفضي إلى الرؤية، يقال: نظرت فرأيت والمفضي إلى الشيء دون ذلك الشيء، فقال في الأول: أما حصلت لكم الرؤية؛ فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية»[1].إذن فبين الرؤية والنظر علاقة تلازمية في المدلول العام للآيتين، ويحدد اتجاهاها الأحادي نوعية القارئ أو المتدبر، أو المخاطب.

إنّ الآية الأولى تحمل الحقيقة المطلقة التي تتأتى بالمشاهدة، والآية الثانية تحيل إلى الحقيقة الخاصة التي خفيت عن الأعين بحكم أسبقية وجودها على وجود الإنسان، وهي الخلق الأول من العدم، فالأمر بالبحث فيها طريق من طرق معرفة عظمة الخالق ووحدانيته، وذلك لأنّ الإنسان في رحلة سيره نحو هذه الحقيقة إدراك لصفات الله العليا من علم وخبرة، وقدرة وجبروت، كما يقف من خلالها على عجزه أمام الله سبحانه وتعالى، فإذا كانت الرؤية يقينية، فالأمر بالنظر سبيل من سبل بلوغ اليقين، خاصة وأنّ الرؤية هنا معلقة بالكيفية لا بالخلق؛ لأنّ الخلق سره بيد خالقه، أما الكيفية فهناك قدر منها شاء الله لنا أن نعلمه، لكي نستدل به على قضية البعث، يقول الرازي في هذه القضية: «قال: أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق، وما قال: أولم يروا أنّ الله خلق، أو بدأ الخلق، والكيفية غير معلومة، فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم، وهو أنّه خلقه ولم يكن شيئا مذكورا، وأنّه خلقه من نطفة هي من غذاء، وهو ماء وتراب، وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة فإنّ الإعادة مثله»[2]، وسبحان الله، حتى مدلول الإعادة فهو متشعب الأبعاد، أدناه إدراكا للإنسان عودته إلى الأصل الذي نشأ منه وهو التراب ساعة موته.

كما أنّ الكيفية التي علقت بها الرؤية كانت كيفية مخصوصة فهي كيفية الابتداء، وكيفية البدء، فهل هناك فرق بين التعبيرين "يبدئ" و"يبدأ" خاصة وأن بعض القراء[3] —الزبيدي، وعيسى بن عمر،

---

[1] – مفاتيح الغيب، ج41/25.

[2] – المرجع نفسه، ج25 /40

[3] – فتح القدير، ج228/04.

وأبو عمرو- قرأها "يبدأ" من "بدأ". ولما جاءت في الآية الأولى بصيغة المضارع "يبدئ"، وفي الثانية بصيغة الماضي بدأ؟

إنّ محاولة إيجاد الفروق الدلالية بين التعبيرين: (يبدئ) و(بدأ)، لابدّ فيها من معرفة المعنى اللغوي للصيغتين، لقد جاء في كتاب العين: «بدأ الشيء يبدأ، أي يفعله قبل غيره، والله بدأ الخلق، وأبدأ واحد، والبدء: الشيء المخلوق»[1]، وجاء في الصحاح: «بدأت بالشيء بدءا: ابتدأت به، وبدأت الشيء فعلته ابتداءً، وبدأ الله الخلق وأبدأهم، بمعنى...»[2]، وقال صاحب مقاييس اللغة: «(بدأ) الباء والدال والهمزة من افتتاح الشيء، يقال: بدأ بالأمر، وابتدأت من الابتداء والله تعالى المبدئ والبادئ، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ**﴾»[3] فلما عدل القرآن عن استخدام صيغة واحدة منهما؟ خاصة ونحن نعلم أن من خصوصيات اللغة العربية التغير في المعاني كلما تغيرت المباني.

بالعودة إلى الصيغة الصرفية لكلّ فعل، فإنّ يبدئ من أبدأ والتي هي على وزن "أفعل"، وبدأ من "فعل"، نجد أن ما جاء من دلالة الصيغتين من الناحية المعجمية –كما سبق ذكره- يدل على أصل المعنى لفعل البدء، و«أصل المعنى يشترك في الدلالة عليه عدد من الصيغ التي تعبر عنه، أمّا الدلالة الفنية الدقيقة فهي التي لا يمكن التعبير عنها بغير صيغتها»[4]. وهذه الأخيرة –الدلالة الفنية- هي التي تحدد الفارق من استخدام "يبدئ" في الآية الأولى "وبدأ" في الآية الثانية.

وبالرجوع إلى دلالة صيغة "أفعل" التي بني منها المضارع"يبدئ"، فإنّها تأتي للتصيير والصيرورة[5]، وهو ما يتوافق مع كيفية الخلق المقصودة –أي خلق- الإنسان والحيوان والنبات، والتي تمر بأطوار، وعلم هذه الأطوار معلوم لدى الإنسان، فمعنى التحويل، والانتقال من مرحلة إلى مرحلة، وتكرار نفس هذه العملية وهذه المراحل متضمن في معنى هذه الصيغة "أفعل"، من صيرورة وتعدية وتعريض، من حيث إنّ كلّ مخلوق في نشأته يدركه في نفسه وفي غيره من أبناء جنسه، وفي النبات والحيوان.وما يؤكد هذا المعنى

---

[1] – العين، مادة (ب د أ).

[2] – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة(ب د أ)

[3] – مقاييس اللغة، مادة(ب د أ).

[4] – الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم/ 122.

[5] – المفردات في غريب القرآن/ 132.

زمن هذه الصيغة وهو المضارع، ففعل «يفعل وقبيلها تفيد وقوع الحدث في الحال والاستقبال»[1]، وهذا ما لا يتعارض مع قراءة بعض القراء ليُبدئ في هذه الآية "يبدأ".

إذن، فمجيء الفعل بهذه الصيغة يؤكد أنّ عملية الخلق هذه واقعة في الحال وفي الاستقبال وكيفيتها ظاهرة للأعيان وكذلك إعادتها سواء بموت هذه الكائنات الحية –عودتها إلى الأصل الذي نشأت منه– أو بتكرار عملية الخلق هذه التي تعد سنة من السنن الكونية والتي يقوم عليها استمرار النسل البشري. ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الخلق في الآية التاسعة عشرة من سورة العنكبوت تعني خلق الإنسان، فهو يبدأ الإنسان[2]، أي خلق الآدمي[3]، والخلق ابتداءً من مادة ومن غير مادة[4]، فهو يخلقه من تراب يجمعه وينفخ فيه روحه[5]، ويخلق النّاس بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا[6]، والخالق قادر حكيم يصور الأولاد في الأرحام[7]، فيخلقهم الله ابتداءً من النطفة، في غاية الإتقان والإحكام[8]، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ الروح، ثم يخرجهم إلى الدنيا، وصاروا أناسا سامعين مبصرين، طفلا صغيرا، ثم غلاما يافعا، ثم رجلا مجتمعا، ثم كهلا، ثم يهلكه –أي يتوفاه– بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان والثمار والنباتات[9].

وقد تمّ العدول عن استخدام الماضي من هذا الفعل لأنّه يفيد وقوع الحدث في الزمن الماضي، كما أنّ وقوعه وقوع محقق، وهو ما يتوافق مع مدلول الآية الثانية، فخلق السّماوات والأرض لم يقع إلاّ مرة واحدة، وقد سبق ذلك خلق الإنسان، والذي يؤكد هذا المعنى قوله تعالى في نفس الآية ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ

1 – اللغة العربية معناها ومبناها/241.
2 – الجامع لأحكام القرآن، ج13 /336.
3 – مفاتيح الغيب، ج25/40.
4 – تفسير أبي السعود، ج7/35.
5 – مفاتيح الغيب، ج25 /40.
6 – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 437/07.
7 – مفاتيح الغيب، ج25 /40.
8 – فتح القدير، ج 228/04.
9 – جامع البيان في تأويل القرآن، ج20/20.

يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]، فلما ربط عملية البدء هنا بالنشأة الآخرة، بينما قال في الآية الأولى "ثم يعيده"؟ ف«دلّ على قوله النشأة الآخرة على أنّهما نشأتان، وأنّ كلّ واحدة منهما، إنشاء أي: ابتداء، واختراع، وإخراج من العدم إلى الوجود لا تفاوت بينهما، إلاّ أن الآخرة، إنشاء بعد إنشاء مثله، والأولى ليست كذلك»[2]، فجاءت –الأولى– بصيغة الماضي من بدأ لثبات وجودها في الواقع، الضارب قدما من الزمن، الممتد معناه إلى خلق السّماوات وما فيهن من كواكب وأفلاك وحتى هذا الامتداد يعبّر عنه رسم الحروف وشكلها فهذه مرسومة على ألف ممدودة امتداد هذا الكون مساحة وحجما وزمن خلق، بينما جاءت في الآية الأولى "يبدئ" مرسومة على الياء وكأنّها تقتصر على ما على وجه هذه البسيطة من عملية خلق حيوية تقع ضمن ثنائية تضادية (الحياة/ الموت) تصل الحياة إيحاءاتها الدلالية إلى البعث وهي القضية التي تعتبر جوهر البعد الجوهري المقصود من الآيتين.

فكما يوجد حياة وموت أي بداية وإعادة، كذلك لابدّ من وجود خلق أوّل ونشأة آخرة، «ومن هذا المنطلق تبين بالأدلة القرآنية واللغوية أنّ الفعلين غير مترادفين، وأنّ الصيغة الأولى تأتي دائما مقرونة بفعل آخر هو يعيد، وهذا الاقتران يمتدّ أيضا ليشمل اسم الفاعل في (المبدئ، المعيد) وأنّ (يبدئ ويعيد) تعبير لغوي متكامل يدلّ على التصاعد والتنامي فالتعبير (يبدئ ويعيد) يعني يصعّد، فالنهاية السابقة للإبداء هي نقطة إعادة الإبداء التالي»[3]، وجملة خاتمة الآية تتناسب مع هذا المعنى من حيث إنّه أمر يسير على الله عزّ وجلّ، ولما كان شأن الخلق الأوّل والنشأة الآخرة، سواء كان مقصودا بها البعث كما جاء في التفاسير، أو النشأة الأخيرة؛ أي آخر ما خلق الله سبحانه وتعالى –الإنسان– بعد أن خلق له الكون تسخيرا.

ولما كان شأن النشأة الآخرة أمرا عظيما استلزم ذلك قدرة أعظم، فجاءت خاتمة الآية "إنّ الله على كلّ شيء قدير" مناسبة لهذا المعنى، وجاءت فاصلتها على وزن فعيل متناسبة مع كمال الله سبحانه وتعالى في هذا السّياق، وتجدر الإشارة هنا إلى اختلاف بعض المفسرين في معنى الخلق في الآية الثانية

[1] – سورة العنكبوت/ 20.
[2] – الكشاف، ج 03/ 446.
[3] – الخلق بين العنكبوتية والداروينية/ 347.

فقال بعضهم: «إنّ الأوّل دليل نفسي، والثاني آفاقي»[1]، فالخلق في الآية الثانية هو ما في «الآفاق من الآيات مشاهدة من خلق الله الأشياء: السّماوات وما فيها من الكواكب النيرة...والأرضين وما فيها...»[2]، بينما يرى آخرون أنّ الخلق« النّاس على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم»[3]، أي كيف خلقهم ابتداءً على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى، فإنّ ترتب النّظر على السّير في الأرض مُؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها[4]، والنّظر في مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم[5]، إنّ هذا المعنى الأخير "للخلق" الذي يرى به هؤلاء المفسرون رجعوا في تخريجه إلى أمر الله سبحانه وتعالى للقوم بالمسير في الأرض، والتفكير من خلال النظر، وهو تخريج قريب إلى إدراك النّاس في تلك الفترة من الزمن وفي زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، خاصة أنه عصر كثرت فيه الروايات التاريخية، إلاّ أنّه لا يتنافى مع التخريج الأول وهو خلق السّماوات والأرض وما فيهن.

إنّ الدعوة إلى السّير والنّظر هي دعوة للبحث وتقفي الأثر العلمي اليقيني لكيفيّة حصول هذا البدء وهو ما يتناسب مع طبيعة عصرنا الذي طغت عليه العلميّة، يقول سيد قطب: «إنّ التعبير هنا بلفظ الماضي "كيف بدأ الخلق" بعد الأمر بالسّير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق، يثير في النّفس خاطرا معينا، ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى وكيفية الخليقة فيها كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء ليعرفوا منها خط الحياة كيف نشأت؟ وكيف انتشرت؟ وكيف ارتقت؟ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة الحياة: ما هي؟ ومن أي جاءت إلى الأرض؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي؟ ويكون ذلك توجيها من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال بها عند معرفتها على النشأة الآخرة»[6].إنّ زمن البدء في هذين الآيتين بين المضارع والماضي ألقى بظلاله الدلالية في تواطؤ بلاغي

---

[1] – روح المعاني، ج351/10.
[2] – تفسير القرآن العظيم، ج06 /270.
[3] – الجامع لأحكام القرآن، ج13 /337.
[4] – روح المعاني، ج 351/10.
[5] – الجامع لأحكام القرآن، ج 337/13.
[6] – في ظلال القرآن، ج2730/05.

عجيب مع باقي أقسام الكلام في الآيتين بشكل يتناسب مع السّياق، وفي الوقت ذاته يضع المتلقي في المجال الدلالي الخاص بهما والقريب من زمنه هو.

وإذا تدبّرنا أصغر وحدة دلالية في هذين الآيتين وهو الحرف "ثُمّ" لوجدنا بينهما وبين واقع القارئ تداعيا يحمل هذا الأخير إلى التسليم إلاّ من أعرض عن الحقّ، والإعراض صفة الكافرين."ثُمّ" جاءت في الآية الأولى في جملة "ثمّ يعيد"، وفي الآية الثانية في جملة "ثمّ الله يُنشئ النشأة الآخرة". جاء إعرابها استئنافية، والكلام بعدها مستأنف لأنّ عطفه غير ممكن على يبدئ؛ لأنّ «المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته[1]، أمّا من حيث المعنى "ثم" من حروف العطف التي تفيد الترتيب مع التراخي»[2]، فهي مثل "الفاء" توجب أن الثاني بعد الأول «إلاّ أنّها أشد تراخيا وتجيء لتعلم أن بين الثاني والأول مهلة تقول: ضربت زيد ثم عمرا»[3].

إنّ الوظيفة النحويّة لثمّ في الآيتين، ودلالتها على الترتيب والتراخي يتوافق مع مدلول الآيتين ، كيف؟

إنّ مدلول الإعادة يستقيم أكثر مع كونها استئنافية، وليس عاطفة، من حيث إنّ الإعادة توجب انقضاء الحال الأولى التي كان عليها الخلق، فإذا كانت الإعادة بمعنى البعث فلابدّ فيه من فناء الحياة الدنيا، والبعث، أو حتى الموت هو استئناف لحياة جديدة، وإذا كانت الإعادة خلق أفراد جديدة من نفس الجنس، فلابدّ فيه من عناصر حيوية أولية –نطفة، بذرة–، ومن هذه الجوانب يمتنع العطف لأنّه على سبيل يستحيل خلق الولد والوالد في نفس الوقت، هذا الوقت هو المجال الزمني المتوفر في دلالة ثم – التراخي– والذي جعلها أنسب في هذا السياق، يقول القرطبي (ت671هـ): «أولم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان، أي إذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة»[4]، وحتى عملية خلق الإنسان والحيوان والنبات مرورها بمراحل يستغرق وقتا، وكذلك بين خلقه

---

[1] – إعراب القرآن وبيانه، ج07/ 416.

[2] – أسرار العربية/220.

[3] – الأصول في النحو، ج55/2.

[4] – الجامع لأحكام القرآن، /336.

وبعثه حياة قدّر الله زمنها، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾[1]، وقال عزّ وجلّ في خلق الدواب: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2].

أمّا مدلول "ثم"في الآية الثانية «ثم الله ينشئ النشأة الآخرة» يتقاطع مع مدلولها في الآية، فالنشأة الآخرة هي بداية للحياة الأبدية التي تأتي بعد زوال هذا الكون، وأجل ذلك عند الله فبين بداية هذا الكون وزواله، حياة شاء لنا الله أن نحياها ابتلاء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا

[1] - سورة عبس، الآية/ 17-32.

[2] - سورة النور، الآية/ 45.

[3] - سورة فاطر، الآية/ 45.

جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

مما سبق نلاحظ كيف عكست "ثمّ" الفاصل الزمني بين المحاور الأربعة التي تتجسد فيها حقيقة الألوهيّة وهي: الخلق، والحياة، والموت والبعث، فالوظيفة النحويّة والوظيفة الدلاليّة لهذا الحرف تتلاءم مع الفضاء الزمني للكيفيّات المقرر وجودها، والمطلوب إدراكها، فحتى الحروف في القرآن الكريم تؤدي وظيفة بلاغية من حيث إنّ وظيفة البلاغة هي: «التعبير عن المعاني الدقيقة التي يبلغ بها صاحبها كنه ما في نفسه، ويبلغ بها مراده إلى سامعه»[2]. وهذه خصوصية النّظم في القرآن الكريم؛ فكلّ عنصر لغوي له وظيفة بلاغية داخل السّياق سواء كان هذا العنصر ظاهرا، أو محذوفا أو مضمرا، فالكلّ يُدْرَكُ دوره الدلالي من خلال التركيب.

ومن الظواهر النحويّة التي كان لها بعد بلاغي يعزّز من مقصدية الخطاب في الآيتين التاسعة عشرة والعشرين من سورة العنكبوت –حقيقة البعث– ظاهرة الإضمار والإظهار في قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ** ...﴾[3]، لقد أظهر اسم الله في الآية الأولى عند البدء، وأضمره عند الإعادة، بينما في الآية التي تليها أضمره عند البدء وأظهره عند الإعادة، فما الحكمة من ذلك؟

أمّا إبراز اسم الله في الآية الأولى فلأنه: «لَمْ يَسْبِقْ ذِكْرُ اللَّهِ بِفِعْلٍ حَتَّى يُسْنَدَ إِلَيْهِ الْبَدْءُ»[4]، وأضمره عند الإعادة لدلالة الأول عليه، و«يحسن الإضمار في الكلام الذي يجتمع ويدل أوله على آخره»[5]؛ لكن ما دلالة الإفصاح باسمه في موضع الإعادة في الآية الثانية، يقول الزمخشري: « فإن قلت: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ بعد إضماره في قوله: كيف بدأ

[1] – سورة الأنعام، الآية/ 60.
[2] – الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم/ 74.
[3] – العنكبوت/20.
[4] – التفسير الكبير، الرازي، ج41/25.
[5] – معاني القرآن، ج13/01.

الخلق؟ وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ قلت: الكلام معهم كان واقعا في الإعادة، وفيها كانت تصطك الركب، فلما قرّرهم في الإبداء بأنّه من الله، احتج عليهم بأنّ الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء، فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة، فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ تعذيبه وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ رحمته»[1].

إنّ عظم شأن "النشأة الآخرة" وما يستدعيه من رهبة والتفات القلوب والعقول نحوها وتهيئة النّفوس لذلك، كان إظهار لفظ الجلالة فيه أنسب، كما لو أنّ الله سبحانه وتعالى يذكرنا بموعد لقائه في هذا المقام بذكر اسمه وإيقاعه مبتدأ، فهو على رأس كلّ أمر، وأعظم كلّ عظيم. والإظهار في موضع الإضمار « وإن كان معدودا من علم الإعراب لكن له تعلّق بعلم المعاني، وذلك أن الإفصاح بإظهاره في موضع الإضمار له موقع عظيم وفائدة جزلة، وهو تعظيم حال الأمر المظهر والعناية بحقه، وإظهار الفخامة فيه»[2]، هذا الأمر الذي يدل على كمال قدرة الله عزّ وجل: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾[3].

إنّ الآيتين السابقتين تختصران حلقة الخلق في هذا الوجود؛ فهناك «نشأتان أو خلقان: خلق تم في الماضي وخرج به العالم من العدم إلى الوجود [كيف بدأ الخلق] وخلق آخر يتمّ في الآخرة يوم البعث والنشور [ثم الله ينشئ النشأة الآخرة]، وبين هاتين الحلقتين من الخلق خلق آخر مستمر متجدد كلّ يوم يمثل حلقة وسطى تربط بين الحلقتين السابقتين [أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده]، فكان الوجود كلّه يمثل سلسلة متصلة الحلقات من الخلق والإيجاد فضلا عن عناية الله الدائمة بالكون وموجوداته وحفظه لكلّ ما في العالم وتسخيره له بمقتضى علمه وقدرته ومشيئته تعالى»[4]، كما تؤكد الآيتان أنّ للخلق بداية مقصورة، ولم يأت مصادفة، كما أنّ الله سبحانه وتعالى أشار في كتابه العزيز إلى كيفيات

[1] – الكشاف، ج448/03.

[2] – الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج79/02.

[3] – العنكبوت/20.

[4] – الوجود والخلود في فلسفة أبي البركات البغدادي /152.

خلق الخلائق حتى يتسعين المؤمن بكتاب خالقه على إدراك حقائق الكون، ولا يمكن ذلك إلاّ بفهم دلالات آياته الكونية أولا من خلال التحليل اللغوي لهذه الآيات.

2- دلالة التعبير القرآني على خلق السّماوات والأرض:

لقد شاءت الإرادة الإلهية أن تكون السّماوات والأرض المجالين الكونيين الأولين المخلوقين لغايات دنيوية وأخروية، أرادها الله سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾**﴾[1].

كما أنّهما بمظهريهما العام يمثلان المحيط الكوني المنظور بالنسبة لباقي المخلوقات فشأنهما من حيث الخلق والحجم أكبر من خلق النّاس، قال تعالى: ﴿**لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾**﴾[2].ولقد اعتنى القرآن بوصف خلقهما وجميع أحوالهما وما تعلق بهما؛ وقد ذكرهما مجتمعين مئة وثمان وأربعين مرة، و سنركّز في دراستنا الدلالية في هذا الفصل على بعض الآيات التي تتحدث عن خلقهما من خلال التعابير المفتاحية التي تتضمنها، لأنّنا لو تناولنا كلّ الآيات فإنّ المقام لا يسع، كما ستصبح العملية أقرب إلى التفسير، وهدفنا في هذه الدراسة الوقوف على المفاهيم القرآنية للمنظومة الكونية.

ومفهوم القرآن لخلق السّماوات والأرض إجمالا كامن في الآيتين:

1.قال تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ**

---

[1] – سورة الأنعام/73.

[2] – سورة غافر/ 57.

ﱡﭐ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﱠ[1]. وسبب اختيار هذه الآية: إشكالية ما هو العنصر الكوني الذي سبق وجوده، خلق السّماوات والأرض؟

2. قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[2].

والكلمات المفتاحية التي تساهم في تشكيل المفهوم القرآني لخلق السّماوات والأرض من خلال الآيتين هي:(الخلق، الجعل، السّماوات، الأرض، الرّتق، الفتق، الأيام، الماء).

تطرّقنا في المبحث السّابق إلى مدلول الخلق في القرآن الكريم، لذلك سنركّز في الدلالة اللغويّة والدلالة الصوتيّة والصرفيّة على باقي العناصر، وسيكون التركيب والنّظم محاولة للبحث عن المعنى الذي تفرزه العلاقات التي تربط بين هذه العناصر الدلاليّة.

2-1- الدلالة اللغويّة:

أ- السّماء:

كلمة السّماء في اللغة من السّمو «والسين والميم والواو أصل يدل على العلوّ»[3].

يقال: «سموت إذا علوت، وسما بصره؛ علا، وسما كلّ شخص: ارتفع حتى متى استثبته، وسما الفحل، سطا على شوله سماوة. وسماوة الهلال وكل شيء شخصه، ويجمع سماو، والعرب تسمي السحاب سماء، والمطر سماء فإذا أريد به المطر جمع على سميّ، و السّماءة: الشخص والسماء سقف البيت، وكلّ عال مطلّ سماء، حتى يقال لظهر الفرس سماء»، فهي إذن بمعنى العلو، ولدلالتها على هذا المعنى، أطلقت اسم جنس على المنطقة الفضائية المقابلة للأرض، والتي « تبدو كالقبة عليها، تحتوي على الغلاف الجوي»[4]، وكلّ هذه الأوجه الواردة في المعنى اللغوي للفظ-السماء- جاءت عليها في القرآن

---

[1] - سورة هود/07.

[2] - سورة الأنبياء/ 30.

[3] - مقاييس اللغة، مادة (س م و).

[4] - الموسوعة العربية العالمية، ج 90/13.

الكريم، وقد ورد ذكر السّماء في القرآن في مئة وعشرين موضعا، وبصيغة الجمع "السّماوات" في مئة وتسعين موقعا[1].

ومن الوجوه[2] التي جاءت عليها في القرآن الكريم:

الوجه الأول: سقف البيت، في قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾**﴾[3].

الوجه الثاني: بمعنى السّحاب في قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾**﴾[4].

الوجه الثالث: بمعنى المطر، قال عز وجل: ﴿**يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**﴾[5].

الوجه الرابع: سماء الجنة وأرضها في قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾**﴾[6].

الوجه الخامس: سماء جهنم في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾**﴾[7].

الوجه السادس: المعنى المقابل للأرض، يفي قوله تعالى: ﴿**وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾**﴾[8].

---

1 – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ 459-465,

2 – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج 263/3 (بتصرف).

3 – سورة الحج /15.

4 – سورة الفرقان / 48.

5 – سورة هود، الآية / 52.

6 – سورة هود، الآية / 108.

7 – سورة هود، الآية / 106.

8 – سورة الذاريات، الآية/ 47.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

يعود اختلاف هذه الوجوه في لفظ "السّماء" إلى سياق كلّ آية، فالسّياق يضيف إلى اللفظ معان جديدة لكنّها تبقي مرتبطة بالمعنى الوضعي، وما كانت هذه الوجوه لتُحمل على هذا اللفظ–السّماء– إلاّ لأنّها تحمل صفة العلوّ.

كما أنّ الألفاظ التي وصفت بها السّماء بمختلف صيغها تتناسب مع معنى العلو، منها "السّقف" في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[3]، و«السين والقاف والفاء أصل يدل على ارتفاع في إطلال وإنماء»[4]، وهذا المعنى اللغوي للصفة التي تبدو عليها – الشكل المقبب– حين يُنظر إليها من على سطح الأرض، فهي مرفوعة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[5]. والرفع هو خلاف الخفض.

إنّ هذه المعاني من رفع، وسقف، وطباق، وطرائق، تدخل في حقل البناء الذي ورد في مواضع خاصة بالسّماء وهي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[6].

---

1 – سورة ق، الآية /06.
2 – سورة البقرة، الآية / 107.
3 – سورة الأنبياء، الآية/ 32
4 – مقاييس اللغة، مادة(س ق ف).
5 – سورة الرعد، الآية/ 02.
6 – سورة البقرة، الآية/ 22.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾[2].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾[3].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾[4].

من خلال الآيات نلاحظ كيف يصف الله السّماء بالبناء وهي من بني، «والباء والنون والياء، أصل واحد، وهو بناء الشيء، يضم بعضه إلى بعض تقول بنيت البناء وأبنية...»[5]، و قد جاءت في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾[6]، لكن الملفت للانتباه في هذا الاستخدام هو لماذا جاءت السّماء مفردة مع فعل البناء مصدرا؟ ولماذا عدل عن ذكرها، واكتفى بالعدد "سبعا" في الموضع الأخير؟

إنّ ما يحمّله البناء من الدلالة على ضم الشّيء إلى الشّيء وما يقتضيه من الاستواء حتى يصح البناء فيبدو في مظهره العام مجموعة من الطبقات وهو ما وصفت به السّماء في مواضع أخرى من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن

---

1 - سورة غافر/ 64.
2 - سورة ق/ 06
3 - سورة النازعات/ 27.
4 - سورة النبأ/12.
5 - مقاييس اللغة، مادة(ب ن ي).
6 - سورة الصافات/ 97.

تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ﴾[1]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ ﴾[2].

والطباق لفظ يدلّ في أصله على وضع الشيء على مثله[3]، أو بمحاذاته مع اللفظ –الطرائق– في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[4]، يقول الزمخشري في تفسير هذه التسمية في سياق هذه الآية: « الطرائق: السّماوات، لأنّه طرق بعضها"، فوق بعض كمطارقة النّعل، وكلّ شيء فوقه مثله فهو طريقة، أو لأنّها طرق الملائكة ومتقلباتهم، وقيل: الأفلاك، لأنّها طرائق الكواكب فيها مسيرها، أراد بالخلق السّماوات، كأنّه قال: خلقناهم فوقهم وما كنّا عنها غافلين وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا.

أو أراد به النّاس وأنّه إنّما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها، وينفعهم، وما كان غافلا عنهم وما يصلحهم» [5].

أعطى الزمخشري للفظة الطرائق أكثر من معنى، لعدم ذكر السّماوات وأجاز أن تكون الطرائق بمعنى السّماوات لوجود قرائن لفظية تتعلق بها كظرف المكان "فوق" والعدد "سبعة".

إنّ الوجوه التي جاءت عليها السّماء في القرآن والأسماء التي وصفت بها (البناء، الطباق، الطرائق، الرفع) كلّها تشترك في معنى العلو، والملاحظ مما ذكرنا سابقا رغم أنّ صفاتها تتعدد، إلاّ أنّ كل اسم يحمل في دلالته معنى يتعلق بمعنى الاسم الآخر.

إنّ هذه المناسبة بين هذه الألفاظ من حيث دلالتها تدل على تعلق الألفاظ ببعضها، داخل منظومة مفهومية واحدة، فما دلالة تلك الألفاظ إلاّ مفاهيم جزئية تشترك في تحديد المفهوم العام لوجود السّماوات السبع التي تتعلق ببعضها في إحكام كما دلّت عليه الآية الثالثة من سورة الملك: ﴿فَٱرۡجِعِ

[1] – سورة الملك/ 03.
[2] – سورة نوح/15.
[3] – مقاييس اللغة، مادة(ط ب ق).
[4] – سورة المؤمنون، /17.
[5] – الكشاف، 179/03.

﴿ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[1]، ووصفها الحق تبارك وتعالى بالحبك في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧﴾[2]، والحبك هو «إحكام الشيء في امتداد واطراد»[3]، إذن هناك ثلاثة معان تشترك في تشكيل مفهوم السّماء وهي: العلوّ، التعدد، الإحكام، ومن ثمّ يمكن القول أنّ السّماوات هي كلّ العوالم العليا التي تقابل الأرض.

والمدهش في القرآن الكريم استخدامه للألفاظ الدالة على فناء هذه العوالم يقابل دلاليا الألفاظ التي عبّر بها عن خلقها، فحين نتأمّل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩﴾[4].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾[5].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾[6].

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦﴾[7].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾[8].

الانفطار بمعنى الانشقاق والانشقاق يكون في البناء، واهية تقابل مرفوعة، والكشط يدل على "تنحية الشيء وكشفه"، فهو قلع عن شدة التزاق.

ومعنى "فرجت" أي «فتحت وشقّت»[9]، وهي تتناسب مع معنى تنحية طبقة عن طبقة.

1 – سورة الملك، الآية: 03.
2 – سورة الذاريات، الآية: 07.
3 – مقاييس اللغة، مادة(حبك).
4 – سورة المرسلات، الآية: 09.
5 – سورة التكوير، الآية: 11.
6 – سورة الانشقاق، الآية: 01.
7 – سورة الحاقة، الآية: 16.
8 – سورة الانفطار، الآية: 01.
9 – القرطبي، ج 235/19.

نلاحظ انصباب معاني ألفاظ الفناء الخاصة بالسّماء في بعضها لتشكّل مشهدا واحدا وهو مشهد يوم القيامة[1]، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل، وهذا ما يؤكّد أنّ العلاقة بين دلالة الألفاظ فيما بينها تعكس كيفيّة وجود هذه العوالم وكيفيّة زوالها .

ب- الأرض:

الأرض في اللغة لفظ مؤنث يُعبّر به عن «كلّ شيء يسفل ويقابل السّماء، يقال لأعلى الفرس سماء، ولقوائمه أرض»[2]، وبما أنّ كوكبنا يسفل جرم السّماء، كان لفظ الأرض اسم جنس له، وهي لفظة مفردة تجمع على (أرضات) بفتح الراء وسكونها، و(أرُضون)، بفتح الراء، و(أروض) بالضم، و(آراض) [3]. ومن أوجه موافقة هذه التسمية لكوكبنا سعته، «يقال: أرضت القرحة أرضا إذا اتسعت»[4].

ولقد وردت هذه اللفظة (الأرض) في القرآن الكريم في أربعمائة وواحد وستين موضعا[5]، ومن العلماء من جعلها على تسعة وجوه[6]، فيما جعلها الفيروز آبادي أربعة عشر وجها، نذكر منها تسعة:

الأول: جاءت الأرض بمعنى الجنة، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾[7]. [8]

الثاني: الأرض المقدسة وأرض الشام: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾[9].

---

[1] – في ظلال القرآن، ج3836/6.

[2] – مقاييس اللغة، مادة (أرض).

[3] – لسان العرب، مادة (أرض)، ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (أرض).

[4] – مجمل اللغة، مادة (أرض).

[5] – الأرض في القرآن الكريم/81.

[6] – الوجوه والنظائر، ج 76/1.

[7] – سورة الزمر، الآية: 74.

[8] – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج 54/2.

[9] – سورة الروم/02-03.

الثالث: أرض مصر في قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾[1].

الرابع: بمعنى المدينة النبوية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٩٧﴾[2]. وقال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٧٦﴾[3].

الخامس: بمعنى القبر، قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ۝٤٢﴾[4].

السادس: بمعنى جميع الأرض: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[5]، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾[6].

السابع: بمعنى المقام: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾[7].

1 – سورة يوسف/55.
2 – سورة النساء/97.
3 – سورة الإسراء/ 76.
4 – سورة النساء/ 42.
5 – سورة الأنعام/ 38.
6 – سورة الذاريات/ 20.
7 – سورة لقمان/ 34.

إنّ هذه الأوجه على اختلافها، إلاّ أنّها لا تخرج عن كونها جزءا من الأرض، أيّ وجهة معينة منها كأرض مصر، ومكة، والشام، أما الوجه الخاص بمعنى الجنة فتلك الأرض غير هذه الأرض، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[1].

إنّ الأرض بالمقارنة مع المدلول العام للسّماء، تمثل العوالم السفلية. أمّا كونها الكوكب الذي اختاره الله حتى يكون عليه معاشنا وابتلاؤنا، فقد هيّأها الله سبحانه وتعالى بما يصلح لذلك، وهذا ما تدل عليه الألفاظ التي وصفت بها كالفراش، والمهد، و البسط، والمد، والقرار...يقول الحق تبارك وتعالى:﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[2].

بما أن الأرض هي المكان الذي خصّه الله للحياة، فهي مستقر الإنسان، وفي اللغة "قرار" مصدر أقر، وهي من أقرُ، أي موضع، قال النابغة:

لَقَد نَهَيتُ بَني ذُبيانَ عَن أُقُرٍ وَعَن تَرَبُّعِهِم في كُلِّ أَصفارِ[3]

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: « :﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ المستقر، أي دحاها وسوّاها بحيث يمكن الاستقرار عليها»[4]، لقد أدرج الشوكاني "الدحو" في تفسيره ل(جعل الأرض قرارًا).ولفظ دحاها لا يعني القرار، لكن ما يستدعيه المستقر من وجوب تهيئة الموضع الذي يعيش عليه الإنسان بشروط الحياة الطبيعية، جعلت "التدحية" من أسباب صلاح الأرض لأن تكون قرارا.

وقد استعمل القرآن هذا اللفظ "دحاها" في التعبير عن مرحلة من مراحل خلق الأرض، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾

---

1 - سورة إبراهيم/ 48.

2 - سورة النّمل/61.

3 - مقاييس اللغة، مادة (أقر).

4 - الجامع لأحكام القرآن،ج 222/13.

مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾[1]، ولاحظ أنّ الآيات التي بعدها تحصل في معناها، وقد قال ابن كثير في تفسيره: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فسّره بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾، وقد جعل الزمخشري هذا التفسير أحد أوجه تفسير هذه الآية في تحليله لعدم إدخال حرف العطف على أخرج، يقول: «أحدهما: أن يكون معنى دَحاها بسطها ومهّدها للسكنى، ثم فسّر التمهيد بما لا بدّ منه في تأتي سكناها، من تسوية أمر المأكل والمشرب، وإمكان القرار عليها، والسكون بإخراج الماء والمرعى، وإرساء الجبال وإثباتها أوتادا لها حتى تستقر ويستقر عليها. والثاني: أن يكون أَخْرَجَ حالا بإضمار «قد» كقوله: أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ»[2]، إنّ التعليل الثاني لا يبعد الدحو عن الوجه الأول، لأنّ صاحب الحال الأرض، والفعلين (دحا، أخرج) في نفس الزمن، والدحو في اللغة أصلا البسط والتمهيد[3]، وبهذا يكون الدحو قد جمع في معناه ما وصفت به الأرض في آيات أخرى بأنّها فراش، ومهد، وبساط وممدودة، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[4].

-﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾﴾[5].

-﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[6].

-﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾[7].

---

1 - سورة النازعات / 30-33.

2- الكشاف، ج 679/4.

3 - مقاييس اللغة، مادة (دحا)

4 - سورة الذاريات/48.

5 - سورة نوح/ 19.

6 - سورة الرعد/ 03.

7 - سورة الزخرف/ 10.

وإذا بحثنا عن دلالة هذه الصفات في اللغة فإنّ المدّ هو جرُّ شيء في طول، واتصال شيء بشيء في استطالة[1]، والبساط امتداد الشيء في عرض أو غير عرض[2]، والفرش تمهيد للشيء وبسطه[3]، والمهد توطئة الشّيء وتسهيله، ومنه المهد[4].

تدلّ هذه الألفاظ على العناية الإلهيّة بهذا الكوكب طولا وعرضا، وتسهيل الحياة عليه بما بث الله على سطحه من نبات وأنهار وبحار، لكنّ هذه الألفاظ تشترك في دلالتها على معنى واحد هو "الوطاء" وهذا ما يتناسب مع دلالة الأرض على العوالم السفليّة، فالتعبير القرآني يراعي في استخدامه للألفاظ الصّورة الذهنية للموضوع، لذلك نجد تلاحقا بين المعاني التي عبّر بها عن الأرض، والمعاني ما هي إلاّ «الصّورة الحاملة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكلّ شيء له وجود خارج الذهن، فإنّه إذا أُدرك حصلت له صورة في الذهن أقام اللفظ المعبّر له هيئة تلك الصّورة الذهنيّة في أفهام السامعين وأذهانهم»[5]، والرائع في القرآن أن استخدامه للألفاظ، لا يفرغ اللفظ من دلالته اللغويّة التي وضعت له، وفي نفس الوقت يتناسب هذا الاستخدام مع التطور الحاصل في المعاني دون أن يضع العقل في تناقض. فالمعاني –مثلا– التي تلقيها لفظتي المدّ والبسط في ذهن البدوي الشساعة مثلا، لا تتناقض مع صورة خطوط الطول وخطوط العرض في ذهن عالم جغرافي.

لكنّ ما يجب التأكيد عليه أنّ كلّ لفظ في القرآن مخصوص بدلالة معينة لا يمكن أن تستبدل بلفظ آخر ولو كان ينتمي إلى نفس الحقل الدلالي، فلا نستطيع مثلا أن نضع مكان فراش، بساط ولا العكس. وسيترك توضيح ذلك للفصل الأخير في التفسير العلمي وعلاقته بالإعجاز اللغوي.

ج– الرتق والفتق:

فيما يخص خلق السّماوات والأرض بدءًا فقد عبّر عنه القرآن في سورة الأنبياء بقوله تعالى: **﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ**

[1] – مقاييس اللغة، مادة (مدّ).

[2] – المرجع نفسه، مادة (بسط).

[3] – المرجع نفسه، مادة (فرش).

[4] – المرجع نفسه، مادة (مهد).

[5] – منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ 18-19.

شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]. ولقد اختصر الله سبحانه وتعالى صفة ابتداء الخلق في لفظتي رتقا، وفتقناهما.

ج-1- الرتق والفتق في اللغة:

جاء في لسان العرب: «الرّتق إلحام الفتق وإصلاحه، رتقه يرتُقه، يرتِقه رتقا، فارتتق أي التأم، فالرتق ضد الفتق»[2].

أمّا الفتق فقد ذكر ابن فارس أنّ: «الفاء والتاء والقاف أصل صحيح يدل على فتح في شيء من ذلك: فتقت الشيء فتقا، والفتق: شق عصا الجماعة، والفتق الصبح»[3]، فالفتق: الشق كما أجمعت عليه معاجم اللغة العربية[4].

لقد عبّر القرآن عن صفة ابتداء الخلق بهذين اللفظين المتضادين، فهما يشكلان ثنائية موافقة لثنائية (العدم والوجود)، إذ عبّر عن حالة العدم تلك بالرتق، وعبّر عن الوجود بحالة الفتق، و تجب الإشارة إلى أنّ هذين اللفظين لم يذكرا في القرآن الكريم، إلاّ في هذا الموضع.

وبالنسبة للفتق: نجد في القرآن لفظة "فالق" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾[5]، تحمل دلالة الشقّ[6]، إلاّ أنّ استخدام "الفتق" دون "الفلق" يعود إلى دلالة مخصوصة في الأولى لا يمكن أن تؤديها الثانية، حتى وإن كانا لفظان متقاربان لكنّ اختلافها في الصّوت الثاني وفي الصيغة الصرفيّة لابدّ أن يؤدي إلى اختلاف دلالي.

1 – سورة الأنبياء/30.

2 – لسان العرب، مادة (ر.ت.ق) (ف.ت.ق)، وينظر: مختار الصحاح (ر.ت.ق)، وتاج العروس، (ر.ت.ق).

3 – مقاييس اللغة، 4مادة (ف ت ق).

4 – ينظر: لسان العرب، مادة (ف.ت.ق)، مختار الصحاح، مادة (ر.ت.ق)،

5 – سورة الأنعام/ 95.

6 – تفسير القرطبي، ج 44/07.

لذلك يمكننا القول أنّ الدلالة اللغويّة وإن كانت أساسية في الوصول إلى المعنى إلاّ أنّها لا تكفي لتحديد مقصديّة الخطاب القرآني، لأنّ الخطاب القرآني هو بنية متكاملة من المفاهيم، لا يمكن الوصول إليها بالوقوف على كلّ العناصر اللغوية وإدراك العلاقة التي تربط بينها.

ج-2- الرّتق والفتق عند المفسرين القدامى:

لقد تضمّن تفسير الكشاف مجمل القول لما جاء في التفاسير حول مدلول الرّتق والفتق في هذه الآية ، يقول الزمخشري :«فإن قلت الرّتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنّه مصدر فما بال: الفتق؟

قلت: هو على تقدير موصوف، أي كانتا شيئا رتقا: ومعنى ذلك: أنّ السّماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السّماوات متلاصقات، وكذلك الأرضون لا فرج بينهما ففتقهما الله وفرّج بينهما، وقيل ففتقناهما بالمطر والنبات بعدما كانت معتمة»[1].

في هذا التفسير إشارة إلى عدول القرآن عن استخدام اسم المفعول (مرتوقتين) إلى استعمال المصدر "الرّتق"، الذي كانت وظيفته النحويّة في الآية خبرا لكان، «والمعنى: كانتا ذواتي رتق»[2]. ويمكن استقراء عدّة دلالات من هذا العدول، فلو استخدم (مرتوقتين) لكانتا مفعولتين –أي مخلوقتين– وعامل الزّمن يتخللهما؛ أي أنّ هذا الفتق تمّ بعد خلقهما، ويصبح معنى الفتق مقتصرا على فتق السّماوات سبعا، وكذلك الأرضون؛ أو المعنى الثاني فتقهما بالمطر والنبات، وهو المعنى الذي جاء عن عبد الله بن عباس المعروف بترجمان القرآن، حين سئل عن هذه الآية[3].

أمّا التعبير بالمصدر –رتقا– فبالإضافة إلى كونه يمكن أن يقع موقع اسم المفعول، فهو موافق لحالة العدم التي كانت عليها السّماوات والأرض، كون المصدر يدل على حدث مجرد من الزمن، فهذا الاستخدام موافق لحالة العدم التي كان عليها الكون قبل خلقهما، وعملية الخلق بدأت بفعل الفتق، واستعمال المصدر يحتمل جميع الدلالات.

---

1 – الكشاف، ج 113/03.

2 – إعراب القرآن للنحاس، ج 45/3.

3 – مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 15/2.

وفيما يخص دلالة الرتق فإنّه يحمل عدة أوجه، توسع الطاهر بن عاشور في عرضها انطلاقا من مدلول الرؤية، وإن كان يرى في الإخبار بالمصدر المبالغة في حصول الصفة[1]. ويقول في معاني الرتق: «يحتمل أن يراد به معان تنشأ على محتملاتها معان في الفتق، فإن اعتبرنا الرؤية بصرية، فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلّل شيء بين أجزاء السّماوات وبين أجزاء الأرض، والفتق هو ما يشاهده الرائي من ضد ذلك حين يرى المطر نازلا من السّماء، ويرى البرق يندرج منها، والصواعق تسقط منها فذلك فتقها، وحين يرى انشقاق الأرض بماء المطر وانبثاق النبات والشجر منها بعد جفاف، وكلّ ذلك مشاهد مرئي دال على تصرف الخالق... وإن اعتبرنا الرؤية علمية احتمل أن يراد بالرتق مثل ما أريد به على اعتبار كون الرؤية بصرية، وكان الاستفهام أيضا إنكاريا متوجها إلى إهمالهم التدبر في المشاهدات، واحتمل أن يراد بالرتق معان غير مشاهدة، ولكنها مما ينبغي طلب العلم به لما فيه من الدلائل على عِظم القدرة وعلى الوحدانية، فيحتمل أن يراد بالرتق والفتق حقيقتهما، أي الاتصال والانفصال، ثم إنّ هذا الاحتمال يجوز أن يكون على معنى الجملة، أي كانت السّماوات والأرض رتقا واحدا، أي كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت السّماوات عن الأرض كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ...﴾[2]»[3].

من خلال ما سبق يعطي المفسرون معنى الفصل للفظة الفتق، وهو على ثلاثة أشكال:

الشكل الأول: الفصل بين السّماء والأرض.

الشكل الثاني: وهو الذي حدث للأرض، وهو فتق اليابس الذي كان كتلة واحدة إلى سبع أراض، أي سبع قارات تتخللها البحار والمحيطات ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ ...﴾[4].

وهو الذي حدث للسّماء في يومها كما جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ

[1] – التحرير والتنوير، ج 53/17.
[2] – سورة هود/07.
[3] – المرجع السابق، ج 53/17.
[4] – سورة الرعد/04.

فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

الشّكل الثالث: وهو الذي تمّ للسّماء بإنزال المطر منها وللأرض بإنزاله عليها، وإخراج النّبات، وقد عبّر عنه القرآن في سورة الطارق بقوله تعالى:﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾[2]،وبقوله في سورة عبس: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾[3].

2-2- دلالة الأصوات والصيغ الصرفية:

2-2-1- السّماوات والأرض:

لعلّ ما يلفت انتباه القارئ لكتاب الله عزّ وجلّ، مجيء السّماوات بصيغتي الإفراد والجمع، واستعمال الأرض بصيغة الإفراد دون الجمع وحتى في الموضع الذي قصد منه التعداد، قال عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ...﴾[4]، ذكر الأرض بصيغة المفرد وعبّر عن عددها بـ"مثلهن" أي سبعا كسبع سموات، فما علّة هذا الاستعمال؟

يقول ابن القيم في تعليله لهذه الظاهرة: «فإن قلت: فلم جمعوا السّماء فقالوا سماوات، وهلاّ راعوا فيها ما راعوا في الأرض فإنّها مقابلة، فما الفرق بينهما، قيل بينهما فرقان: فرق لفظتي، وفرق معنوي. أمّا اللفظتي: فإنّ الأرض على وزن ألفاظ المصادر الثلاثة، وهو "فعل"، كضرب، وأمّا السّماوات كان نظيرها في المصادر التلاء والجلاء فهي بأبنية الأسماء أشبه، وإنّما الذي يماثل الأرض في معناها ووزنها السّفل والتّحت وهما لا يثنيان ولا يجمعان، وفي مقابلتهما الفوق والعلو، وهما كذلك لا يجمعان على أنّه قد قيل: إنّ السّماوات ليس جمع سماء، وإنّما هي جمع سماوة كلّ شيء أعلاه، وأمّا جمع سماء فقياسه أسمية

[1] - سورة فصلت/ 11-12.
[2] - سورة الطارق/11-12.
[3] - سورة عبس/26.
[4] - سورة الطلاق/ 12.

كأكسية، وأغطية، أو سماوات، وليس هذا بشيء، فإنّ السّماوة هي أعلى الشيء خاصة ليس باسم شيء عال، وإنّما هي اسم بجزئه العالي، وأمّا السّماء فاسم لهذا السّقف الرفيع بجملته»[1].

إنّ الفرق بينهما من النّاحية الصرفية يُردّ إلى وزن كلّ منهما ودلالته، فإفراد الأرض متوافق مع عدم إمكانية جمع ما تدل عليه من معنى التحت والسفلية، أمّا من حيث الفصاحة فإنّ جمعها ثقيل، ورُبّ مفرد لم يقع في القرآن جمعه لثقله وخفة المفرد، وجمع لم يقع مفرده، كالألباب[2].

كما أنّ الإنسان لا يرى غير هذه الأرض التي يعيش عليها، والسّبع بالنسبة له متمثلة في القرارات السّبع وهذه الأخير متصلة مع بعضها البعض في الطول والعرض[3]، كما أنّ كلّ الآيات التي فصّلت في أحوال الأرض ومخلوقاتها تتعلق بالكوكب الذي نعيش عليه، فهذا الإفراد موافق لتصوراتنا الذهنية حول الأرض.

أمّا بالنسبة للسّماوات فقد عبّر بمفردها عن سماء الدنيا، لذلك نجد في الآيات التي تصف ما نراه من أحوالها أو ما يتعلق بها كالسّحاب –مثلا– لفظ السّماء نحو قوله تعالى: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ...**﴾[4]، ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ**﴾[5].

أمّا بالنسبة لجمعها فجمعت لكونها طبقات متمايزة لكلّ واحدة خصوصياتها، لقوله تعالى: ﴿**فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾**﴾[6]، فقد فصّل الله سبحانه وتعالى في أحوال سماء الدنيا، وكانت ترد جمعا –السّماوات– في مقام إثبات الألوهية، وجلال الربوبية في مثل قوله تعالى:

---

[1] – بدائع الفوائد، ج114/1.

[2] – غرائب التفسير وعجائب التأويل،ج 350/1.

[3] – روح المعاني،ج 429/1.

[4] – سورة البقرة/19. غرائب التفسير وعجائب التأويل،ج 350/1.

[5] – سورة الحجر/16.

[6] – سورة فصلت، الآية/ 12.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾[1]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

أمّا فيما يخص الفارق المعنوي ففيه ثلاثة وجوه على رأي ابن القيم[3]:

الأول: أنّ السّماء ترد بصيغة المفرد إذا قصد بها العلو والرفعة، من حيث إنّ لها معنيان، معنى ذاتي محسوس أي بمعنى السقف، ومعنى وصفي —دلالتها على العلو والرفعة– فإذا قصدت ذواتها المحسوسة وردت بصيغة الجمع.

أمّا الأرض فمعناها وصفي مقصود بها معنى التّحت والسّفل دون الذات والعدد، فإذا خرجت عن معنى السّفل جاز أن تثنى أو تجمع بقرينة دالة له على خروجها من ذلك كونها جزء من الأرض الموطؤة نحو ما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من ظلم من الأرض شيئا طوّقه من سبع أراضين)[4].

الثاني: كون عالم السّماوات أكبر من الأرض، وليست الأرض بالنسبة للسّماء إلا كحصاة في الصحراء، وإن تعددت وكبرت، فنسبها إلى السّماء كالواحد القليل[5].

الثالث: ضآلة قيمة الأرض كونها دار الدنيا «والله سبحانه لم يذكر الدنيا إلاّ مقللا لها محقرا لشأنها، وأمّا السّماوات فهي مقر ملائكة الربّ تعالى ومحل جزائه ومهبط ملائكته ووحيه»[6].

إنّ هذا التنوع في الاستعمال بين صيغتي المفرد والجمع بالنسبة للسّماء، وتخصيص الأرض بالاستعمال المفرد فقط، يحمل عدة دلالات تتوافق مع سياق كلّ آية ذكرت فيها السّماء والأرض بشكل دقيق لا يخرج عن تصور الإنسان لهما، كما يمكن أن يكون تفرّد كوكب الأرض بصالحيته لمعاش

---

1 – سورة الزمر، الآية/ 63.
2 – سورة الزخرف، الآية/ 82.
3 – بدائع الفوائد، ج 115/1.
4 – صحيح البخاري، 130/3.
5 – المرجع السابق.
6 –بدائع الفوائد، ج115/1.

الكائنات الحية عليه دونا عن باقي الكواكب أحد الفروق المعنوية التي جعلت هذا اللفظ يأتي دائما مفردا.

2-2-2- الرتق والفتق:

أ- الفرق بين الفصل والفتق:

رغم أنذ المفسرين يحملون معنى الفصل على معنى الفتق إلاّ أنّ هناك فرقا دقيقا بين لفظتي الفصل والفتق وضحه أبو هلال العسكري في كتابه "الفروق اللغوية"، حيث يقول: «إنّ الفتق بين الشيئين اللذين كانا ملتئمين أحدهما متصل بالآخر فغدا بينهما فتقا، وإن كان الشيء، واحدا ففرّق بعضه عن بعض قيل قطع وفصل وشقّ، ولم يقل فتق، وفي القرآن (كانتا رتقا ففتقناهما)»[1].

إنّ الفرق بين الفصل والفتق من النّاحية المعجمية لا ينفي العلاقة الدلالية بينهما، وهي علاقة الجزء بالكل، من حيث إنّ الفصل هو كلّ فرجة تقع في الشيء سواء عن طريق القطع أو الشّق، فتجعله أجزاء يمكن رتقها، ومن ثمّ فكلّ فصل يمكن أن يكون فتقا، لكن ليس كل فتق فصل من حيث إنّ الفتق يستلزم وجود شيئين ملتصقين.

ويمكن إرجاع هذا الاشتراك الجزئي في الدلالة بين الفصل والفتق إلى التركيب الصوتي للفظين، فكلاهما يبدأ بحرف الفاء، وهو حرف يعطي دلالة الانفتاح في كلّ جذر ثلاثي يبدأ به؛ لأنّ الفاء «أغلب أحواله الدلالة على الإبانة والوضوح إذا وقع في أول الكلمة، مثل: فتح، فضح، فرج، فلق، فجّر، فسّر...» [2].

وهذه المشاكلة بين الألفاظ ودلالة أصواتها من خصائص الصوت نفسه[3]، من حيث الشّدة والليونة، فكلّ حدث تشكل ألفاظه أصوات تتناسب مع معناه، ويمكن من خلالها تحديد الفوارق الدقيقة بين ما تشابه من الألفاظ؛ لأنّ التغير في المعنى مرده التغير في المبنى، ولو على مستوى الكلمة الواحدة.

---

1 – الفروق اللغوية، ج 152/1.

2 – الدلالة الصوتية في اللغة العربية/ 152.

3 – الدلالة الصوتية في اللغة العربية/ 152، وينظر: الخصائص، ج 162/2.

والجدول الآتي يتضمن المقارنة الصوتية بين "فتق" و"فصل":

فتق		فصل	
الصوت	دلالته	الصوت	دلالته
ف	الإبانة والوضوح (الانفتاح)	ف	الإبانة والوضوح (الانفتاح)
ت	خافية متسفلة تدل على القطع إذا جاءت ثاني الكلمة[1]	ص	خصت بالأقوى[2]
ق	الانفصال والقطع	ل	التكرار

الملاحظات:

–دلالة كل منهما على الانفتاح لابتداء كليهما بالفاء.

–إنّ إحداث شق في الشيء الواحد أصعب من إحداثه بين شيئين ملتصقين، لتماسك أجزاء الأول وتلاحمها، والتاء أقل شدة من الصاد.

–الوقف في الفتق كان على القاف، وفي الفصل كان على اللام، وهذا الأخير تكراري والأول ليس كذلك، وهذا يعني أن الانفراج في الفتق غير قابل للتكرار، بينما في الفصل فهو قابل للتكرار وبينونة الفتق حدّه إحداث فرجة بين شيئين ملتصقين.

انطلاقا مما سبق يمكن القول إنّ الفوارق الصوتية بين اللفظين تؤكد الفرق الدلالي بينهما، ويمكن القول إنّ السّماوات والأرض لم تكن شيئا واحدا، وإن كانتا ملتصقتين لا فرج بينهما، ثم ما الدليل في الآية أنّ الفتق حاصل بينهما؟ فلما لا يكون فتقهما _فعل الفتق_ قد تم من المادة التي سبقت وجودهما خاصة وأنّ الجملة التي جاءت بعد فعل الفتق ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾؟

ب– العلاقة بين الرتق والفتق:

أمّا فيما يخص لفظتي "الرتق" و"الفتق"، فإنّ التركيب الصوتي لهما جد متقارب، فهما من النّاحية البديعية يشكلان جناسا ناقصا، الاختلاف في فاء الجذر فقط، أمّا عينه ولامه فتتفقان من حيث الجنس

[1] – دقائق العربية/ 17.

[2] – الخصائص، ج 161/02.

والترتيب، وفي هذا أيضا مشاكلة للمعنى، وقد تحدّث عن ذلك ابن جني في كتابه الخصائص في باب امساس الألفاظ أشباه المعاني، حيث قال: «وذلك أنّهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبّر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب»[1].

وسنحاول التماس هذه القاعدة الصوتية في بناء الألفاظ، من خلال لفظتي، "رتق"،و" فتق".

ذكرنا سابقا دلالة أصوات "الفتق" وبالنسبة ل "رتقا " فهي كالآتي:

الراء: يدل على التكرار وديمومة الحدث[2].

التاء: الدلالة على القطع.

القاف: تدل على الانفصال والقطع والاصطدام[3].

بجمع دلالتها، ثم جمع دلالة أصوات الفتق نحصل على مايلي:

ر+ت + ق

تكرار + قطع + الانفصال أو القطع=إلحام الفتق=الرتق

ف + ت + ق

إبانة + قطع + القطع أو الاصطدام = فتق

إذن مدلول كلّ من الكلمتين هو حاصل جمع دلالة الحروف المشكّلة لكلّ لفظ، وهذا المدلول لا يخرج عن المعنى المعجمي للفظين، وهذا نابع من طبيعة هذه اللغة، يقول محمد مبارك: «إنّ للحرف الواحد في تركيب الكلمة العربية قيمة تعبيرية، وأنّ الكلمة الثلاثية تعبر عن معنى هو ملتقي معاني حروفها الثلاثة وتمازجها وتداخلها، كأن تقول مثلا أنّ (غ.ر.ق) يحصل معناها في تلاقي معاني حروفها، فالعين تدل على غيبة الجسم في الماء، والراء تدل على التكرار والاستمرار في سقوطه، والقاف تدل على اصطدام الجسم في قعر الماء، والمعنى الإجمالي الحاصل من اجتماع المعاني الجزئية للحروف وهو مفهوم

[1] – الخصائص، ج 164/02.

[2] – فقه اللغة وخصائص العربية/ 101.

[3] – المرجع نفسه.

مادة (غرق)»[1]، إنّ القيمة التعبيرية للحرف في العربية حاصلة من الانسجام التام بين مخرج الحرف وصفته مما يولد جرسا موسيقيا يلقي بظلاله الدلالية على الكلمة؛ وهذا «ما لاحظه علماؤنا من مناسبة حروف العربية لمعانيها، وما لمحوه في الحرف العربي من القيمة التعبيرية الموحية، إذ لم يعنهم من كلّ حرف أنّه صوت وإنّما عناهم من صوت هذا الحرف أنّه معبّر عن غرض، وإنّ الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية، التي يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوال المعبرة، فكلّ حرف منها يستقل ببيان معنى خاص، مادام يستقل بإحداث صوت معين، وكلّ حرف له ظل وإشعاع إذ كان لكلّ حرف صدى وإيقاع»[2]، وبين الرتق والفتق فارق صوتي واحد أعطى لكلّ منهما دلالة مقابلة للآخر، ويعتبر كلّ من الراء والفاء فونيمين؛ لأنّ وضع أحدهما مكان الآخر يحدث تغييرا دلاليا.

أمّا بالنسبة للتاء والقاف، فإنّ ترتيبها يتناسب مع ما تدلان عليه من أحداث وما يدل عليه اللفظان في الآية. فالتاء بالإضافة إلى دلالتها على القطع إذا توسطت الكلمة، فهي تدل على الاضطراب في الطبيعة[3]، هذا الاضطراب الذي يعكسه تنوع صفاتها، فهي حرف شديد، استفالي، انفتاحي، مهموس، إطباقي، وما يؤكد دلالة التاء على الاضطراب أنّ معظم الآيات التي تنتهي بها في القرآن الكريم، تحمل في مضمونها هذه الدلالة، مثل الآيات الأولى من سورة الانفطار ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝﴾[4].

لقد جاءت التاء عينا في اللفظين "رتق"، و"فتق"، وإلحام الفتق لابدّ فيه من لصق الشيء بالشيء إلصاقا وليس تماسا فقط، واللصق فيه من الحركة ما يولد ارتدادا، أي اضطرابا، والحركة ذاتها يقتضيها الفصل بين الشيئين الملتصقين، أمّا توسطها للفظين، فلأنها من حيث الصفة والمدلول تتناسب مع ما قبلها وما بعدها من الأصوات.

1 – فقه اللغة وخصائص العربية/ 105.

2 – دراسات في فقه اللغة/142.

3 – مقدمة لدرس لغة العرب/ 210..

4 – سورة الانفطار/ 01-04

وفيما يخص حرف القاف، فهي «صوت لهوي مجهور، قوي ينسجم مع الشّدة»[1]، ومعنى الشّدة يتناسب مع إلحام الفتق، وشق الرتق، ومجيئها في آخر اللفظين يلقي إيقاعا يوحي بحسم الأمر، وهو نفسه الصوت "ق" إذا اصطدم الجسمان، أو فصلا عن بعضهما، وقد قال عنها ابن سينا في رسالته (أسباب حدوث الحروف) في سياق حديثه عن سماع الحروف من حركات غير نطقية: «ومن ذلك أنّ القاف قد تسمع من شقّ الأجسام وقلعها دفعة واحدة»[2]، ومن هذا المصدر الطبيعي تكتسي القاف قوتها وجرسها؛ وأينما كان موقعها في اللفظ فهي تدل على قوة فيه، كما يختص كلّ حرف في العربية بمعنى له أثر سمعي في الطبيعة، «وتدل الظاهرة على ما في العربية من الخصائص إن لم يكن دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه، ويثير في النّفس جوا يهيئ لقول المعنى ويوجه إليه ويوحي له»[3]، ويظهر هذا بدقة في النّص القرآني، لأنّه النّص الوحيد، الذي كلّ لفظ فيه موضوع لدلالة مقصودة، لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر، ولو كان هذا الأخير مرادفا له.

إذن من خلال الدلالة الصوتية والصرفية للفظتي "رتقا"، "فتقناهما" ، نقول إنّ هذا الاستعمال مقصود بحقيقته، وليس مجازا للتعبير عن الإيجاد، فيما يخص الفتق كما جاء في بعض التفاسير[4]، وإن كان المدلول العام للآية يتضمن وصفا لكيفية إيجاد السّماوات والأرض -أي خلقهما- فالإيجاد مفهوم ننتهي إليه من خلال المستوى الدلالي العام للآية، والذي تشترك في تشكيله جملة من الكلمات المفتاحية التي تدخل ضمن حقل دلالي واحد هو الوجود، كالسّماوات والأرض، والرتق والفتق، والجعل، والماء والحياة، والإيمان... بالإضافة إلى العلاقات الدلالية التي تربط بين هذه التعابير، وكيفية ترتيبها في الآية.

3- دلالة التركيب والنظم :

3-1- دلالة التركيب على مرحلة ما قبل الخلق:

إنّ الأسئلة الوجودية التي قد تؤرق الإنسان لا يكفي النظر إلى هذا الكون لمعرفة الإجابة عنها؛ لأنّ بعضا منها غير مرئي، ولم يُشهد الله عليه أحدا، لكن كيفية تركيب الكلمات ونظمها في القرآن

---

[1] – الدلالة الصوتية في اللغة العربية/ 142.

[2] – رسالة أسباب حدوث الحروف/ 93-97.

[3] – فقه اللغة وخصائص العربية/ 261.

[4] – ينظر: روح المعاني ،ج34/09. التحرير والتنوير،ج 55/17.

كفيل بأن يعطي للإنسان الصورة المعقولة لكيفية وجود هذه الموجودات، خاصة وأنّ التعبير القرآني يعكس الرؤية الإلهية لهذا الكون وفق منهج تكاملي بين العناصر الكونية، والعناصر اللغوية، لذلك لا يمكن الوصول إلى ملامح هذه الرؤية إلاّ بمعرفة معاني هذه العناصر اللغوية في إطارها التركيبي.

وسنحاول البحث عن إجابة لبعض الأسئلة الوجودية من خلال دلالة التركيب والنظم، ولعلّ أول سؤال يطرق أذهاننا هو: ماذا كان يوجد قبل خلق السّماوات والأرض؟

يجيب الله تبارك وتعالى عن هذا بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾[1].

وجاء في الصحيحين على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض»[2].

نستقرئ من الآية أنّ العرش والماء سبق وجودهما خلق السّماوات والأرض، ومن الحديث الشريف بالإضافة إلى العرش والماء، القلم واللوح بدلالة قوله صلى الله عليه وسلم: (كتب في الذكر كلّ شيء). وبالنسبة للعرش والقلم واللوح فهي من الأمور الغيبية التي نسلّم بوجودها تسليما يقينيا، دون السؤال عن كيفية وجودها وزمانه. ولقد تعرضت التفاسير لهذه الأمور الثلاثة بوصفها من خلال الآثار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أمّا فيما يخص الماء فقد أقرّ الله عزّ وجلّ بوجوده قبل الخلق، وتركيب الآية يوضح ذلك، فقد جاءت جملة «وكان عرشه على الماء» في سياق بيان عظيم قدرته سبحانه وتعالى «وهو الذي خلق السّماوات والأرض في ستة أيام»، إنّ الجملة «وكان عرشه على الماء» بسيطة من حيث التركيب، «كان» واسمها «عرشه» وخبرها «على الماء» جاءت بعد واو الحال تفيد الإخبار عن حال عرش الرحمن قبل الخلق، ومن المفسرين[3] من رأى بجواز كونها اعتراضية، وسواء كانت حالية أو اعتراضية الغرض واحد هو التوضيح والتقرير.

أمّا بالنسبة لكان «فالمضي المستفاد منها بالنسبة للحكم –خلق السّماوات والأرض– لا للمتكلم، أي كان عرشه على الماء قبل خلقهما، وهو الذي يقتضيه كلام مجاهد وبه صرّح القاضي البيضاوي، ثم قال: لم يكن حائلا بينهما أي العرش والماء، لا أنّه كان موضوعا على متن الماء، واستدلّ

1- سورة هود، الآية/07.

2- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق/ 650.

3- التحرير والتنوير، ج 07/12.

به على إمكان الخلاء، وأنّ الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم»[1]، إذن فالعلاقة هنا بين خلق السّماوات والأرض وبين العرش ولّدت نوعين من الدلالة: دلالة زمانية ودلالة مكانية، الدلالة الزمانية تتمثل في أسبقية وجود العرش، وكانت القرينة الدالة على ذلك مجيء كان فعلا ماضيا؛ أمّا الدلالة المكانية فالاستعلاء المستفاد من حرف الجر (على) حيث رسم مشهدا تصويريا لوضع العرش على الماء، وعلاقة العرش بالماء جعلت هذا الأخير –الماء– يحمل البعدين الزماني والمكاني، وأصبحت هذه الجملة داخل هذا السياق دليلا على وجود هذا العنصر الحيوي قبل خلق السّماوات والأرض.

وكلُّ التفاسير لا تخرج عن هذا المعنى القاضي بأنّ: «العرش مخلوق قبل ذلك، وأن الماء مخلوق قبل السّماوات والأرض، وتفصيل ذلك وكيفية الاستعلاء مما لا قبل للأفهام به...»[2]، أي أنّها من الأمور الغيبية التي يبقى سرها عند خالقها.

بما أنّ هذه الجملة بسيطة ليس فيها تقديم ولا تأخير، لا حذف ولا تمثيل، فهي غير قابلة للتأويل، كما أنّها وردت بنفس التركيب في الحديث الشريف، ألا يعد ذلك تكرارا في الوحي الإلهي؟ والتكرار في العربية أحد أساليب التوكيد. فوجود الماء قبل خلق السّماوات والأرض هو الحقيقة الكونية التي يقرها القرآن والسنة النبوية.

هذا في المرحلة التي سبقت الخلق، أمّا فيما يتعلق بعملية الخلق فقد ذكر الماء في الآية التي تصف كيفية ابتداء الخلق، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

لقد علّق الماء في هذه الآية بفعل من أفعال التحويل، وهو "جعلنا" وهذا الفعل في هذه الآية يحمل دلالتي الخلق والتصيير؛ لأنّ إعراب هذه الجملة من الآية يحتمل وجهين: «(وجعلنا من الماء كلّ شيء حي أفلا يؤمنون)، وجعلنا: عطف على ما تقدم، وجعلنا فعل وفاعل بمعنى خلق، ومن الماء متعلقان بجعلنا لأنّها بمعنى خلقنا، أو بمحذوف حال من كلّ شيء؛ لأنّه كان في الأصل وصفا له، فلما قُدّم عليه نصب على الحال، ولك أن تجعل وجعلنا بمعنى صيّر، متعديا لاثنين فيكون من الماء في محل

1- روح المعاني، ج 205/06.

2- المرجع السابق.

3- سورة الأنبياء، الآية/30.

نصب على أنه مفعول ثان، وكلّ شيء مفعول أول...»[1]، والمقصود بمحذوف حال من كلّ شيء، لأنّ تقدير الكلام كيف جعل كلّ شيء حيّ؟ وجوابه: (من الماء).

ولا شك أنّ في هذا التقديم غاية مقصودة تبدو لي في ظاهرها موافقة ترتيب الأحوال والمفعولات للموجودات. أي بما أنّ الماء موجود قبل خلق السّماوات والأرض، جاء مقدما في التعبير على كلّ شيء، فمنه كانت بداية الخلق، ومنه كانت الحياة، ويعزّز هذا المعنى دلالة من على ابتداء الغاية[2] دون فساد دلالتها على السببية خاصة وأنّها جاءت عاملة في الماء.[3]

ويقول أبو السعود (ت **982هـ**) في دلالة هذه الآية: «(وجعلنا من الماء كلّ شيء حي) أي خلقنا من الماء كلّ حيوان كقوله تعالى: «والله خلق كل دابة من ماء»، وذلك لأنّه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به، أو صيّرنا كلّ شيء حي من الماء أي بسبب منه لا بد له من ذلك، وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به لا لمجرد أنّ المفعولين في الأصل مبتدأ وخبر، وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدأ، فإنّ ذلك مصحح محض لا مرجح، وقرئ حيّا على أنّه صفة كلّ أو مفعول ثان، والظرف كما في الوجه الأول قدّم على المفعول للاهتمام به والتشوق إلى المؤخر»[4].

إنّ هذا التفسير وإن كان لا يرى في تقديم الخبر على المبتدأ وجوبا إذا كان شبه جملة السبب الوحيد في تقديم (من الماء)؛ إلاّ أنّه يشير إلى علاقة الظاهرة النحوية بالظاهرة الكونية في القرآن الكريم، فما كان مقدما في الوجود جاء مقدما وجوبا في التعبير. أمّا بالنسبة لـ: "حيّ" فكونها صفة أقرب إلى المعنى من كونها مفعولا ثانيا، لأنّها تتوافق مع دلالة جعلنا على الخلق والتصيير، فإذا قرأنا الجملة بدونها — وجعلنا من الماء كلّ شيء– يصبح جعلنا بمعنى خلقا من الماء كلّ شيء –ابتداءً– خلق تكوين، وقد قال

---

[1]– إعراب القرآن وبيانه، ج 304/6.

[2]– التحرير والتنوير، ج56/17، ينظر: روح المعاني،35/09.

[3]– معاني النحو، ج 65/03.

[4]– إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج 65/06.

في محكم تنزيله: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[1]، وقال: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾[2]، وقال أيضا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[3].

أما إذا أضيفت حيّ على أنّها صفة فتضيف إلى المعنى السّابق دلالة السّببية، ونحويا الصفة من المتممات، أمّا المفعولات فهي من العناصر الأساسية، وإعراب (حيّ) مفعولا ثانيا يعطي جعلنا دلالة التصيير فقط.

ولقد ذكر العكبري (ت **616هـ**) كلّ أوجه إعراب هذه الجملة، حيث قال: «(وجعلنا) أي وخلقنا، والمفعول (كلّ شيء)، و(حيّ) صفة، (من) لابْتِداء الغاية، ويجوز أن يكون صفة لكلّ ما تقدّم عليه فصار حالا، ويجوز أن يكون جعل بمعنى صيّر، فيكون "من الماء" مفعولا ثانيا، ويقرأ حيّا على أن يكون صفة لـ "كلّ" أو مفعولا ثانيا»[4].

إنّ تعدد أوجه الإعراب في هذا الجزء من الآية يزيد من القيمة الدلالية للنص، فكلّ عنصر لغوي في علاقته مع الآخر يشكل مفهوما قرآنيا لكيفية الخلق في أحد مظاهرها؛ فالوقوف على الفعل "جعلنا" يعطي صورتين للخلق بحسب عملها فيما بعدها، والمرونة التي تميز هذه اللغة والتي تظهر على المستوى التركيبي تسمح بالانفتاح الدلالي للنّص القرآني.

ومجمل القول في هذا التعبير أنّ الله سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية –**30** من سورة الأنبياء– باستفهام إنكاري موجه إلى الكفار –أصحاب العلم في مجال الكونيات– معبرا عن حال السّماوات والأرض قبل الخلق برتق وهو مصدر لغوي يقابله في الوجود قبل الخلق مصدر كوني وهو الماء، ولا أظن أنّ الله جمع بين ذكرهما –رتقا والماء– في هذا الموضع جمع تقرير أو ترتيب أفعال خاصة وأنّ الرابط بين الجملتين الواو.

صحيح أنّ الماء مصدر حياة الكائنات الحية، وهذه الأخيرة خلقها لم يكن متزامنا مع خلق السّماوات والأرض لحظة البدء، بل بالنسبة لتهيئة الأرض كان ذلك بعد يومين من الخلق كما جاء في

[1]– سورة المرسلات، الآية/20.
[2]– سورة الطارق، الآية/06.
[3]– سورة النور، الآية/45.
[4]– التبيان في إعراب القرآن،ج 917/02.

سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[1].

فلما لم يستخدم القرآن "ثم" بدل الواو لو كان المقصود بعبارة: «وجعلنا من الماء كلّ شيء حي»: (خلقنا من الماء كلّ حيوان) كما جاء في التفاسير: «وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون زيادة استدلال لما هو أظهر لرؤية الأبصار، وفيه عبرة للنّاس في أكثر أحواله، وهو عبرة للمتأملين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات، وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان فإنّه لا يتكوّن إلاّ من الرطوبة ولا يعيش إلاّ ملابسا لها فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة»[2]، فعلى أيّ أساس يفسر الشيء الحيّ في هذا الموضع بالحيوان؟ خاصة وأنّ سياق الآية لم يذكر فيه خلق شيء من ذوات الأرواح من الكائنات الحيّة عموما، فالآيات التي جاءت بعدها تعرض ما فعله الله بالسّماوات والأرض بعد الفتق، أيّ تسويتهما، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3].

إذن ما دلالة "كلّ شيء" في الآية ثلاثين من سورة الأنبياء؟ هل يمكن أن يدخل ضمن هذا الكل السّماوات والأرض؟ خاصة وأنّ دلالة (كلّ شيء) متعلقة بدلالة "حيّ" ولا تقف هذه الكلمة عند ذوات الأرواح من الكائنات، بل يُعبر بها عن كلّ موجود «فما موجود إلاّ وهو حيّ، لأنّ وجوده عين حياته»[4]، وتختلف قيمة الحياة في الأشياء لذلك جعلت للعناصر في الوجود مراتب، وقد يقول قائل إنّ هذا المعنى فلسفي، أقول "حيّ" تطلق في اللغة على الطريق البيّن[5]، أفلا يمكن أن يكون لمعنى البينونة

[1]- سورة فصلت / 09-10.
[2]- التحرير والتنوير، ج17/65.
[3]- سورة الأنبياء / 31-32-33.
[4]- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1/724.
[5]_ تاج العروس، مادة (ح ي ي).

– الظهـور– الـذي تتضـمنه كلمـة حـيّ علاقـة بـين المـاء والسّـماوات والأرض وإظهارهـا كعـالم مجسـد للوجود؟

3-2- دلالة التركيب على خلق السّماوات والأرض:

عـبّر المـولى عـزّ وجـلّ عـن صـفة ابتـداء الخلـق بعبـارة: (إنّ السّـماوات والأرض كانتـا رتقـا ففتقناهمـا...). و لقد وضحنا في الدلالة الصرفية كيف أنّه جاء بالمصدر للتعبير عن حالة اللاوجود، والمناسبة بين هذه الحالة وبين الخاصية اللغوية للمصدر من حيث إنه يعبّر عن حدث مجرد من الزمن، والتعبير بالفعل –ففتقناهما– عن فعل الخلق ودلالة زمنه على انقضائه وعدم استمراريته، كما استفدنا من عدم تكرار هذا الفعل في القرآن أنّه خاص بالكيفية الأولى للخلق، والتي لم تتكرر، وهذا يدل على أنّها كيفية مخصوصة ليس لها معادل كوني، لذلك لا يمكن لأيّ مرادف يوضع مكانها أن يحقق المعنى المقصود.

أمّا بالنسبة للسّماوات والأرض فإنّ الخاصية التركيبية التي ميزت استعمالهما في القرآن الكريم التقديم والتأخير، الذي يقول فيه فاضل السامرائي وفي علاقته بالقرآن الكريم: «إنّ فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرّفه أهل البصر بالتعبير، والذين أوتوا حظا من معرفة مواقع الكلم، وليس ادعاءً يدعى أو كلمة تقال، وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن كما في غيره الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب، ولم يكتف القرآن الكريم بوضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه، بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة، ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كلّه، فنرى التعبير متّسقا متناسقا مع غيره من التعبيرات كأنّه لوحة فنية مكتملة متكاملة»[1]، لذلك نجد القرآن يقدم السّماوات على الأرض في الكثير من المواضع، ويقدّم الأرض على السّماء في البعض منها، وهو من تقديم الألفاظ على بعضها في غير العامل، وهذه الظاهرة الأسلوبية البلاغية لها عدة أبعاد دلالية، اختلف الدارسون في تعليلها، غير أنّ الأمر الذي يتنافى مع طبيعة النظم –خاصة في القرآن الكريم– القول بتقديم الألفاظ على بعضها لمجرد العناية والاهتمام[2].

[1]- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل/ 479.

[2]- معاني النحو، ج 189/3.

ويعلق السامرائي على ذلك بقوله: «فإذا قيل لك مثلا: لماذا قدّم السماء على الأرض هنا؟ قلت: لأنّ الاهتمام بالسّماء أكبر، ثم إذا قيل لك: ولماذا قدم الأرض على السّماء في هذه الآية، قلت: لأنّ الاهتمام بالأرض هنا أكبر، وإذا قيل: ولماذا كان الاهتمام بالسّماء هناك أكبر؟ وكان الاهتمام بالأرض هنا أكبر؟ وجب عليك أن تبيّن سبب ذلك، وبيان الاختلاف بين الموطنين بحيث تبيّن أنّه لا يصح أو لا يحسن تقديم الأرض على السّماء فيما قدمت فيه بقية المواطن الأخرى، أمّا أن تكتفي بعبارة أنّ هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتمام بها، فهذا وجه من وجوه الإبهام»[1]، فلا بدّ أن يكون للعناية والاهتمام أسباب تدفع إلى تقديم اللفظ عن الآخر في مواضع، وتأخيره في مواضع أخرى، وقد وضّح ذلك ابن القيم في كتابه البدائع والفوائد من خلال آيتين من المتشابه في القرآن الكريم كان الاختلاف بينهما في ترتيب السّماء والأرض؛ الأولى: الآية الواحدة والسّتون من سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾[2]، والثانية: الآية الثالثة من سورة سبأ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾[3].

يقول ابن القيّم: «كيف قدَّم السّماوات هنا [في سورة سبأ] لأنّ السّاعة إنّما تأتي من قبلها وهي غيب فيها ومن جهتها تبتدئ وتنشأ ولهذا قدّم ضعف أهل السّماوات على أهل الأرض عندها، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ﴾[4]، وأمّا تقديم الأرض على السّماء في سورة يونس فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنّه لا يغيب عنه منها شيء اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السّماء، فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنّه كلام الله

[1]- المرجع السابق/ 479.
[2]- سورة يونس، الآية/61.
[3] سورة سبأ، الآية/03.
[4]- سورة الزمر، الآية/ 68 .

تعالى، وأنّ مخلوقا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الحكم»[1]، ويقول صاحب الكشاف في تقديم الأرض على السّماء في سورة يونس: «فإن قلت لم قدّم الأرض على السّماء بخلاف قوله في سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؟ قلت: حقّ السّماء أن تقدم على الأرض، ولكنّه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل ذلك بقول: (لا يعزب منه) لاءم ذلك أن قدم الأرض على السّماء»[2].

إنّ اختلاف الأوجه يكون بحسب السياق، وبالإضافة إلى ما سبق كون الحديث عن الساعة وقيامها من جهة السّماء سبب في تقديم السّماء على الأرض في سورة يونس، ذِكر الغيب هذا المعنى الشامل لما يبقى علمه عند العالم بأحوال الدنيا والآخرة، ومن العوالم التي تبقى غيب بالنسبة لنا السّماوات السبع، فلم يطلعنا المولى عزّ وجلّ إلاّ عن بعض أحوال السّماء الدنيا، لذلك ناسب تقديم السّماوات في الترتيب وصف ذاته العليا بأنّه عالم الغيب.

أمّا المواضع القليلة التي قدّم فيها الأرض على السّماء فكان عند التعرض لأحوال أهل الأرض وما تعلق بأفعالهم، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[3].

وفيما يخص تقديم السّماوات على الأرض في باقي المواضع فله أسباب منها ما يراه ابن القيّم في أنّ: «تقديم السّماء على الأرض ففيه معنى وهو أنّ السّماوات والأرض تذكر غالبا في سياق آيات الربّ الدالة على وحدانيته وربوبيته، ومعلوم أنّ الآيات في السّماوات أعظم منها في الأرض لسعتها وعِظمها، وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها، وبروجها وعلومها واستغنائها عن عمد تقلّها، أو علاقة ترفعها إلى غير ذلك من عجائبها وما فيها كقطرة في سعتها وبهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر فيها البصر كرّة بعد كرة، ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض وفي كلّ

1- بدائع الفوائد، ج 74/1.

2- الكشاف، ج 355/2.

3- سورة إبراهيم، الآية/38.

شيء له آية سبحانه وبحمده»[1]، إنّ جلال الربوبية وعظمة الخالق يستدعي استحضار المشهد الكوني كاملا، وحين يكون الكلام متعلقا بصاحب هذا الملك، فالأنسب أن يقدم في الترتيب ما هو أقرب من مقام الله عزّ وجلّ، ومقامه عرشه، وعرشه يعلو السّماوات السبع؛ فذكرُ السّماوات أولا أكثر تأثيرا في النّفس، لأنّه تنبيه إلى سعة ملكه وعلمه، وإحاطته بكلّ شيء، وسبحان من وسع كرسيه السّماوات والأرض.

والأرض في النهاية ما هي إلاّ جزء متناه في الضآلة بالنسبة لعالم السّماوات وما فيهن، وهو ما يراه الرازي حيث يقول: « لِمَ قَدَّمَ ذِكْرَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ، مَعَ أَنَّ ظَاهِرَ التَّنْزِيلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ خَلْقَ الْأَرْضِ مُقَدَّمٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاءِ؟ وَالْجَوَابُ: السَّمَاءُ كَالدَّائِرَةِ، وَالْأَرْضُ كَالْمَرْكَزِ، وَحُصُولُ الدَّائِرَةِ يُوجِبُ تَعَيُّنَ الْمَرْكَزِ وَلَا يَنْعَكِسُ، فَإِنَّ حُصُولَ الْمَرْكَزِ لَا يُوجِبُ تَعَيُّنَ الدَّائِرَةِ لِإِمْكَانِ أَنْ يُحِيطَ بِالْمَرْكَزِ الْوَاحِدِ دَوَائِرُ لَا نِهَايَةَ لَهَا، فَلَمَّا كَانَتِ السَّمَاءُ مُتَقَدِّمَةً عَلَى الْأَرْضِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَجَبَ تَقْدِيمُ ذِكْرِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ»[2].

إنّ هذا التعليل الفلكي والفلسفي الذي يعطيه الرازي لهذه الظاهرة يعتمد على الصورة المادية لهذين الجرمين –السّماء والأرض– لكنه خارج عن السياقات التي جاءت فيها السّماوات مقدمة على الأرض، لذلك يشير استفهامه –على حد تعبيره– إلى تعارض هذا الاستعمال مع دلالة ظاهر التنزيل على تقديم خلق الأرض على خلق السماء استنادا إلى ما جاء في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[3].

بينما يرى الطبري[4] في تقديم السّماوات والأرض، دليلا على أن خلق السّماء كان سابقا لخلق الأرض،وهذا الاختلاف مردّه الابتعاد عن السياق العام لهذا الاستعمال. أمّا فيما يتعلق بخلق السماوات والأرض فقد أثار التقديم والتأخير في التعبير القرآني ككل إشكالية: أيهما مقدّم في الخلق؟ لأنّه قدم ذكر

---

[1]- بدائع الفوائد، ج 74/1.
[2]- مفاتيح الغيب، ج477/12.
[3]- سورة البقرة، الآية/29.
[4]- مجمع البيان/ 07-08.

خلـق الأرض علـى خلـق السّـماوات في بعـض المواضـع، كقولـه تعـالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝﴾[1]، وقولـه في الآيـات المفصـلة للخلـق: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝﴾[2].

بينما يقدّم خلق السّماء على الأرض في سورة النازعات:﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝﴾[3]، يقابل وصف الخلق في سورة النازعات وصفه في سورة فصلت مما يوحي بالتناقض وحاشى لله أن يكون في كلامه تناقضا، والسّر في هذا الاستعمال كامن عند المولى عزّ وجلّ، ولقد حاول المفسرون إيجاد تخريجات لهذا الاستعمال، يقول صاحب كتاب التأويل في معاني التنزيل: «فإن قلت هذه الآية [التاسعة من سورة فصلت] مشعرة أنّ خلق الأرض كان قبل خلق السّماء، وقوله: والأرض بعد ذلك "دحاها تشعر" بأن خلق الأرض بعد خلق السّماء، فكيف الجمع بينهما؟ قلت: الجواب المشهور أنّه تعالى خلق الأرض أولا ثم خلق السّماء بعدها ثم بعد خلق السّماء دحا الأرض ومدّها، وجواب آخر وهو: أن يقال: إنّ خلق السّماء مقدم على خلق الأرض فعلى هذا أن يكون معنى الآية خلق الأرض في يومين، وليس الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين فقط، بل هو عبارة عن التقدير أيضا، فيكون المعنى قضى أن يحدث الأرض في يومين بعد إحداث السّماء، فعلى هذا يزول الإشكال والله أعلم بالحقيقة»[4]، وهذا الرأي المختار عند أبي حيان الأندلسي (**ت745هـ**) يقول: « خلق السموات مُقَدَّمٌ عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ، بَقِيَ أَنْ يُقَالَ كَيْفَ

[1]- سورة طه، الآية/04.

[2]- سورة فصلت، الآيات/ 09-10-11.

[3]- سورة النازعات / 27 - 33.

[4]- لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 83/04.

تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ؟ فَنَقُولُ: الْخَلْقُ لَيْسَ عبارة عن التكوين والإيجاد، والدليل عليه قَوْلِهِ: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 59] فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين لكان تقدير الآية أوجده مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وهذا محال، لأنه يلزم أنه تعالى قد قال للشيء الذي وجد كن ثم إنه يكون وهذا محال، فثبت أن الْخَلْقُ لَيْسَ عِبَارَةً عَنِ التَّكْوِينِ وَالْإِيجَادِ، بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّقْدِيرِ، وَالتَّقْدِيرُ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ حُكْمُهُ بِأَنَّهُ سَيُوجِدُهُ وَقَضَاؤُهُ بِذَلِكَ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ قَوْلُهُ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ قَضَى بِحُدُوثِهِ فِي يَوْمَيْنِ، وَقَضَاءُ اللَّهِ بِأَنَّهُ سَيُحْدِثُ كَذَا فِي مُدَّةِ كَذَا، لَا يَقْتَضِي حُدُوثَ ذَلِكَ/ الشَّيْءِ فِي الْحَالِ، فَقَضَاءُ اللَّهِ تَعَالَى بِحُدُوثِ الْأَرْضِ فِي يَوْمَيْنِ قَدْ تَقَدَّمَ عَلَى إِحْدَاثِ السَّمَاءِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ تَقَدُّمُ إِحْدَاثِ الْأَرْضِ عَلَى إِحْدَاثِ السَّمَاءِ »[1].

إنّ تفسير خلق الأرض بالتقدير في سورة فصلت لا يستند إلى قرينة لغوية في تركيب الآيات من الآية التاسعة إلى الآية الثانية عشرة؛ بل استخدم للربط بين حديثه عن خلق الأرض وخلق السّماء، "ثم والفاء" في الآية الثانية عشر، والحرفان "ثم والفاء" يفيدان الترتيب؛ الأولى مع التراخي والثانية مع التعقيب، فلما لم يستخدم الواو إذا أراد بالخلق التقدير خاصة وأن الواو تفيد العطف دون الترتيب؟ فهي لمطلق الجمع[2]، فهي«تأتي للترتيب وتأتي لغيره، فقد يصح أن يكون المعطوف بعد المعطوف عليه، كما يصح أن يكون قبله أو مصاحبا له»[3]، وبذلك يصح تفسير خلق الأرض بالتقدير دون الإيجاد ممكنا.

أمّا بالنسبة لما يستنتج من قوله تعالى في سورة النازعات: (والأرض بعد ذلك دحاها) أنّ خلق السّماء مقدم على خلق الأرض، فلاحظ أنه استخدم الواو، وعبّر عما فعل بالأرض بلفظ الدحو، وتفسير الآية، الآيات التي بعدها؛ وأفعالها: (أخرج، أرسى)، وكلاهما يدلان على أنّها كانت مخلوقة، والدحو لا يعني الخلق، بل التمهيد والبسط[4]، لذلك لا يمكن أن تكون هذه الآيات من سورة النازعات دليلا على أنّ السّماء مخلوقة قبل الأرض، وهذا التغيير في التعبير مردّه إلى السياق، يقول الألوسي (ت **1270هـ**): «بقي هاهنا بيان النكتة في تغيير الأسلوب حيث قدم في الظاهر هاهنا (فصلت) وفي «حم» السجدة خلق الأرض وما فيها على خلق السّماوات وعكس في النازعات، ولعلّ ذلك لأنّ المقام في

---

[1]- البحر المحيط، ج 291/09.

[2]- معاني النحو، ج 187/03، ينظر: كتاب سيبويه، ج 218/01.

[3]- معاني النحو، ج 188/03.

[4]- مقاييس اللغة، مادة (دحو).

الأولين مقام الامتنان فمقتضاه تقديم ما هو نعمة نظرا إلى المخاطبين فكأنه قال سبحانه وتعالى: هو الذي دبر أمركم قبل خلق السّماء ثم خلق السّماء، والمقام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة فمقتضاه تقديم ما هو أدل على كمالها»[1].

إذا كان السياق يقتضي تغيير الأسلوب كتقديم معنى عن آخر؛ فما الغاية من تغيير الروابط اللغوية (الحروف)؟ والقرآن كما صرّح بدلالة استخدام فعل واحد بنفس الصيغة على أنهما مخلوقان في نفس اللحظة، فلا بدّ من مراعاة الاختلاف في استعمال هذه الروابط بين الموضع والموضع الآخر، خاصة إذا كانت الآيات تصور المشهد الكوني، لأنّ القرآن يراعي الصورة الذهنية لهذه الظواهر عند الإنسان، خاصة وأنّ الغرض من عرض هذه الدلائل بيان قدرة المولى عزّ وجلّ وهداية النّاس، وبالتالي لا يمكن للنص القرآني أن يترك شائبة على هذه الصورة التي تنقل ما كان غير مشهود إلى مجال المعلوم بطريقة تتناسب مع طبيعة القرآن باعتباره كتاب دعوة وهداية، فهو «يجادل خصومه، لإقناعهم والتأثير فيهم، وليس هدفه نقل المعرفة العقلية المجردة، ومجادلة الخصوم بها، فهو يخاطب الإنسان لإقناعه بالحقائق الدينية، والتأثير فيه، لكي يستجيب للتوحيد، ويؤمن بالله، والصورة الكونية المعروضة في القرآن حافلة بالأدلة العقلية لمن تأملها وتفكّر فيها، وهي قد عرضت بهذه الكثرة لتحقيق هذا الغرض في إيقاظ العقل على ما في هذا الكون من تناسق وإحكام»[2]، وبما أن آلية التشكيل الأساسية لهذه الصورة هي اللغة؛ فلا بدّ أن يكون لكلّ عنصر منها قيمة دلالية تساهم في إيضاح المعنى على مستوى الآية الواحدة، وفي إدراك المفهوم على مستوى وحدة موضوعية معينة.

ومن خلال التحليل اللغوي للتعبير القرآني في آيات خلق السّماوات والأرض نخلص إلى ما يأتي:

أولا: على مستوى الكلمة الواحدة أو اللفظ: تشترك دلالة جذرها الثلاثي وبناؤها في تشكيل صورة معنوية مطابقة للصورة الحسية للظاهرة الكونية.

ثانيا: على مستوى التركيب: يكشف التركيب في التعبير القرآني عن مراحل تشكل هذه الظواهر وكيفية ذلك، ويعتمد القرآن على الأسلوب الإخباري بالنسبة للمراحل التي لم يشهدها الإنسان، وبهذا الأسلوب يدعونا القرآن إلى التسليم بهذه الحقائق، والأخذ بها كمسلمات كونية، يجب الانطلاق منها في

[1]- روح المعاني، 219/01، ينظر: المرجع نفسه، 235/15.

[2]- وظيفة الصورة الفنية في القرآن/403.

عملية تفعيل العقل البشري، أمّا عمليات التخليق فيعبر عنها غالبا بالاستفهام الإنكاري قصد إقرار البشر بحقيقة هذه الظواهر، وحتى يكون إقرارهم حجة على أنفسهم.

تدبر الخطاب القرآني إذًا يساهم في إحياء وتجديد الرؤية الإنسانية نحو الظواهر الكونية خدمة للعقيدة. وتبقى السّماوات والأرض من الآيات الآفاقية التي يشكل بديع وجودها مع ما يطرحه التعبير القرآني من إشكالات حول طبيعة هذا الوجود وكيفياته سببا في وجوب استمرارية تأمّل الكون، وتدبر القرآن الكريم، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذا الكون مسخر للإنسان، هذا المخلوق الذي يشكل وجوده إلى جانب الله ثنائية (الخالق والمخلوق)؛ فكيف يكشف التعبير القرآني عن أسرار الإنسان؟

الفصل الثالث:

دلائل آيات الأنفس في القرآن الكريم

توطئة:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

جعل سبحانه وتعالى الإنسان محور الكون، وموضوع القرآن، فعرض المولى عزّ وجلّ دلائله الكونيّة، حتى تكون سبيلا لهدايته، وعرض إلى خلق الإنسان ابتداءً وتكوينا، وكلّ ما تعلق بفطرته، وعقله ونفسه، حتى يكون له نظر في وجوده، وكلّ متعلقات هذا الوجود. من وجهة قرآنية، هي الحقّة باعتبارها وجهة الفاعل في هذا الوجود، وجعل كتابه دستورا يحتكم إليه الإنسان إذا أراد تحقيق الغاية من وجوده، قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2].

كما كان لله منهج محكم في بناء هذا الكون، كان له ذات المنهج في خلق الإنسان، وذات المنهج في عرض ذلك كله في القرآن، بأسلوب دقيق وتعابير متنوعة تتقارب في الملمح العام لكنّها تتفرد بدلالة يحددها في النّص السّياق، وتتجلى أبعادها في واقع الإنسان، ولا يمكن الكشف عن الرؤية القرآنية للإنسان إلاّ من خلال معرفة دلالة هذه التعابير.

---

[1]- الجاثية، الآية/12-13.

[2]- المائدة، الآية/48.

1- مسميات الإنسان في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾[1].

وقال أيضا: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣﴾[3].

وقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيّٗا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧﴾[4].

وقال أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[5].

إنّ هذه بعض الآيات التي ذُكِرَ فيها الإنسان بمفردات مختلفة، فبين آدم والإنسان والبّشر فوارق متباينة، كما بين الإنس والإنسية والبّشر فوارق دقيقة، تظهر من خلال الدلالة المعجمية لهذه الألفاظ، واستعمال القرآن لها في سياقات مختلفة، فما الفرق بين آدم والبشر والإنس والإنسان والناس في القرآن الكريم؟

---

[1]- الأعراف، الآية/26.

[2]- مريم، الآية/26.

[3]- المؤمنون، الآية/33.

[4]- مريم/66-67.

[5]- النساء، الآية/01.

1-1- آدم:

جاء في مقاييس اللغة أنّ: «الهمزة والدال والميم أصل واحد، وهو المعرفة والملاءمة، والأدمة الوسيلة إلى الشيء، وذلك أن المخالف لا يُتَوَسَّلُ به، فإن قال قائل: فعلى أي شيء تحملُ الأدمة وهي باطن الجلد؟ قيل له: الأدمة أحسَنُ، ملاءمة للحم من البشرة ولذلك سُمِّيَ آدم عليه السلام، لأنه أُخَذَ من أدمة الأرض، ويقال: هي الطبقة الرابعة»[1].

لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يعمّر هذه الأرض بالإنسان كان منهجه قائما على التناسق والانسجام بين عناصر هذا الكون، فاختار أن يكون الإنسان الأول من أديمها، فكان آدم أبا البشر، يقول الراغب الأصفهاني في تسمية آدم: «قيل: سمي بذلك لكون جسده من أديم الأرض، وقيل: السمرة في لونه، يقال: رجل آدم نحو أسمر، وقيل: سمي بذلك لكونه من عناصر مختلفة، وقوى متفرقة كما قال تعالى: ﴿**مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ**﴾[2]، ويقال: جعلت فلانا أدمة أهلي، أي خلطته بهم، وقيل سمي بذلك لما طيّب به من الروح المنفوخ فيه، المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى**﴾[3]، وجعل له العقل والفهم والرّوية التي فضّل بها على غيره كما قال تعالى: ﴿**وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾[4]، وذلك من قولهم الإدام، وهو ما يطيب به الطعام...»[5]، وجاء في لسان العرب: «آدم: الأدمة: القرابة والوسيلة إلى الشيء، يقال: فلان أدمتي إليك أي وسيلتي، ويقال: بينهما أدمة ومُلحة أي خلطة، وقيل: الأدمة الخلطة، وقيل: الموافقة، والأدْم: الألفة والاتفاق، وأَدَم الله بينهم يأدِمُ أُدْمًا، ويقال: آدم بينهما يؤدم إيداما، فعل، وأفعل بمعنًى،وأَدَمَ: لأَم وأصْلَحَ وألَّف ووفَّق وأذلك آدم يؤدم، بالمدّ، وكل موافق إدامٌ.. وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنّه قال للمغيرة بن شعبة، وقد خطب امرأة:

---

[1]- مقاييس اللغة، مادة(أدم).

[2]- الإنسان، الآية02.

[3]- الحجر، الآية29.

[4]- الإسراء، الآية70.

5- المفردات في غريب القرآن ، ج01 /70.

«اذهب فانظر إليها، فإنه أجدر أن يؤدَمَ بينكما»[1]، قال الكسائي: يؤدم بينكما يعني أن تكون بينهما المحبة والاتفاق...»[2].

من خلال ما جاء في الأقوال السابقة: حول دلالة الجذر اللغوي لكلمة (آدم) من دلالته على الموافقة والألفة كلها معان تدل على الحكمة الإلهية في خلق الإنسان الأول ابتداءً من تراب وذريته بالتناسل الذي يكون باختلاط الجنسين الذكر والأنثى، وبالخلقين تنوعت أجناس الإنسان وألوانه وطباعه وفطر على المعاني السّابقة؛ الألفة، المحبة، الاتفاق، فكانت سرّ قدرته على التعايش.

أمّا فيما يخص إطلاق هذا الاسم على أوّل مخلوق، وأوّل الأنبياء، فجاء عنه في الكشاف أنّ «اشتقاقهم (آدم) من الأدمة، ومن أديم الأرض، نحو اشتقاقهم (يعقوب) من (العقب)، و(إدريس) من (الدرس) و(إبليس) من (الإبلاس)، وما آدم إلاّ اسم أعجمي وأقرب أمره أن يكون على الفاعل، كآزر، وعازر، وعابد... وأشباه ذلك (الأسماء كلها) أي أسماء المسميات»[3].

وقال جلال الدين السيوطي: «(آدم) أبو البشر، ذكر أنه أفعل مشتق من الأدمة، لذا منع صرفه، قال أبو الجواليقي*: أسماء الأنبياء كلها أعجميةإلا أربعة: آدم وصالح وشعيب، ومحمد.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي الضحى عن ابن عباس، قال: إنّما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض.

وقال الثعلبي:التراب بالعبرانية: آدام، فسمي آدم به»[4].

وجاء في التحرير والتنوير: « وَآدَمُ اسْمُ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ أَبِي الْبَشَرِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَقِيلَ مَنْقُولٌ مِنَ الْعِبْرَانِيَّةِ لِأَنَّ أَدَامَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ بِمَعْنَى الْأَرْضَ وَهُوَ قَرِيبٌ لِأَنَّ التَّوْرَاةَ تَكَلَّمَتْ عَلَى خَلْقِ آدَمَ وَأَطَالَتْ فِي أَحْوَالِهِ فَلَا

[1]- مسند الإمام أحمد بن حنبل،66/30، ينظر: سنن ابن ماجه، 599/01

[2]- لسان العرب، مادة (أ د م).

[3]- الكشاف، ج125/01.

*الجواليقي: هو عبد الله بن أحمد بن موسى بن زياد، الحافظ، الحجة، العلامة، أبو محمد الأهواربي عبدان الجواليقي، سير أعلام النبلاء، ج 104/11.

[4]- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ج 03/02.

يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ اسْمُ أَبِي الْبَشَرِ قَدِ اشْتُهِرَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنَ الْيَهُود وَسَمَاع حكاياتهم، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الِاسْمُ عُرِفَ عِنْدَ الْعَرَبِ وَالْعِبْرَانِيِّينَ مَعًا مِنْ أَصْلِ اللُّغَاتِ السَّامِيَةِ فَاتَّفَقَتْ عَلَيْهِ فُرُوعُهَا.»[1].

يبدو من خلال الأقوال السّابقة أنّ هناك اختلافا في أصل كلمة آدم بين كونها أعجمية أو عربية، والرأي الوسط هو ما جاء به الطاهر بن عاشور من كون هذا الاسم معروف في اللغتين العربية والعبرانية من أصل اللغات السّامية.

والذي يؤكد أنّها من العربية –ولا يمنع أنّها أيضا من العبرانية– اتفاق دلالتها مع طبيعة هذا المخلوق في تكوينه الجسدي والنفسي بما في ذلك دلالته على السّمرة؛ هذا اللون الذي على اختلاف نسبته في الخلايا الجلدية يتحدد لون البشرة، فآدم هو المعادل اللفظي للإنسان الأول؛ لأنه يدل على أصل خلقته طبعا وطابعا، كما أن جمع آدم بين صيغتي: أَفْعَلُ، وفاعل في بنيته الإفرادية، يزيد من القيمة الدلالية للمفردة، من حيث دلالة الصيغة الأولى على التصيير والصيرورة، وهو يتوافق مع كيفية خلق آدم ابتداءً، والتي كانت بتحويل التّراب من حالة إلى حالة إلى أن خُلق على الهيئة التي أرادها الله له.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾[2]، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾[3].

أمّا دلالته على الفاعل فتتمثل في أنّه مخلوق مكلّف بالعبادة والتعمير، ويتضمنها في التعبير القرآني كلمة (خليفة) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا

[1]- التحرير والتنوير، ج 408/10.
[2]- سورة ص، الآية /71 .
[3]- سورة الحجر / 28-30.

تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾[1]، إذن كلمة آدم ذات وجهين فهي تدل بصيغتها على فعل الخالق، وفاعلية هذا المخلوق.

ولقد ذكر آدم في القرآن عشرين مرة معظمها في سياق سرد قصة آدم عليه السلام، الذي كرّمه الله وكرّم ذريته، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾**﴾[2].

1-2- بَشَرٌ:

يقول أحمد بن فارس في دلالة (بَشَرَ): « الْبَاءُ وَالشِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ: ظُهُورُ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وَجَمَالٍ. فَالْبَشَرَةُ ظَاهِرُ جِلْدِ الْإِنْسَانِ، وَمِنْهُ بَاشَرَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ، وَذَلِكَ إِفْضَاؤُهُ بِبَشَرَتِهِ إِلَى بَشَرَتِهَا. وَسُمِّيَ الْبَشَرُ بَشَرًا لِظُهُورِهِمْ. وَالْبَشِيرُ الْحَسَنُ الْوَجْهِ. وَالْبَشَارَةُ، الْجَمَالُ. قَالَ الْأَعْشَى:

وَرَأَتْ بِأَنَّ الشَّيْبَ جَانَبَهُ الْبَشَاشَةُ وَالْبَشَارَهْ، وَيُقَالُ: بَشَّرْتُ فُلَانًا أُبَشِّرُهُ تَبْشِيرًا، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْخَيْرِ، وَرُبَّمَا حُمِلَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنَ الشَّرِّ، وَأَظُنُّ ذَلِكَ جِنْسًا مِنَ التَّبْكِيتِ. فَأَمَّا إِذَا أُطْلِقَ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا فَالْبِشَارَةُ بِالْخَيْرِ وَالنِّذَارَةُ بِغَيْرِهِ يُقَالُ: أَبْشَرَتِ الْأَرْضُ: إِذَا أَخْرَجَتْ نَبَاتَهَا. وَيُقَالُ: مَا أَحْسَنَ بَشَرَةَ الْأَرْضِ. وَيُقَالُ: بَشَرْتُ الْأَدِيمَ: إِذَا قَشَرْتَ وَجْهَهُ. وَفُلَانٌ مُؤْدَمٌ مُبْشَرٌ: إِذَا كَانَ كَامِلًا مِنَ الرِّجَالِ، كَأَنَّهُ جَمَعَ لِينَ الْأَدَمَةِ وَخُشُونَةَ الْبَشَرَةِ»[3].

وجاء في المفردات «بشر، البشرة: ظاهر الجلد، والأدمة باطنه، كذا قال عامة الأدباء وجمعها بَشَرُ وأبشارُ، وعبّر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع، وثنى فقال: أنؤمن لبشرين، وفلان مُؤدم مبشر، أصله من قولهم: أبشره الله وآدمه، أي جعل له بشرة وأدمة محمودة، ثم عبّر بذلك عن العامل الذي يجمع بين الفضيلتين الظاهرة والباطنة وقيل معناه: جمع بين الأدمة وخشونة البشرة»[4].

---

[1]- البقرة، الآية/30.

[2]- الإسراء الآية/70.

[3]- مقاييس اللغة، ماذة(بشر).

[4]- المفردات في غريب القرآن، ج01 /124.

من خلال المعنى المعجمي لهذا اللفظ، فإنه يدل على ظهور الشخص في الهيئة الحسنة أي الهيئة المتناسقة في تركيبها، والواضح والمألوف لونها على خلاف ما يظهر عليه باقي المخلوقات من الحيوانات فهي تدل على الصورة التي خُلِقَ عليها الإنسان.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1]، ولقد خص في القرآن موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر نحو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾[2]، وقد ذكر الفيروز آبادي أن مفردة بَشَرٌ وردت في القرآن على اثني عشر وجها هي:

الأول: بمعنى أبينا آدم الصفيّ: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[3]، ﴿وَلَقَد خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[4].

الثاني: بمعنى شيخ المرسلين نوح: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[5].

الثالث: بمعنى يوسف الصديق: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[6].

---

[1]- غافر، الآية/64.

[2]- الفرقان، الآية/54.

[3]- سورة ص، الآية/71.

[4]- الحجر: الآية/28.

[5]- المؤمنون، الآية/24.

[6]- يوسف، الآية/31.

الرابع: بمعنى موسى وهارون: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

الخامس: بمعنى جبريل: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[2]، أي ملكا، ونبّه أنه تشبح لها بصورة بشر.

السادس: بمعنى ابن ما ثان: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾[3].

السابع: بمعنى شخص من الإسرائيليين: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ إِمَّآ أَحَدٗا ﴾[4].

الثامن: بمعنى الغلامين العجميين اللذين قال كفار مكة: إنّ محمدا صلى الله عليه وسلم يتعلم القرآن وأخبار الماضين منهما:

التاسع: بمعنى النبي صلى الله عليه وسل: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾[5].

العاشر: بمعنى جملة المرسلين: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾[6].

الحادي عشر: بمعنى جمع البشرة: ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾[7].

الثاني عشر: بمعنى جملة الآدميين: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴾[8].

من خلال دلالة هذه المفردة في لغة العرب، واستخدامها في القرآن الكريم فهي تطلق على الصورة الآدمية التي تميز الإنسان عن باقي المخلوقات من حيث مظهره العام ولون بشرته، كما أنّ صيغتها الصرفية(بَشَرٌ: فَعَل)، هي من الصيغ الثلاثية الدالة على الصفات[9].

---

[1]- المؤمنون، الآية/47.

[2]- مريم، الآية/17.

[3]- مريم، الآية/20.

[4]- مريم، الآية/26.

[5]- الكهف، الآية/110.

[6]- التغابن، الآية/06.

[7]- المدثر، الآية/29.

[8]- الروم، الآية/20.

[9]- أبنية الصرف في كتاب سيبويه/136.

فهي إذن بدلالة صيغها الإفرادية على الصفات، تتفق مع استعمال القرآن لها للتعبير عن صفة الإنسان المادية.

1-3- الإنسان:

إنسان من (أَنَسَ) وجاء في مقاييس اللغة :« (أَنَسَ) الْهَمْزَةُ وَالنُّونُ وَالسِّينُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ظُهُورُ الشَّيْءِ، وَكُلُّ شَيْءٍ خَالَفَ طَرِيقَةَ التَّوَحُّشِ. قَالُوا: الْإِنْسُ خِلَافُ الْجِنِّ، وَسُمُّوا لِظُهُورِهِمْ. يُقَالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إِذَا رَأَيْتُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا**﴾[1]، وَيُقَالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إِذَا سَمِعْتُهُ. وَهَذَا مُسْتَعَارٌ مِنَ الْأَوَّلِ. قَالَ الْحَارِثُ:

آنَسَتْ نَبْأَةً وَأَفْزَعَهَا الْقُ ... نَّاصُ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ

وَالْأَنْسُ: أَنْسُ الْإِنْسَانِ بِالشَّيْءِ إِذَا لَمْ يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: كَيْفَ ابْنُ إِنْسِكَ؟ إِذَا سَأَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ. وَيُقَالُ: إِنْسَانٌ وَإِنْسَانَانِ وَأَنَاسِيُّ. وَإِنْسَانُ الْعَيْنِ: صَبِيُّهَا الَّذِي فِي السَّوَادِ»[2].

وقال الأصفهاني في معاني هذه المادة (أنس) وصيغها: «الإنس: خلاف الجن والأنس، خلاف النفور، والإنسي منسوب إلى الإنس يقال ذلك لمن كثر أنسه، ولكل ما يؤنس به، ولهذا قيل: إنسي الدابة للجانب الذي يلي الراكب، وإنسي القوس: للجانب الذي يقبل على الرامي والإنسي من كل شيء: ما يلي الإنسان، والوحشي: ما يلي الجانب الآخر له، وجمع الإنس أناسيُّ، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾[3]، وقيل ابن إنسك للنّفس، وقوله عز وجل: «**فإن آنستم منهم رشدا**» أي: أبصرتم أنساهم، وقوله: ﴿**حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ**﴾[4]، أي: تجدوا إيناسا، والإنسان قيل: سمي بذلك لأنّه خلق خلقة لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل: سمّي بذلك بأنس بكل ما يألفه، وقيل هو إفعلان وأصله: إنسيان ، سمي بذلك لأنه عهد الله إليه فنسي»[5].

---

[1]- النساء، الآية/06.

[2]- مقاييس اللغة، مادة (أنس).

[3]- الفرقان، الآية49.

[4]- النور، الآية27.

[5]- المفردات في غريب القرآن، 94/1.

إنّ الجذر اللغوي للفظة إنسان يجمع بين دلالتين؛ الألفة والنّفس، وقد استخدمت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة ودلت على المعاني السابقة –الظهور– في قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾[1]، ومن هذا المعنى كان الإنس نقيض الجن، من حيث إنّ الإنسان مخلوق مرئي، والجن مخلوق غير مرئي، وهذا يجعل النّفس تستوحشه فجعل الإنس نقيضا للجن من هذين البابين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾[2].

أمّا دلالته على النّفس فكلّ موضع في القرآن يتحدث عن أمر يتعلق بالنّفس البشرية وطباعها، عبّر عنه بلفظ الإنسان، ثم أُتّبع بالحديث عن الصفة المعنوية، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾[3]، واليأس والقنوط من أحوال النّفس .

وفيما يتعلق بصيغة هذا الاسم –الإنسان–، أشار الأصفهاني في القول السّابق إلى أنّه مشتق على وزن فعلان وأصله إنسيان سميّ بذلك لأنّه عهد الله إليه فنسي[4]. وقد استبعد هذا السبب ابن سيدة في كتابه المخصص بعد أن فصّل في شرح وقوع صيغة الإنسان على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وأنه من الأسماء الذي أصل بدايته أن يكون للواحد ثم يقترن بما يدل على الكثرة، تحدث عن اشتقاق لفظ إنسان، حيث قال: «إنسان عندي مشتق من أنس وذلك أنّ أنس الأرض وتجملها وبهاءها إنّما هو بهذا النّوع الشريف اللطيف المعتمد لها، والمعني بها فوزنه على هذا فعلان.

وقد ذهب بعضهم إلى أنه إفعلان من نسي لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾[5]، ولو كان كذلك لكان إنسيانا ولم تحذف الياء منه لأنه ليس هناك ما يسقطها»[6].

---

[1]– طه، الآية /10 .

[2]– الجن، الآية /06.

[3]– فصلت، الآية /49 .

[4]– المفردات في غريب القرآن، ج 94/01.

[5]– طه، الآية/115.

[6]_ المخصص، ج 43/01.

لقد حدّد ابن سيدة صيغة إنسان بـ: فِعْلاَنُ وهي الصيغة الدالة على بنية الكلمة، وهي من الصيغ التي تأتي مصدرا وعلَما، وصفة[1]، وهي في الإنسان جمعت بين العلم واسم الجنس، ولقد اتفق جمهور المفسرين على أنّ الإنسان اسم جنس[2].

أمّا فيما يخص صيغة إنسان من نسي فنَّدها ابن سيدة بعد وجود ما يسقط الياء من إنسيان لو كانت الأصل في إنسان، يقول: «لا يمكن أن تكون إنسانا مأخوذة في الأصل من إنسيان لماذا؟ لأنّ الثانية مأخوذة من نسي وهذه الأخيرة لا يتفق معناها الأصلي مع المعنى الأصلي لكلمة أَنَسَ»[3]، فنسي كما جاء في مقاييس اللغة: «النون والسين والياء أصلان صحيحان يدل أحدهما على إغفال الشيء، والثاني على ترك الشيء. فالأول نسيت الشيء إذا لم تذكر نسيانا، وممكن أن يكون النسي منه، والنسي ما سقط من منازل المرتحلين، من رُذال أمتعتهم، فيقولون: تتبعوا أنساءكم، قال الشنفرى:

كأنّ لها الأرض نِسيًا تقصُّه على أمِّها وإن تكلِّمْك تَبْلَتِ

وعلى ذلك يُفَسر قوله تعالى: ﴿**نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ**﴾[4]، وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا** ﴿١١٥﴾﴾»[5]، إذن فأين معنى التّرك والإغفال وعدم التّذكّر من معاني ظهور الشّيء ونقيض الوحشة أو الألفة.

ومن ثم يمكن القول: إنّ المفردة القرآنية لا تخرج دلالتها الأصلية عن دلالتها الفرعية؛ ومن منطلق أنّ الإنسان ذكر في القرآن اسم جنس آدم البشري، ومن منطلق العناية الشاملة للقرآن بهذا المخلوق، فلا بدّ أن يكون شبيها بالأصل في هذه التسمية، و أن يكون كلّ نوع من أنواع الدلالة الأصلية فيها يشير إلى وجه أو جانب من جوانب هذا المخلوق، والإنسان أليف بطبعه، والألفة أحد معاني الآدمية، كما أنّها نقيض التوحش، وهذا من معاني الإنسية، كما أنّه مخلوق مرئي ظاهر حتى للمخلوقات اللامرئية،

---

[1]- صيغة فعلان واستعمالاتها في اللغة العربية /108.

[2]- البحر المحيط، ج 481/10.

3- المخصص، ج 43/01.

[4]- التوبة، الآية/67.

5- مقاييس اللغة ، مادة (نَسِيَ).

وبشريته تكمن في هذا الجانب فهو مخلوق مشّخص متجلٍ متميز بمظهره العام عن باقي المخلوقات وهذا يستقيم مع معنى ظهور الشّيء في أنس، لكن أين هذه المعاني في لفظة نسي؟

إنّ المنهج الإلهي الذي اقتضى أن يكون الإنسان كونا مصغّرا حيّا ومحورا للكون الكبير، أيعقل أن يجعل من زلل هذا الإنسان –عهد إليه فنسي– سرًا في تسميته! «إنّ المفردة القرآنية دقيقة المعنى وحسنة الاختيار والتوظيف، وهي في تناسب عجيب مع غيرها، إذ لا مجال للنفور»[1]، وذلك ما يعكسه استخدام القرآن لكلمات متعددة للتعبير عن ذات الشيء، لكن هذا التعدد يحمل دلالة مفارقة لا تتناقض مع الدلالة الأصلية، بل تضيف إليها معنى اقتضاه السياق بلا شك؛ سياق قرآني يتناسب على اختلاف الأزمنة والأمكنة مع إحدى حيثيات الواقع، والسّياق القرآني هو الذي يساهم في تحديد الفوارق الدلالية للمفردات التي تعبّر عن ذات الشيء.

– الفرق بين الإنسان والإنس والنّاس من الناحية الصرفية:

الإنسان لفظ يدل بصيغته على الواحد والجمع، وعلى المذكر والمؤنث، بدليل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ** ۝٢﴾[2]، ثم قال: ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ**﴾[3]، وكذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا** ۝١٩﴾[4]، ثم قال: ﴿**إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** ۝٢٢﴾[5]، يقول ابن سيدة: «ففي استثناء الجماعة من هذا الاسم المفرد دلالة بيّنة على أنّ المراد العموم والكثرة، وفي وقوع المفرد موضع الجميع دلالة يعلم بها أنّ المراد الجمع»[6].

فالإنسان اسم جنس يدل بلفظه على العموم والخصوص، وعلى القلة والكثرة، فهو واحد من النّاس، باعتبار النّاس لعامة الجنس[7]، إنسا وأناسي التي هي في الأصل أناسين جمع إنسان. والنّاس في الأصل

---

[1]– الإعجاز البياني في القرآن الكريم (دراسة تطبيقية في الآيات المحكمات)، ج62/2.

[2]– العصر، الآية/ 02 .

[3]– العصر، الآية03.

[4]– المعارج، الآية/ 19.

[5]– المعارج، الآية/ 22.

[6]– المخصص، ج 43/01.

[7]– التفسير البياني للقرآن الكريم، ج 81/02.

أناس فحذف فاؤه لما أدخل عليه الألف واللام[1]، جاء في المخصص: «فإذا أدخلوا الألف واللام في أناس قالوا النّاس، هذا قول سيبويه، وذلك أنّه ذكر اسم الله عزّ وجلّ، فقال: الأصل إله فلمّا أدخلوا اللام حذفوا الهمزة، وصارت اللام كأنّها خلف منها، ثم قال: ومثله أناس فإذا دخلت اللام، قلت: النّاس، إلا أنّ النّاس قد يفارقه اللام ويكون نكرة، والله تعالى لا يكون فيه ذلك»[2].

إذن، فجمع إنسيّ هو: إنس، و جمع إنسان هو: أناسين أو أناسيّ، قال تعالى: ﴿**وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا**﴾[3]، والنّاس تجمع بين إنس وأناسين، فما الفرق بين الإنس والإنسان من النّاحية الدلالية؟

الفرق بين الإنس والإنسان:

إنّ اشتراك الإنس والإنسان في الأصل اللغوي -أَنَسَ- يعطيهما ملمحا دلاليا عاما، إلاّ أنّه لكلّ منهما دلالة خاصة تظهر من خلال استخدامها في القرآن، ولقد وضحت عائشة عبد الرحمن ذلك في كتابها الإعجاز البياني في القرآن ومسائل ابن الأزرق، بحيث تنفي الترادف بينهما رغم اشتراك مادتهما في الدلالة على نقيض التوحش، وتقول في خصوصية كلّ منهما: «لفظ الإنس يأتي في القرآن دائما مع الجن على وجه التقابل، يطّرد ذلك ولا يتخلف في كلّ الآيات التي جاء فيها اللفظ قسيما للجن، وعددها ثماني عشرة آية ونلحظ الإنسية فيه بما تعني من نقيض التوحش، هو المفهوم صراحة من مقابلته بالجن في دلالتها أصلا على الخفاء الذي هو من ظواهر التوحش، وبهذه الإنسية يتميز جنسها عن أجناس خفية مجهولة غير مألوفة لنا، ولا هي تخضع لنواميس حياتنا.

وأمّا الإنسان فليس مناط إنسانيته فيما نستقرئ من آيات البيان المعجز كونه مجرد إنس، وإنّما الإنسانية فيه ارتقاء إلى أهلية التكليف وحمل أمانة الإنسان وما يلابس ذلك من تعرض للابتلاء بالخير والشر، وقد جاء لفظ الإنسان في القرآن الكريم في خمسة وستين موضعا»[4].

---

[1]- المفردات في غريب القرآن، ج 828/01.

[2]- المخصص، ج 44/01.

[3]- الفرقان، الآية/49.

[4]- الإعجاز البياني في القرآن ومسائل ابن الأزرق/233.

يمكن تحديد خصوصية الإنس من خلال العلاقة الدلالية بينه وبين الجن وهي علاقة تقابل، من حيث دلالة الإنس على الظهور ودلالة الجن على الخفاء؛ فالجيم والنون أصل واحد وهو السّتر والتَّستُّر... والجن سُمُّوا بذلك لأنهم متستّرون عن أعين الخلق[1]، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾[2].

ومن المواضع التي جاء فيها الإنس مقابلا للجن في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ**﴾[3].

وقوله: ﴿**يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾**﴾[4]، وذكر الإنسان مقابل للجان في قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾**﴾[5]، وفي هذا الموضع جاءت لفظة الإنسان للدلالة على جنسه العام (الإنس)[6].

إنّ الإنس والبشر تشتركان في الدلالة على جنس الإنسان، لكن الأولى تختص بتمييزه عن جنس الجن، أمّا الثانية فهي تميزه عن جنس باقي المخلوقات. «أما الإنسان فإلى جانب كونه من النّاس، ومن الإنس نقيض الجان يتميز بدلالة خاصة على الإنسانية، وتتضح هذه الدلالة باستقراء آيات الإنسان في القرآن وعددها خمس وستون آية في سياق الأهلية لاحتمال تبعات التكليف والابتلاء بالخير والشّر، والتعرض للغواية، وما يلابس ذلك من غرور وطغيان، والإنسان في القرآن الكريم لا الإنس هو الذي اختصّ

---

[1]_مقاييس اللغة، مادة (جنّ).

[2]- الأعراف، الآية/27.

[3]- فصلت، الآية/29.

[4]- الرحمن، الآية/33، الجن، الآية/6، الذاريات، الآية/56، الأحقاف، الآية/18، فصلت، الآية/25، النمل، الآية/17، الأعراف، الآية/38، الأنعام، الآية/ 130، الأنعام الآية/128، الأنعام، الآية/112، الإسراء، الآية/88، الجن، الآية/05، الرحمن، الآيات/74/56/39.

[5]- الرحمن، الآية/14-15.

[6]- الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق/234.

بالعلم والبيان والجدل، كما أنّه الذي يتلقى الوصية ويحمل الأمانة»[1]، ولقد اجتهدت بنت الشاطئ في إيضاح هذه السّمات المعنوية التي هي مناط إنسانية الإنسان من خلال استقرائها لهذا اللفظ في كلّ مواضع استعمالها في القرآن، وتحديد الآيات الدالة على ذلك في البيان القرآني ورأت من خلالها أنّ الإنسان إلى جانب إنسيته يختص إنسانا[2] بـ:

– القراءة والعلم: قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[3].

– البيان: قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[4].

– الكسب والتكليف: قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ۝١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ۝١٥﴾[5]، وقال في سورة النجم: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾[6]

– الجدل: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ۝٥٤﴾[7].

---

[1]– التفسير البياني للقرآن الكريم، ج.82/02.

[2]– الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق/234-235.

[3]– العلق /01-05.

[4]– الرحمن، الآية/ 02-03.

[5]– الإسراء، الآية/13-15.

[6]– النجم، الآية/39.

[7]– الكهف، الآية/54.

- احتمال الوصية: قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1].

- احتمال هموم المكابدة واقتحام العقبة: قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾[2].

– حمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها: قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾[3]

– التعريض لتجربة الابتلاء ومنع الغواية: قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[4].

ـ الغرور والطغيان والتكبر: قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾[5]

ـ ضعف الإنسان، وهو أكثر ما يذكر في القرآن «كبحا لجماح غروره كي لا يتجاوز قدره فيطغى، وهو مظنة أن يتمادى به الغرور والطغيان إلى حد الكفر بخالقه والوقوف منه تعالى موقف خصيم مبين»[6].قال سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾[7]، وقال: ﴿وَيَقُولُ

---

[1]- لقمان، الآية/14، ينظر: سورة العنكبوت، الآية/08.

[2]- البلد، الآية/04.

[3]- الأحزاب، الآية/72.

[4]- الحشر، الآية/16، ينظر: سورة ق، الآية/16، وسورة الفجر، الآية/15.

[5]- العلق، الآية/06.

[6]- الإعجاز البيان في القرآن ومسائل ابن الأزرق/235.

[7]- النحل، الآية/04.

ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾﴾[1].

من خلال ما سبق يظهر أنّ التعبير القرآني كان دقيقا في استخدامه لهذه الألفاظ، عميقا في أسلوبه، فهو يعكس المنهج الإلهي في خلق هذا المخلوق، منهج قائم على مبدأ التدرج في تكوين الإنسان المادي (الجسدي) والمعنوي من أجل قيامه على أسس متينة تؤهله إلى مقام الإنسانية المتكاملة، فـ: «الإنسان مخلوق خاص، ذو كيان متميز، تميزه في ازدواج عناصر تكوينه، مستخلف في الأرض، مزوّد بخصائص الخلافة، وأولى هذه الخصائص: الاستعداد للمعرفة النّامية المتجددة، ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل، والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته... للنهوض بوظيفة الخلافة»[2].

ونخلص من خلال هذا المبحث إلى مايلي:

تجمع مفردة آدم في دلالتها بين مادة الخلق وبين دلالتها على الألفة، والألفة استعداد فطري جُبل عليه الإنسان، وهي العامل الأساسي في قدرته على التعايش في جماعات، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾**﴾[3].

الازدواجية القائمة في تماثل أعضائه الجسدية جعلته يبدو في أحسن صورة، فبشريته تكمن في الخلقة التامة التي تميزه عن باقي المخلوقات، ولاحظ دقة التعبير القرآني في سورة مريم، حيث جمع بين لفظتي: بشر وإنسيّ في آية واحدة، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿**فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾**﴾[4].

---

[1]- مريم، الآية/67، وينظر: سورة الانفطار، الآية/06، سورة الزخرف، الآية/15، سورة العاديات، الآية/06.

[2]- مقومات التصوير الإسلامي/367.

[3]- الحجرات، الآية/13.

[4]- مريم، الآية/26.

فعبّر بلفظة (البشر) عمن قد تراه من النّاس، وقال في نهاية الآية (إنسيا) عند امتناعها عن الكلام مع البشر؛ لأنّها كانت في سياق الحوار مع سيدنا جبريل عليه السلام، وهو في حالة الخفاء، فكان التعبير بإنسي أنسب لأنّه نقيض الخفاء في دلالته اللغوية، بينما عبّر عن سيدنا جبريل بلفظة بشر حين تمثل لها في الصورة الآدمية فقال: ﴿**فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا** ﴿١٧﴾﴾[1].

إذا كانت البشرية تميز الإنسان عن المخلوقات الظاهرة، والإنسية تميزه عن المخلوقات الخفية، فإنّ الإنسانية بالإضافة إلى جمعها بين المعاني السابقة تدل على خصائصه المعنوية.

من خلال تعدد مسميات الإنسان في القرآن الكريم يمكن القول أن المفردة القرآنية دقيقة المعنى، بحيث تشترك دلالة صيغتها الإفرادية، ومعناها المعجمي في تشكيل المعنى القرآني فيها، ومهما اختلف السياق تبقى تشير إلى معناها الأصلي خاصة إذا كانت لفظة عامة.

2- دلالة التعبير القرآني على خلق الإنسان وتكوينه:

لقد أولى القرآن الكريم قضية خلق الإنسان وتكوينه عناية بالغة، ويظهر ذلك من خلال تفصيله لكيفية الخلق باستخدام مصطلحات دقيقة تتمايز من خلالها مراحل الخلق بكلياتها وجزئياتها، قال تعالى: ﴿**وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا** ﴿١٤﴾﴾[2]، وأطوار جمع طور، وهو في اللغة «أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الامتداد في شيء من مكان أو زمان»[3]، وهو ما يدل في الآية الكريمة على استغراق عملية الخلق لمدة زمنية، يقول الزجّاج: «أي طورا بعد طور، نقلكم من حال إلى حال ومن جهة من الخلق إلى جهة، خلقكم من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة ثم من مضغة، ثم جعل المضغة عظما، وكسا العظم لحما»[4].

فخلق الإنسان يمتد من خلق آدم من تراب إلى إجراء الخلق عن طريق التناسل، فدلالة الأطوار على الامتداد الزماني متضمنة في مراحل الخلق الإجمالية والتفصيلة، والتي جمعها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ** ﴿١٢﴾ **ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ** ﴿١٣﴾ **ثُمَّ خَلَقۡنَا**

[1]- مريم، الآية/17.

[2]- نوح، الآية/14.

[3]- مقاييس اللغة، مادة (طور).

[4]- معاني القرآن للزجاج، 229/05.

﴿ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾[1]، يمكن من خلال هذه الآيات تحديد ثلاث مراحل كلية هي:

1- مرحلة الخلق ابتداءً من تراب، ثم من نطفة.

2- مرحلة تكوين الجنين.

3- مرحلة التسوية أو النشأة.

يتشكل مفهوم عملية خلق الإنسان في التعبير القرآني من خلال الملحظ العام في دلالة الألفاظ المعبر بها عن مراحله المتتالية والمتفاوتة زمنيا، ومن خلال الآيات المعروضة لأطوار الخلق، يمكن على المستوى الأفقي أن تشكل التعابير المفتاحية المراحل الجزئية لكل طور، والربط بين دلالة هذه الألفاظ بشكل لكلّ مرحلة، والذي يتوافق مع التصور العلمي الدقيق لهذه الظاهرة في كل طور من أطوارها وهو ما سيتضح في الفصل الرابع، أما في هذا المبحث سنحاول الوقوف على التصور الدلالي العام لكلّ مرحلة من خلال التحليل اللغوي للتعابير المفتاحية في هذا الحقل –خلق الإنسان–

2-1- المرحلة الأولى:خلق الإنسان ابتداء

أ– خلق الإنسان من تراب:

يتشكّل الوصف القرآني لهذه المرحلة من خلال استعماله لهذه المفردات التي تعتبر كلّ منها أحد أطوار هذه المرحلة وفق الترتيب الآتي:

تراب ⟵ طين ⟵طين لازب ⟵ حمأ مسنون ⟵صلصال.

– التّراب: ذكرت في القرآن الكريم في ثمانية مواضع[2]، ستة منها متعلقة بخلق الإنسان،منها قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾[3].

والتراب في اللغة من (تَرِبَ)، قال أحمد بن فارس: «(تَرِبَ) التَّاءُ وَالرَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا التُّرَابُ وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهُ، وَالْآخَرُ تَسَاوِي الشَّيْئَيْنِ. فَالْأَوَّلُ التُّرَابُ، وَهُوَ التَّيْرَبُ وَالتَّوْرَابُ. وَيُقَالُ تَرِبَ الرَّجُلُ إِذَا افْتَقَرَ

[1]– المؤمنون / 12-14.

[2]– البقرة، الآية264، آل عمران، الآية59، الكهف، الآية37، الحج، الآية05، الروم، الآية20، فاطر، الآية11، غافر، الآية67.

[3]– الروم، الآية/20، ينظر: سورة الكهف، الآية/37، سورة غافر، الآية/67، سورة المرسلات، الآية/20.

كَأَنَّهُ لَصِقَ بِالتُّرَابِ، وَأَتْرَبَ إِذَا اسْتَغْنَى، كَأَنَّهُ صَارَ لَهُ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ التُّرَابِ، وَالتَّرْبَاءُ الْأَرْضُ نَفْسُهَا»[1]، فالتراب، هو وجه الأرض وبساطها.

– الطين: قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢**﴾[2]. وفي الدلالة اللغوية لهذا اللفظ يقول الزبيدي: «(الطين بالكسر) معروف يختلف باختلاف طبقات الأرض، وأجوده المدُّ النّقي الخالص بعد رسوب الماء»[3]، إنّ عبارة (رسوب الماء) تدل على أنّ الطين لا يكون إلاّ بعد اختلاط التراب بالماء وهذا هو الفرق بين التّراب والطين.

أمّا الجزئية الثالثة فقد أضيفت كلمة لازب إلى الطين في قوله تعالى: ﴿**فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١**﴾[4]؛ لأنّ إضافة الماء إلى الطين حدّ الالتزاق والتجانس تجعله شديد التماسك فيكون لازبا، وهو في اللغة من «اللَّزْبة: الشدَّةُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: هَذَا الأَمر ضربَةُ لازِبٍ أَي لازِمٍ شَدِيدٍ. ولَزَب الشيءُ يَلْزُب، بِالضَّمِّ، لَزْباً ولُزُوباً: دخَل بعضُه فِي بعضٍ. ولَزَبَ الطينُ يَلْزُبُ لُزُوباً، ولَزُبَ: لَصِقَ وصَلُبَ»[5]، ومجيء هذه اللفظة على صيغة "فاعل" التي تأتي غالبا للدلالة على المشاركة، أكثر مناسبة لحالة تداخل وتماسك أجزاء الطين ببعضها عند امتزاجه بالماء.

– حمأ مسنون: قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾[6].

وفي اللغة الحمأ: الطين الأسود[7]، وجاء في لسان العرب: «الحمأةُ والحمأ: الطين الأسود المنتن، وفي التنزيل: (من حمإٍ مسنونٍ) »[8].

---

[1]– مقاييس اللغة، مادة(ترب).

[2]– الأنعام، الآية/02، ينظر: سورة الأعراف، الآية/12، سورة المؤمنون، الآية/12.

[3]– تاج العروس، (طين).

[4]– الصافات، الآية/11.

[5]– لسان العرب، مادة (لزب).

[6]– الحجر، الآية/33.

[7]– الصحاح، مادة (سنا).

[8]– لسان العرب، مادة (حمأ).

إذا ربطنا بين المعنى المعجمي لكلمة حمأ واستعمالها في القرآن على أنّها إحدى مراحل خلق آدم، فهي تدل على حدوث تغيير على الطين يتمثل في اسوداده ونتانته، بعد أن كان لازبا، وهذا التغيير تتضمنه مفردة مسنون التي جاءت صفة لحمأ، و«مسنون أي: متغيِّر»[1]، كما أنّها تدل على تحوّل هذه المادة إلى صلصال لذلك استخدم من الابتدائية لتحديد جنس المادة التي خلق منها آدم: ويؤكد هذه الدلالة مجيء كلّ من الحمأ المسنون والصلصال نكرة؛ لأنّ النكرة إذا أطلقت «دلت على أحد أمرين: إرادة الوحدة أو إرادة الجنسين»[2].

الصلصال: يدل على معنى هذه المفردة وقع أصواتها، أمّا مقاطعها فهي جامعة لمعاني المراحل السابقة (الطين والحمأ المسنون)، ويظهر ذلك من خلال المعنى المعجمي لهذه المفردة، جاء في مقاييس اللغة: « (صَلَّ) الصَّادُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى نَدًى وَمَاءٍ قَلِيلٍ، وَالْآخَرُ عَلَى صَوْتٍ.

فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَالصَّلَّةُ، وَهِيَ الْأَرْضُ، تُسَمَّى الثَّرَى لِنَدَاهَا. عَلَى أَنَّ من الْعَرَبِ مَنْ يُسَمِّي الصَّلَّةَ التُّرَابَ النَّدِيَّ. وَلِذَلِكَ تُسَمَّى بَقِيَّةُ الْمَاءِ فِي الْغَدِيرِ صُلْصُلَةً.

وَمِنَ الْبَابِ: صِلَالُ الْمَطَرِ: مَا وَقَعَ مِنْهُ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ. وَيُقَالُ لِلْعُشْبِ الْمُتَفَرِّقِ صِلَالٌ ; لِأَنَّهُ يُسَمَّى بَاسِمِ الْمَطَرِ الْمُتَفَرِّقِ. قَالَ:كَجَنْدَلِ لُبْنَ تَطَرَّدُ الصِّلَالَا

وَمِنَ الْبَابِ صَلَّ اللَّحْمُ، إِذَا تَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُ وَهُوَ شِوَاءٌ أَوْ طَبِيخٌ. وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الصَّلَّةِ، كَأَنَّهُ دُفِنَ فِي الصَّلَّةِ فَتَغَيَّرَ. وَمَصْدَرُ ذَلِكَ الصُّلُولُ. قَالَ:

ذَاكَ فَتًى يَبْذُلُ ذَا قِدْرِهِ ... لَا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلُولْ

وَأَمَّا الصَّوْتُ فَيُقَالُ: صَلَّ اللِّجَامُ وَغَيْرُهُ، إِذَا صَوَّتَ. فَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ، قِيلَ: صَلْصَلَ. وَسُمِّيَ الْخَزَفُ صَلْصَالًا لِذَلِكَ ; لِأَنَّهُ يُصَوِّتُ وَيُصَلْصِلُ»[3].

يظهر تضمن مفردة "صلصال" لما سبقها من مراحل خلق آدم من تراب فيما يأتي من المعاني الأصلية للصلصال:

أ- **الصلة:** وهي الأرض أو التّراب النّدي، وهو يتوافق مع مدلول الطين (التّراب المختلط بالماء).

---

[1]- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ج57/03.

[2]- معاني النحو، ج 36/01.

[3]- مقاييس اللغة، مادة (صلّ).

ب- الصلول: تغير رائحة المادة الحية كاللحم نظرا لتعرضها للحرارة أو الرطوبة، وهو يتوافق مع دلالة الحمأ المسنون على نتانة الطين لأنّه كان (صلة) وبزيادة رطوبة هذه الصلة (اللزوب) مع استغراقها لمدة زمنية معينة أصبحت حمأة، وهذه الحمأة تسنَّت صلصالا بسنوِّ الشّمس –ضوءها أو حرارتها– و«كلّ شيء جفّ من طين أو فخار فقد صلّ صليلا»[1]، و قد اجتمعت هذه المعاني في اجتماع حرفي الصاد واللام، قال الخليل بن أحمد الفراهيدي في مادة صل: «صل: صَلَّ اللِّجامُ صَليلاً اذا تَوَهَّمْتَ في صَوتِه مَدّاً، وان تَوهَّمْتَ تَرجيعاً قلت: صَلصَلَ، وكلُّ ذي صَلابةٍ يُصَلْصِلُ. وتَصِلُ البَيْضَ اذا نَقَفْتَها بالسُّيُوف. والخَزَفُ صِلْصال لتَصَلصُلِه اذا حرك، فاذا طبخ فهو فَخّار، وخُلِقَ آدَمُ من طينٍ، ومَكَثَ في الشَّمس أربعينَ يوماً حتى صارَ صَلْصالاً.»[2]، فسبحان الذي قال: ﴿ **خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ** ﴿١٤﴾ ﴾[3]، فأوجز بالمفردة –الصلصال– المراحل، وأوجز بالتركيب الصورة المجسدة لعملية الخلق.

يُلاحظ مما سبق أنّ هذه التعابير (تراب، طين، صلصال) قد جاءت متناثرة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، ومجموعها هو الذي يعطي التصور الدلالي لعملية بدأ خلق الإنسان، من المنظور اللغوي، يقول الشعراوي: «وقد أخذت مسألة خلق الإنسان جدلا طويلا من الذين يريدون أن يستدركوا على القرآن متسائلين: كيف يقول مرة: إنّ الإنسان مخلوق من ماء، ومرة من طين، ومرة من صلصال كالفخار؟ ونقول: إنّ ذلك كلّه حديث عن مراحل الخلق، وهو سبحانه أعلم بمن خلق، كما خلق السّماوات والأرض، ولم يشهد الحق أحدا من الخلق كيف خلق المخلوقات: ﴿**مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا**﴾[4] ، ومن رحمته سبحانه أنه ترك في محسات الحياة وماديتها ما يثبت صدقه في غيبياته، فإذا قال مرة إنّه خلق كلّ شيء من الماء، فهو صادق

[1]– جمهرة اللغة، مادة(صل).
[2]– العين، مادة (صل).
[3]– الرحمن، الآية/14.
[4]– الكهف، الآية/51.

فيما قال، لأنّ الماء يكوّن أغلب الجسد البشري على سبيل المثال. وإذا أوضح أنّه خلق الإنسان من طين، فالتّراب إذا اختلط بالماء صار طينا، وإذا مرّ على الطين وقت صار صلصال...»[1].

أمّا فيما يتعلق بتعدد ذكر هذه الجزئيات في القرآن، فلا يعدّ تكرارا، وإنّما يختار في كلّ مرة ما يتناسب مع سياق الآية، فهو حين يقول: ﴿**وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ** ﴿٢٠﴾﴾[2]، فاختار مفردة (تراب) وتراب على وزن (فُعَال) وهي من صيغ المبالغة، فهي تدل بصيغتها على الكثرة، وهو ما يتناسب مع جملة خاتمة الآية: (**إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ**)، فجاءت بشر نكرة دالة على مطلق البشر، فمن أغراض التنكير التكثير[3]، ثم قال: تنتشرون، والانتشار يدل على تفشي الشّيء بكثرة ويساهم في إبراز هذه الدلالة تكرار حرفي الشّين والرّاء والأول انتشاري والثاني تكراري، فكان ذكر التّراب أكثر مناسبة لمشهد كثرة البشر وانتشارهم على الأرض.

أمّا الطين: فقد جاءت في ثمانية مواضع نكرة، سبعة منها خاصة بخلق آدم، وجاءت معرفة في ثلاثة مواضع (سورة آل عمران، **الآية49**، سورة المائدة، **الآية110**، سورة القصص، **الآية38**)، اثنان منها في معجزات عيسى عليه السلام، والثالثة في قصة بناء صرح فرعون[4]، وجاءت كلّها للدلالة على الاصطفاء، والله عندما أراد خلق آدم اصطفى من أديم الأرض الطين، وقد جاء في دلالته المعجمية أنّه من أجود وأصفى طبقات الأرض[5].

ولقد أضاف إليها وصف (لازب) في سياق تقابل معنوي بين شدّة خلق الخلائق، وبين شدّة خلق الإنسان، فاختار الشديد من مراحل الخلق ليقابله بباقي أنواع الخلق، قال تعالى: ﴿**فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ** ﴿١١﴾﴾[6]، فمهما كانت شدة هذا الإنسان

---

[1]- تفسير الشعراوي، 7689/12.

[2]- الروم، الآية/20.

[3]- معاني النحو/ 37.

[4]- ينظر: الكشاف، ج.414/03.

[5]- تاج العروس، مادة (طين).

[6]- الصافات، الآية/11.

وقوته يبقى أهون في خلقه على الله سبحانه وتعالى مقارنة بباقي المخلوقات وقد نزلت هذه الآية «في أبي الأشد بن كلدة، وكنى بذلك لبطشه وقوته»[1].

أمّا الحمأ المسنون: فقد ذُكر في ثلاثة مواضع كلّها في سورة الحجر، الأول في سياق تقابل بين خلق الإنسان وخلق الجان، فالأول خلق من صلصال من حمأ مسنون، والثاني من نّار السّموم.

والموضع الأول قصد به جنس الإنسان عموما، أمّا الثاني فالمقصود به آدم عليه السلام على وجه الخصوص لأنّه جاء في سياق إخبار المولى عزّ وجلّ الملائكة بخلق آدم وأمرهم بالسجود له.

والثالث في سياق التعبير عن رفض إبليس السجود لآدم واستحقاره له، ﴿**قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٖ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣**﴾[2]، ففي الأول تعميم، وفي الثاني والثالث تخصيص.

أمّا الصلصال فقد جاء مع الحمإ المسنون في المواضع السّابقة، ومرّة واحدة في الرّحمن مُشبها بالفخار، وقد سبق الحديث عن القيمة الدلالية لهذه المفردات، من حيث دلالة مقطعها الأول (صلّ) على الطين و الحمإ المسنون، والصوت ويزيد مقطعها الثاني (صال) الصوت استطالة من حيث إنّ صال من صول، و«صال عليه إذا استطال»[3].

فاستخدام القرآن للمفردة العربية يعزّز من قيمتها الدلالية، لأنّ الاستخدام القرآني هو الوحيد الذي يحفظ لها –المفردة– جميع أوجهها، ويظهر منها اعتمادا على بنيتها الإفرادية ما يتناسب مع السّياق، وينبو بها عن التكرار.

ب- خلق الإنسان من ماء آدم:

لقد اقتضت الحكمة الإلهية بعد خلق آدم أن يجري الخلق عن طريق التناسل، وعبّر عن ذلك بإيجاز في قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ**

[1]- الكشاف، ج37/04، ينظر: تفسير القرطبي، ج 68/15.

[2]- سورة الحجر/ 32-33.

[3]- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 0مادة(صلّ).

جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨[1]، إنّ جملة (بدأ خلق الإنسان من طين) تمثل الجزئية السّابقة –خلق آدم– يؤكد ذلك التناسب الدقيق بين الألفاظ، فعندما كان المقصود بالإنسان في هذا الموضع آدم أول البشر، جاء "خلق" مسبوقا بالفعل بدأ، وختم الجملة بعبارة (من طين) للدلالة على جنس التراب الذي بدأ منه خلق آدم.

وقد جاء التعبير عن خلق الإنسان عموما من طين أو من تراب في مواضع أخرى؛ لكنّها لم تكن مسبوقة بالفعل بدأ إلاّ في هذا الموضع، وهذا مراعاة للسياق، فقد سبق الجملة حديث المولى عزّ وجلّ عن إتمامه خلق كلّ شيء في أحسن صورة، واستئنافه لخلق جديد هو آدم.

وقد ربط بين مدلول نهاية الآية السّابقة من سورة السّجدة وبين بداية الآية التي بعدها ب "ثمّ"، فدلالتها على الترتيب والتراخي تجعلها أنسب رابط يعكس الفاصل الزمني بين خلق آدم وذريته، فالآية الثامنة تتضمن الوصف الإلهي لناموس خلق بني آدم، والاختلاف بين الكيفية الأولى والكيفية الثانية يتجلى في الانصراف إلى الفعل جعل دون خلق، لأنّ هذا الأخير لو استعمل في هذا الموضع قد يوحي بالقطيعة بين الخلقين، أي أنّ الثاني لا يمت بصلة لا من حيث المادة الكيفية إلى الأول، فالتعبير القرآني يستخدم فعل (الخلق) في مواضع أخرى يصف فيها خلق الإنسان من ماء مهين، أو من نطفة؛

لكنّ هذا السّياق يستدعي الفعل (جعل) لما يحمله من الدلالة على التحويل والصيرورة، وحتى المضي المستفاد من صيغته على التحوّل الأول للعناصر الأساسية لخلق الإنسان من ماء آدم، فالفعل جعل يتناسب طرديا مع العلائقية التي ترتسم على هذا المشهد من خلال تكرير (من) التي جمعت بين دلالتها على الابتداء والتبعيض، وبيان الجنس، ثم تداعت باقي المفردات في الآية تداعيا دلاليا يتناسب مع ما قبلها، لترسم المشهد الكوني في خلق الإنسان بمنتهى الطلاوة والدقة، فجاء بالنسل للدلالة على الولد، وجاء بالسّلالة للدلالة على ما يؤخذ منه الولد، ثم جاء بالماء المهين للدلالة على ما تؤخذ منه السّلالة؛

1- سورة السّجدة/ 07-08.

فكانت السّلالة المصطلح الأدقّ للتعبير عن هذه العلائقية، لأنّ دلالتها اللغوية تجمع بين معنيين: الأول: ما ينسل من الشيء القليل[1]، والثاني: دلالة جذرها (سَلَّ) «على مدّ الشّيء في رفق وخفاء»[2]، وهذه المعاني المعجمية لهذه اللفظة تتطابق مع خصائص الخلية الأولى في خلق الإنسان (النطفة) من حيث انسلالها من بين ملايين النُّطف لتلقيح البويضة، فهي تجمع في نسبتها الواحدة من الملايين، وفي عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة بين القلة والخفاء، فلا مجاز في هذا التعبير، ولكنّه البيان البليغ.

يقول الطاهر بن عاشور في هذه الآية: «النّسل: الأبناء والذرية، سميّ نسلا لأنّه ينسلُّ، أي: ينفصل من أصله... ومن في قوله: من سلالة ابتدائية، وسميت النطفة التي يتقوّم منها تكوين الجنين سلالة كما في الآية لأنّها تنفصل عن الرجل، فقوله: من ماء مهين بيان لسلالة، ومِنْ بيانية فالسلالة هي الماء المهين، هذا هو الظاهر لمتعارف النّاس، ولكن في الآية إيماء علمي لم يدركه النّاس إلاّ في هذا العصر، وهو أنّ النطفة يتوقّف تكوّن الجنين عليها لأنّه يتكون من ذرّات فيها تختلط مع سلالة المرأة، وما زاد على ذلك يَذْهَبُ فضله، فالسّلالة التي تنفرز من الماء المهين هي النّسل لا جميع الماء المهين، فتكون (مِنْ) في قوله من ماء مهين للتبعيض أو للابتداء. والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يُعْبَأُ به، والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين، إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب لآثار من نوع ماءٍ مهراقٍ لا يُعْبَأُ به ولا يصان»[3]، يوضح الطاهر بن عاشور الفارق الدلالي بين مفردة (سلالة) وعبارة (الماء المهين) من منظور علمي يؤكده استخدام القرآن لـ(مِنْ) التبعيضية أو الابتدائية في هذا الموضع، فليس كلّ النطاف صالحة لتكوين الولد، وما صلح منها فتلك هي السّلالة.

أمّا استعمال مفردة ماء للتعبير عن المني، وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى**﴾[4]، فهو أدلُّ في الآية الثامنة من سورة السّجدة على طبيعة المني السّائلة، كما أنّه تأكيد على

[1]- معاني القرآن للزجاج، ج 205/04.
[2]- مقاييس اللغة، مادة(سلّ).
[3]- التحرير والتنوير، ج.216/21.
[4]- القيامة، الآية/37.

مصدرية الخلق من ماء، وقد قال تعالى في سورة النّور: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**﴾[1]، وخصص في السّجدة خلق الإنسان بالماء المهين، والمهين: «الشيء المستضعف[2] والحقير»[3].

إنّ القيمة العلمية للدلالة المعجمية لهذه الألفاظ لا تتضح إلاّ عند مقابلتها بالحقائق العلمية لمراحل تكوين الجنين[4]. لكن من خلال هذا الملحظ العام في دلالة هذه الألفاظ يمكن القول إنّ القرآن يرقى بالدلالة المعجمية للمفردة العربية إلى مستوى الصيغة اللغوية للمصطلح في مجال معرفي معين من خلال استخدامها في سياق يتحقق فيه التعالق والانسجام الدلالي بين كلّ العناصر اللغوية.

2-3- المرحلة الثانية:تكوين الجنين:

لقد هيأ الله سبحانه وتعالى لكلّ مرحلة من مراحل خلق الإنسان من الأسباب ما يجعلها تجري وفق النّواميس الكونية، إلى أن يطوي الله صفحة هذا الكون، فجعل الزواج شرعة يحفظ من خلالها النّسل البشري، قال تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١**﴾[5]، وفرّق بين المحمول في الأنثى والموضوع منها، فالمحمول الجنين، والموضوع هو المولود، لأنّ الجنين إذا لم يكتمل خلقه ومات قبل ولادته لا يعدّ مولودا.

ولقد ذكر القرآن لفظة "الجنين" في موضع واحد بصيغة الجمع، حيث قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ**

---

[1]- النور، الآية/45.

2- الفروق اللغوية،ج 01 / 251.

[3]- مقاييس اللغة، (وهن).

[5]- فاطر، الآية/11.

﴿ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1]، ويكون القرآن بهذا التعبير قد أعطى مفهوما علميا موجزا ودقيقا للجنين من خلال تحديد مكانه (في بطون أمهاتكم)، وكونه في هذا المكان لا يمكن رؤيته، فهو موجود لكن مستتر.

والجنين في اللغة من جنَّ، قال أحمد بن فارس: «الجيم والنون أصل واحد، وهو: السّتر والتستّر»[2]، وجاء في لسان العرب: «جنن: جنَّ الشيء يجنُّه جنا: ستره، وكل شيء سُتر عنك فقد جُنَّ عنك... وجَنَّ عليه الليل أي ستر، وبه سُمي الجن لاستتارهم واختفاءهم عن الأبصار، ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمّه...»[3]. ومن ثم فإن المرحلة الجنينية هي المتغيرات المتلاحقة الحاصلة للنطفة داخل الرحم، قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ...﴾[4]، وهذه المتغيرات حسب الترتيب القرآني الموافق للترتيب التخليقي هي:

النطفة ⟵ العلقة ⟵ المضغة ⟵ العظام ⟵ الاكتساء باللحم.

النطفة:

وردت النّطفة في القرآن الكريم في اثني عشر موضعا، منها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾[5]، والنّطفة في اللغة مأخوذة من مادة (نَطَفَ)، وقد جاء في مقاييس اللغة أن: « النُّونُ وَالطَّاءُ وَالْفَاءُ أَصْلَانِ أَحَدُهُمَا جِنْسٌ مِنَ الْحَلْيِ، وَالْآخَرُ نُدُوَّةٌ وَبَلَلٌ، ثُمَّ يُسْتَعَارُ وَيُتَوَسَّعُ فِيهِ.

---

[1]- النجم، الآية/32.

[2]- مقاييس اللغة، مادة (جنن).

[3]- لسان العرب، مادة (جنن).

[4]- الزمر، الآية/06.

[5]- النحل، الآية/04. ينظر: الكهف، الآية/37، الحج، الآية/05، المؤمنون، الآيتين/13-14، فاطر، الآية/11، يس، الآية/77، غافر، الآية/67، النجم، الآية/46، القيامة، الآية/37، الإنسان، الآية/02، عبس، الآية/19.

فَالْأَوَّلُ: النَّطَفُ. يُقَالُ هُوَ اللُّؤْلُؤُ، الْوَاحِدَةُ نَطَفَةٌ. وَيُقَالُ: بَلِ النَّطَفُ: الْقِرَطَةُ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ النُّطْفَةُ: الْمَاءُ الصَّافِي»[1].

وقال الفارابي (ت393هـ) في الصحاح: «النُطْفَة: الماء الصافي، قلّ أو كثر، والجمع النطاف، والنطفة: ماء الرجل، والجمع نُطَف»[2]. من خلال هذين المعنيين المعجميين يمكن تحديد السّمات اللغوية للنطفة المقصود بها في القرآن، المرحلة الأولى من خلق الإنسان، وهي:

– أن تكون فاؤها مضمومة عند إفرادها (نُطفة)، لأنّها من تحمل الدلالة على الماء، وقد قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾[3].

ــ جمعها يكون على وزن "فُعَلُ" وليس "فعال" وإن كان كلاهما من صيغ جمعه الكثرة[4]، إلاّ أنّ الأول أخصّ بماء الرّجل لمناسبة بين حركة فاء هذا الجمع وبين صفة هذا الماء في القرآن الكريم.

إنّ حركة فاء نطف الضم، والضم أصغر الحركات لذلك تستعمل في التصغير، جاء في علل النحو: «أصغر الحركات الضم لأنها تخرج من بين الشفتين، وتنضم عليه الشفتان، وليس الفتح كذلك، ولا الكسر، لأنّ الفتح يخرج من الحلق، وما خرج من الحلق لا يوجب انضمام الشّفتين، والكسر يخرج من وسط اللسان ولا يوجب انضمام الشّفتين»[5].

وشأن ماء الرجل في القرآن التصغير والتحقير، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[6]، فهناك مشاكلة بين حركة فاء نطفة وبين القيمة الدلالية لهذه اللفظة، كمفردة استخدمها القرآن لتذكير الإنسان بمصدر خلقه خاصة في المواقف التي يكون فيها معاندا ومكابرا ومجادلا، فيذكّره بمبدأ خلقه «وهو النّطفة

---

[1]– مقاييس اللغة، مادة (نطف).

[2]– الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة(نطف).

[3]– الطارق، الآية/05-06.

[4]– شرح الكافية الشافية، ج04/1837- 1849.

[5]– علل النحو،/475.

[6]– سورة المرسلات، الآية/20.

التي هي أمهن شيء»[1]. فابتداء نطفة بأصغر الحركات دلالة على صغر شأنها وهو متوافق مع صغر حجمها.

إنّ الضعف هو السّمة الدلالية التي تشترك فيها المفردات المستخدمة في التعبير القرآني للدلالة على مصدر خلق الإنسان، وصدق تعالى حين قال: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ**﴾[2]. يقول الطاهر بن عاشور في معنى النّطفة: «والنّطفة: فعلة مشتقة من نطف الماء إذا قطر، فالنُّطفة ماء قليل[3]، وسمي ما منه النّسل نطفة بمعنى منطوف، أي؛ مصبوب، فماء الرجل مصبوب، وماء المرأة أيضا مصبوب، فإنّ ماء المرأة يخرج مع بويضة دقيقة تتسرب مع دم الحيض وتستقر في كيس دقيق فإذا باشر الذكر الأنثى انحدرت تلك البيضة من الأنثى واختلطت في قرارة الرحم»[4]، وهذا الاختلاط عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢**﴾[5]، وأمشاج: مشتق من المشج وهو الخلط[6]، ويمكن أن تكون صيغة أمشاج صيغة جمع كما رأى به الفرّاء، حيث قال: «الأمشاج الإخلاط، ماء الرجل وماء المرأة، والدم، والعلقة، ويقال للشيء من هذا إذا خلط مشيج كقولك: خليط، وممشوج كقولك: مخلوط»[7].

بينما يحمل الزمخشري هذه الصيغة على المفرد، حيث يقول في الكشاف: «نطفة أمشاج كبرمة أعشار، وبرد أكباش، وهي ألفاظ مفردة غير جموع، ولذلك وقعت صفات للأفراد ولا يصح أمشاج أن يكون

---

[1]- التحرير والتنوير ،ج14 /102.

[2]- الروم، الآية/54.

[3]- لسان العرب، مادة: (نطف).

[4]- التحرير والتنوير، ج146/27.

[5]- الإنسان، الآية/02.

[6]- مقاييس اللغة، مادة(مشج).

[7]- معاني القرآن للفراء،214/03.

تكسيرا له، بل هما مثلان في الإفراد، لوصف المفرد بهما ومشجه ومزجه بمعنى، والمعنى: من نطفة قد امتزج فيها الماءان»[1]. من خلال الأمثلة التي ساقها الزمخشري، فحمله لهذه الصيغة على المفرد، فلربّما يكون لكونها دالة على صفة اسم مفرد قبلها، وفي هذه الحالة يكون لها وجه دلالي واحد هو النّطفة المخصبة.

أمّا حمل أمشاج على صيغة الجمع، فهي تقتضي اجتماع أكثر من عنصرين، وبما أنّ النّطفة سواء الذكرية أو الأنثوية تتركب من جملة من العناصر الكيماوية، فيمكن أن تقع صفة أمشاج على النطفة المؤهلة لأن تكون نسلا من ماء الرجل، والنّطفة ذات القابلية من ماء المرأة، كما تقع على اختلاطهما، فوصف النّطفة بالأمشاج جمعا يكون «باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص (فلذلك يصير كل جزء من النطفة عضوا)، فوصف النطفة بجمع الاسم للمبالغة، أي شديدة الاختلاط، وهذه الأمشاج منها ما هو أجزاء كيميائية نباتية أو ترابية، ومنها ما هو عناصر قوى الحياة»[2].

من خلال ما سبق يمكن القول إنّ القرآن قد أعطى لمفردة "نطفة" دلالة اصطلاحية حين جعلها تختص بالتعبير عن ماء النّسل.

العلقة:

تمثل العلقة المرحلة الثانية من مراحل تكوين الجنين، وقد ذكرت في القرآن ست مرات، واحدة منها على صيغة الجمع، وكانت في أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: ﴿ **ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢** ﴾[3]، وجاءت اسما مفردا مؤنثا في باقي المواضع، كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨**﴾[4]، والعلق في اللغة: «الدم الجامد قبل أن ييبس،

[1]- الكشاف، 666/04.

[2]- التحرير والتنوير، 374/29.

[3]- العلق، الآية/ 01-02.

[4]- القيامة، الآية/38. الحج، الآية/05، المؤمنون، الآية/14، غافر، الآية/67.

والقطعة علقة، والعلقة دُويبة حمراء تكون في الماء، تجمع على علق، والمعلوق الذي أخذ العلق بحلقه إذا شرب، والعلوق: المرأة التي لا تحب غير زوجها»[1]، وجاء في الصحاح: «العلق: الدم الغليظ، والقطعة منه علقة، والعلقة: دودة في الماء تمتص الدم، والجمع علق»[2]، وأصّل ابن فارس لهذه المادة اللغوية، فقال: «العين واللام والقاف أصل كبير صحيح يرجع إلى معنًى واحد، وهو أن يناط الشّيء بالشّيء العالي ثم يتسع الكلام فيه، والمرجع كلّه إلى الأصل الذي ذكرناه، تقول: علَّقت الشّيء أعلِّقه تعليقا، وقد علّق به إذا ألزمه، والقياس واحد، والعلق: ما تعلق به البكرة من القامة... والعلق الدّم الجامد، وقياسه صحيح، لأنح يعلق بالشيء، والقطعة منه علقة»[3].

إنّ مفردة علقة من خلال دلالتها المعجمية نجدها تلقي بظلالها على جميع مناحي حياة الإنسان، فمن خلال دلالة اسم جمعها المطابق لمصدرها –عَلَقُ– الدّال على النّشوب[4]، أي ارتباطه الشيء بالشّيء ولزومه إيّاه، فهي تحيل إلى مصدر وجود هذا الكائن الحيّ القائم على وجوب علاقة شرعية تربط بين الرجل والمرأة، كما أنّها –العلائقية– أساس أيّ تواصل إنساني فكري أو معرفي أو وجداني؛ ومن هذا المنطلق كانت أنسب لفظ للتعبير عن خلق الإنسان في أول ما نزل من القرآن بسورة العلق.

أمّا كون العلقة المرحلة الثانية من مراحل تكوين الجنين، فدلالتها اللغوية على الدم الجامد أو الغليظ، هو وجه مطابقتها لهذه المرحلة، لأنّ النّطفة لا تكون علقة إلاّ بعد انغراس نطفة الذكر في نطفة الأنثى، واشتراكهما في توليد خلايا جديدة تحمل خصائص الاثنين، وتكاثر عدد هذه الخلايا وتحولها إلى كتلة دموية شديدة الحمرة.

---

[1]– العين، مادة(علق).

[2]– الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (علق).

[3]– مقاييس اللغة، مادة (علق).

[4]– لسان العرب، مادة (علق).

إذن فهي بمقطعها الأول (عَلَ) دلت على صفة استعلاء أحد الماءين على الآخر، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله أحد أحبار اليهود عن الولد، أنه قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلاَ منيُّ الرجل أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة على منيّ الرجل آنثا بإذن الله»[1].

أمّا انتهاء هذه المفردة بصوت "القاف"، فإنّه يعكس في دلالته على الاصطدام والشّدة[2]، كيفية تشكيل هذه القطعة الدموية المتكونة من اتحاد الخليتين الذكرية والأنثوية وتلاحمها على شكل مماثل لشكل الدودة المائية وتعلقها بجدار الرحم ؛ و هذا يعكس دقة التصوير القرآني، فإنّه إذا اختار لفظا يدلّ في أحد أوجهه على شيء له صورة حسيّة، فلا بدّ أن تكون مشاكلة بين هذه الصورة الحسيّة، وبين صورة المعنى المراد التعبير عنه.

المضغة:

المرحلة الثالثة من مراحل تكوين الجنين، وردت في القرآن ثلاث مرات، في موضعين:قال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى** ...﴾[3].

مضغة اسم مشتق على وزن فُعْلَة من مَضَغَ، و«الميم والضّاد والغين أصل صحيح، وهو المضغ للطّعام، ومَضَغَهُ يَمْضُغُهُ، والمِضَّاغ: الطَّعام، يمضغ والمضاغَةُ: ما يبقى في الفم مما يمضغ، والمضغة: قطعة لحم، لأنها كالقطعة التي تُؤْخَذُ فتمضغُ»[4]، وجاء في لسان العرب: «مَضَغَ يمضَغُ مضغًا، لاك... والمِضَاغُ بالفتح: الطعام يمضغ، وقيل: هو المضغ نفسه... والمِضَاغ بالضمّ: ما مضغ، والمضاغة ما يبقى في الفم من آخر ما مضغته... والمواضع: الأضراس لمضغها، صفة غالبة... والمضغة: القطعة من اللحم لمكان المضغ أيضا: المضغة قطعة لحم، وقيل: تكون المضغة غير اللّحم... وقال خالد بن جنبة: المضغة من

1- صحيح مسلم، ج 01 /252.

2- فقه اللغة وخصائص العربية/261.

3- الحج ، الآية/05.وينظر:المؤمنون، الآية/14

4- مقاييس اللغة، مادة (مضغ).

اللحم قدر ما يلفي الإنسان فيه، ومنه قيل في الإنسان: مضغتان إذا صلحتا صلح البدن: القلب واللسان، والجمع مُضَغٌ، وقلب الإنسان مضغة من جسده، إذا صارت العلقة التي خلق منها الإنسان لحمة فهي مضغة»[1].

من خلال المدلول المعجمي لمفردة "مضغة" يمكن تحديد القيمة الدلالية لها كمصطلح استخدمه القرآن للتعبير في هذه المرحلة عن تكوين الجنين من الأوجه التالية:

أولاً: التّوافق بين صيغة (فعلة) في دلالتها على الصغر، وبين حجم المضغة أي مقدار حجم ما يلقي به الإنسان في فمه للمضغ في المرة الواحدة وبين حجم الجنين في هذه المرحلة، يقول هارون يحي في كتابه معجزة خلق الإنسان: «عند انتهاء الأسبوع الثّالث للحمل تكون الخلايا المتكاثرة بفعل الانقسامات قد تحولت إلى قطعة من اللحم بقدر مضغة»[2]، وقد عبَّر الرّسول صلى الله عليه وسلّم عن القلب بالمضغة فقال: «ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب»[3].

وسبحان الله حتى هذه المضغة التي تحدث عنها الرّسول صلى الله عليه وسلّم، فإنّها أوّل جهاز يبدأ في العمل مع نهاية مرحلة العلقة، وبداية مرحلة المضغة، ففي «اليوم الثاني والعشرين يبدأ القلب دقته الأولى[4]»، وهذا من لطائف الإعجاز في خلق الإنسان وفي البيان القرآني.

ثانيا: التّوافق من حيث الشّكل: بما أنّ المضغ يكون بواسطة المواضغ أي الأضراس فلا بدّ من وجود آثار شكل هذه الأضراس على المضغة، وفي مرحلة المضغة الجنينية يبدأ تشكل أعضاء الإنسان على شكل نتوءات غضروفية، مما يعطيها شكل المضغة.

---

[1]- تهذيب اللغة، مادة (مضغ).

[2]- معجزة خلق الإنسان، 119.

[3]- صحيح البخاري، 20/01.

[4]- المرجع السابق/120 .

وبهذا تكون قد اجتمعت الدلالة الصوتية لهذه المفردة مع صيغتها الإفرادية ودلالتها المعجمية في التعبير عن حجم وشكل الجنين في هذه المرحلة. ويمكن القول إنّ هذه الدلالات تشترك في تحديد التصور العلمي لمرحلة المضغة الجنينية، وهو ما سيتضح معنا في الفصل الرابع من خلال مقابلة هذه الدلالات بالحقيقة العلمية لهذه المرحلة.

العظام:

ذكرت في القرآن العظيم سبع مرات[1]، والموضع الوحيد الذي عبَّرت فيه عن المرحلة الرابعة من مراحل تكون الجنين في قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿**فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا**...﴾[2].

العظام: صيغة جمع، مفردها: العَظْمُ، «(عَظَمَ) الْعَيْنُ وَالظَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى كِبَرٍ وَقُوَّةٍ. فَالْعِظَمُ: مَصْدَرُ الشَّيْءِ الْعَظِيمِ. تَقُولُ: عَظُمَ يَعْظُمُ عِظَمًا، وَعَظَّمْتُهُ أَنَا. فَإِذَا عَظُمَ فِي عَيْنَيْكَ قُلْتَ: أَعْظَمْتُهُ وَاسْتَعْظَمْتُهُ. وَمُعْظَمُ الشَّيْءِ: أَكْثَرُهُ. وَعَظْمَةُ الذِّرَاعِ: مُسْتَغْلَظُهَا»[3].

ينمو الجنين ويتطور تدريجيا ابتداءً من خلية واحدة إلى أن يصل إلى كتلة متلاحمة وهذه الأخيرة تكبر في الحجم، وتقوى في البنية إلى أن يتشكل الهيكل العظمي للإنسان، الذي يتكون من مجموعة من العظام، من خلال كيفية بنائها يبدأ المظهر الإنساني في التمايز والنّص القرآني يبين لنا أنّ مرحلة العظام تأتي بعد مرحلة المضغة، وأنّ المضغة قد تكونت لديها عناصر هيكلية، وهكذا فإنّ القرآن كعادته في إيراد الكلمات المحددة يطلق اسم "العظام" على هذه المرحلة التي تلي المضغة، حيث يأخذ الجنين شكل العظام بانتشار الهيكل العظم في هذه المرحلة، فجمع العظم في دلالته على الكبر والقوة بين خصائص العظم في حجمه وطبيعة بنيته.

[1]- البقرة، الآية/259، يس، الآية/78، الإسراء، الآية/98، النازعات، الآية/11، المؤمنون، الآية/14. (ذكرت فيها مرتين)

[2]- المؤمنون، الآية/14.

[3]- مقاييس اللغة، مادة (عظم).

اللحم:

في تعاقب سريع تأتي مرحلة كسوة العظام باللحم، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا**﴾[1]، إنّها آخر مرحلة في التكوين البدني للجنين عبّر عنها القرآن بجملة على خلاف المراحل التي سبقتها.

والكسوة في اللغة: «كسا: الكِسْوَةُ والكُسْوَةُ: اللِّبَاسُ، وَاحِدَةُ الكُسا؛ قَالَ اللَّيْثُ: وَلَهَا معانٍ مُخْتَلِفَةٌ. يُقَالُ: كَسَوْت فُلَانًا أَكْسُوه كِسْوَةً إذا أَلبسته ثَوْبًا أَو ثِيَابًا فاكْتَسَى. واكْتَسَى فُلَانٌ إذا لبَس الكِسْوَة »[2]، أمّا اللحم فيدلّ بلفظه على معناه يقول ابن فارس: «اللام والحاء والميم أصل واحد صحيح يدل على تداخل، كاللحم الذي هو متداخل بعضه في بعض»[3].

إنّ التعبير القرآني تعبير دقيق جدا على الرغم من دلالة الكسوة على اللباس إلاّ أنّه استعمل (كسونا)، ولم يقل (ألبسنا) لماذا؟ لأنّ اللباس بدلالته اللغوية الدقيقة يفيد معنى التداخل والمخالطة[4]، وهذا المعنى لا يستقيم مع كيفية خلق اللحم على العظام، فالمقصود في هذا الموضع بكسونا: تغطية الهيكل العظمي للإنسان جملة بهذه الخلايا المتلاحمة، والتي تختلف في بنيتها عن خلايا العظم[5]، فالكسوة أكثر دلالة على الشمول وعلى العناية الإلهية بهذا المخلوق الضعيف، فاختار للتعبير عن ذلك من الأفعال ما يدلّ بعض أسمائه على التغطية –الأكسية– وهو ما فوق جسم الإنسان، فليس هناك عظم دون غطاء. بينما اللباس وإن كان من الكسوة، إلاّ أنه قد يطول وقد يقصر، وقد يشف وقد يستر، كما أنّ استعماله قد يوقع لُبسا بين المعنى المعجمي لمادة (لبس)، وبين التصوير القرآني لكسوة العظام باللحم.

---

[1]– المؤمنون، الآية/14.

[2]– لسان العرب، مادة (كسا).

[3]– مقاييس اللغة، مادة (لحم).

[4]– المرجع نفسه، مادة (لبس).

[5]– إعجاز القرآن في ما تخفيه الأرحام وما جاء في علم الوراثة والرضاعة وبدء الخلق/ 323.

فالتعبير القرآني يحفظ للكلمة ما دلّ عليه أصلها في اللغة، فاستعماله للباس لم يخرج عن دلالة المخالطة والتداخل، حتى في تعبيره بها عن المعقولات، فكانت دلالتها المعجمية مدخلا لإدراك مقصدية الخطاب القرآني في المواضع التي استعملت فيها كقوله تعالى في التعبير عن جوهر العلاقة الزوجية: ﴿**أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ**﴾[1]، فلباس ناسبت طبيعة هذه العلاقة.

من خلال المراحل الجزئية لمرحلة تكوين الجنين، نلاحظ أن التعابير المفتاحية لهذه المرحلة كانت تعبِّر بدقة عن الملمح الفيزيولوجي لها؛ لأنّه في المراحل الأولى (النطفة، العلقة، المضغة) عندما كانت عبارة عن انقسامات للخلية الأولى وتكتلها في لحمة واحدة صغيرة الحجم عبّر عنها بكلمات مفردة تدلّ بنيتها (فعلة) على حجمها وشكلها، وقد قامت هذه المفردات في التعبير القرآني مقام المصطلحات العلمية في مجال علم الأجنة.

أمّا المراحل التي كان فيها تفصيل لهذا المخلوق، عبَّر عنها بتراكيب (مضغة مخلّقة وغير مخلّقة/ فكسونا العظام لحما) فما كان في هذين المرحلتين من تمظهر للخلقة الإنسانية احتاج إلى زيادة في التركيب، فوافق التركيب الفيزولوجي في خلق الإنسان، التركيب اللغوي في التصوير القرآني له، ولقد راعى القرآن حتى مواضع هذه التراكيب، فاستخدمها في الآيات المفصلة لخلق الإنسان، بينما اعتمد على مصطلحات دقيقة تجمع في دلالتها بعض المراحل الجزئية السّابقة كمصطلح التّسوية.

[1]- البقرة، الآية/187.

وقبل ذكر الآيات التي ذكر فيها فعل التّسوية، وما يدل عليه لا بدّ أولا من استحضار المدلول المعجمي للأصل اللغوي لهذا الفعل، يقول أحمد بن فارس: «السين والواو والياء أصل واحد يدل على استقامة واعتدال بين شيئين»[1]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾[2]

الإنسان جملة من الأعضاء منها الظاهرة ومنها الباطنة، والسِّمة التي تميِّز الأعضاء التماثل في الأنصاف والأطوال والأحجام والأشكال والألوان، يقول الزمخشري في هذه الآية: «فَسَوَّاكَ فجعلك سويًّا سالم الأعضاء فَعَدَلَكَ فصيّرك معتدلا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، ولا بعض الشّعر فاحما وبعضه أشقر. أو جعلك معتدل الخلق تمشى قائما لا كالبهائم. وقرئ: فعدلك بالتخفيف. وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون بمعنى المشدّد، أي: عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت. والثاني فَعَدَلَكَ فصرفك. يقال: عدله عن الطريق يعنى: فعدلك عن خلقة غيرك وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق. أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيئات»[3].

بما أنّ دلالة الاستقامة والاعتدال قائمة في لفظة سواك وهي صفة قائمة في بناء الأبدان، وبما أنّه ذكر (عدلك) عقب (سواك) رابطا بينهما بفاء الترتيب والتعقيب للدلالة على التتابع السريع؛ فالمرجّح أن تكون (عدلك) بالتخفيف[4]، فيكون العدول بمعنى الصرف نتيجة حتمية لفعل التسوية، أي أنه بتسوية هيئته في أحسن تقويم صرفه عن غيره من الخلق كالبهائم، فتميز بالخلقة الحسنة، ثم صرف هذه الخلقة إلى ما شاء من الصور (الحسن أو القبيح، أو الطويل أو القصير)، فقال تبارك وتعالى:﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا

[1]- مقاييس اللغة، مادة (سوي).

[2]- الانفطار، الآية/07.

[3]- الكشاف،04/ 716.

[4]- قرأها الأعمش وعاصم: "فعدلك مخففة"، وقرأها أهل الحجاز: "فعدَّلك" مشددة (معاني القرآن للفراء، 244/03).

شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾[1]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾[2].

إذن؛ فالتسوية عملية تتعلق بهيئة خلق الإنسان ومن خلال دلالتها واستعمالها في التعبير القرآني، فإنها تبدأ مع عملية تخليق المضغة، لقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ**﴾[3]،

جاء في فتح القدير: «ثم سواه: أي الإنسان الذي بدأ خلقه من طين وهو آدم أو جميع النّوع، والمراد أنّه عدَّل خلقه وسوَّى شكله، وناسب بين أعضائه ونفخ فيه من روحه»[4]، والتسوية تكون بعد تطور الخلية الأولى، بعد مدة زمنية ليست بقصيرة، ودلَّ عليها مجيء (ثم) رابطا بين الآيتين، وهو ما يفصِّله قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ...»[5].

وبعملية حسابيّة بسيطة بجمع الأربعين يوما الثالث يكون نفخ الروح بعد مئة وعشرين يوما، وهنا تكون مرحلة التسوية قد انتهت باكتمال الجنين على الهيئة الآدمية وتبدأ مرحلة النشأة.

---

[1]- الانفطار، الآية/08.

[2]- آل عمران، الآية/06.

[3]- السّجدة، الآية/08-09.

4- فتح القدير، 288/04.

[5]- صحيح البخاري، 133/04. صحيح مسلم، 04/ 2036.

- **2- 3-المرحلة الثالثة: مرحلة النّشأة:**

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾[1]. النشأة كمرحلة جنينية تبدأ عند نفخ الروح، واستمرار نموّ الجنين إلى غاية الشّهر التّاسع؛ ومن النّاحية اللغوية، فقد أصَّل أحمد بن فارس لهذا الفعل، فقال: « (نَشَأَ) النُّونُ وَالشِّينُ وَالْهَمْزَةُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ فِي شَيْءٍ وَسُمُوٍّ. وَنَشَأَ السَّحَابُ: ارْتَفَعَ»[2]، وهو معنى تجتمع عليه دلالة أصوات (نشأ) فالظهور –دلالة النون[3]– الممتدّ– الامتداد دلالة الشين[4]– نحو همزة على الألف يدل على سمو هذا الشّيء ونموّه.

ولقد ذكر الطبري في تفسيره اختلاف أهل التّأويل في تأويل قوله تعالى: « (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) يقول: خرج من بطن أمّه بعد ما خلق، فكان من بدء خلقه الآخر أن استهل، ثم كان من خلقه أن دُلّ على ثدي أمّه، ثم كان من خلقه أن علم كيف يبسط رجليه إلى أن قعد، إلى أن حبا، إلى أن قام على رجليه، إلى أن مشى، إلى أن فطم، فعلم كيف يشرب ويأكل من الطعام، إلى أن بلغ الحلم، إلى أن بلغ أن يتقلّب في البلاد. حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال: يقول بعضهم: هو نبات الشعر، وبعضهم يقول: هو نفخ الروح. حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، مثله. حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد، قال: سمعت الضحاك: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال: يقال الخلق الآخر بعد خروجه من بطن أمه بسنه وشعره. وقال آخرون: بل عنى بإنشائه خلقا آخر: سوَّى شبابه»[5]، ويرى الطبري أن أصوب هذه الأقوال ما «عنى بذلك نفخ الروح فيه، وذلك أنّه بنفخ الروح فيه يتحول خلقا آخر إنسانا، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنّه كان بها، من نطفة

---

[1]- المؤمنون، الآية/14.

[2]- مقاييس اللغة، مادة (نشأ).

[3]- الدلالة الصوتية في اللغة العربية/151.

4- المرجع نفسه/ 155.

[5]- جامع البيان في تأويل القرآن، ج 19/17-18

وعلقة ومضغة وعظم وبنفخ الروح فيه، يتحوّل عن تلك المعاني كلّها إلى معنى الإنسانية، كما تحوّل أبوه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خلق منها إنسانا، وخلقا آخر غير الطين الذي خلق منه»[1].

على اختلاف هذه الأقوال، إلاّ أنّه يمكن من خلالها الخروج بوجه دلالي عام، هو استمرارية نمو هذا الكائن الحي ابتداءً من نفخ الرّوح فيه إلى غاية مراحل نموّ الإنسان بعد الولادة، وهذا المعنى يستند على الدلالة المعجمية لمفردة (أنشأنا)، وعلى رتبتها في التعبير القرآني بين مراحل الخلق، فتُعتبر في سورة المؤمنون نهاية المرحلة الجنينية، وبداية لمراحل عمر الإنسان بعد الولادة، ويؤكد هذا المعنى انصراف التعبير القرآني في الآية الخامسة من سورة الحج عن استخدام ذلك التعبير (أنشأنا) إلى ذكر كيفية ولادة الإنسان وما يبلغه من مراحل بعدها، فكأنه فسَّر قوله: (أنشأناه خلقا آخر) بقوله: ﴿**ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ**﴾[2]، وقال في سورة غافر: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧**﴾[3].

نخلص في نهاية هذا المبحث إلى ما يأتي:

- المفردات المستعملة في التّعبير القرآني للدلالة على أطوار خلق الإنسان بكلياتها وجزئياتها تجتمع دلالتها المعجمية ودلالتها الصوتية والصرفية في تشكيل المفهوم القرآني الخاص بكلّ مرحلة، وجمع هذه المفاهيم حسب الترتيب القرآني لمواضع هذه المراحل في الآيات المجملة والمفصلة يعطينا التصور القرآني لعملية خلق الإنسان كما هي محققة في الواقع.

[1]- المرجع نفسه، ج19/ 18- 19.
[2]- الحج، الآية/05.
[3]- غافر، الآية/67.

– توظيف هذه المفاهيم القرآنية لمراحل خلق الإنسان جعل التعبير المفتاحي لكلّ مرحلة يرقى بالمفردة العربية إلى مستوى المصطلح العلمي، دون زيادة على لفظها ومحددات هذا المصطلح السياق.

– شمولية المفردة القرآنية لخصائص كلّ مرحلة، فكلّ وجه من أوجه دلالتها اللغوية يتوافق مع أحد خصائص هذه المرحلة، فيدلّ على كمّها أو كيفها أو قوامها.

– الروابط المستخدمة في التعبير عن مراحل خلق الإنسان تعكس الفاصل الزمني بين كل مرحلة ومرحلة في الواقع.

3- دلالة التعبير القرآني على الذات الإنسانية:

يختص الإنسان إلى جانب بشريته بجملة من الخصائص المعنوية التي يتمكن من خلالها «التعامل مع الكون، ومع ربّ الكون بما ركّب فيه من روح وعقل وحواس، وقوى وطاقات تناسب ازدواج عناصر تكوينه»[1]، ازدواجية في كليتها الكبرى تتمثل في ثنائية (الجسد والرّوح)، فكلّ جزئية من هذه الثنائية تحمل خصائص المصدر الذي وجدت منه، وهو ما يمكّن الإنسان من إدراك العوالم المادية والمعنوية التي تحيط به، فتنوع المحسوسات في المحيط المادي –على سبيل المثال– يقابله تنوع الحواس عند الإنسان، أمّا الرّوح فهي من الرّوح الإلهية وتظهر من نزوع الإنسان بفطرته إلى بلوغ درجات الكمال الأخلاقي والإبداعي.

وفي إطار هذه الثنائية تتجلى الذات الإنسانية من خلال جوهرين معنويين تقوم على أساسهما الحياة الإنسانية، وهما العقل والنّفس، فالإنسان ظاهر وباطن، باطنه ذاته الإنسانية المشكّلة من ثلاثية متدرجة في الترتيب أعلى مراتبها: الرّوح، ثم العقل، ثم النّفس، وتتميز كلّ واحدة منها بجملة من الخصائص والصفات، تظهر من خلال مواقف الإنسان وتصرفاته.

لقد كانت الذات الإنسانية موضوع الكثير من الآيات القرآنية، وكان للقرآن –كعادته– منهج متميز في عرضها وفي الكشف عن دقائقها، وفي محاولتنا للكشف عن دلالات هذه الكليات الثلاث في القرآن،

1– مقومات التصوير الإسلامي/ 370.

سأقدم النّفس على العقل لوجود إشكال دلالي بين الرّوح والنّفس في المدلول العام، ونظرا لعلاقة العقل بموضوع الفصل الرابع.

3-1- الرّوح:

إنّ الرّوح أمر إلهي، شاء المولى عزّ وجلّ أن يحتفظ بحقيقتها، فحسم في كتابه أمر السّؤال عنها فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1].

و من خلال استخدامها في القرآن يمكن تحديد بعض سماتها التي تدفع عنها اللبس القائم في مدلولها اللغوي بينها وبين النّفس، يقول الخليل بن أحمد في معجمه: «الرّوح: النّفس التي يحيا بها

البدن، يقال خرجت روحه، أي: نفسه...»[2].

وقد جمع الزبيدي في تاج العروس كلّ المعاني التي جاء بها أصحاب اللغة عن الروح، ومعانيها في القرآن، فقال: «الروح، بالضم: النَّفْسُ، وفي (التهذيب): قال أبو بكر بن الأنباري: الروح والنفس واحد، غير أن الروح مذكّر، والنفس مؤنثة عند العرب، وفي التنزيل (ويسألونك عن الرّوح...) وتأويل الرّوح أنه (ما به حياة الأنفس)... ومنع أكثر الأصوليين الخوض فيها لأن الله أمسك عنها فنمسك، وروى الأزهري بسنده عن ابن عبّاس في قوله: (ويسألونك عن الروح) ، إنّ الرّوح قد نزل في القرآن بمنازل، ولكن قولوا كما قال تعالى: «قل الروح من أمر ربي»، وقال الفراء: الروح هو الذي يعيش به الإنسان، لم يخبر الله تعالى به أحدا من خلقه ولم يعط علمه العباد. قال: وسمعت أبا الهيثم يقول: الروح إنما هو النفس الذي يتنفسه الإنسان وهو جار في جميع الجسد، فإذا خرج لم يتنفس بعد خروجه، فإذا تم خروجه بقي بصره شاخصا نحوه حتى يغمّض... وقال ابن الأثير: وقد تكرر ذرك الرُّوح في القرآن والحديث، ووردت فيه معان، والغالب منها أن المراد بالروح الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة وقد أطلق على القرآن

1- الإسراء، الآية/ 85.

2- العين، مادة (روح).

والوحي، وعلى (جبريل) في قوله: (الروح الأمين)، وهو المراد بـ(روح القدس)، والروح: عيسى عليه السلام، والرُّوح: النفخ سمي روحا لأنه ريح يخرج من الرُّوح»[1].

ما نستخلصه من هذا القول أنّ: الروح أصل ثلاثي يستعمل بضم الفاء، وبفتحها وكلاهما مذكور في القرآن، أما التي بالضم ففيها عدة معان، أما التي بالفتح فهي بمعنى الاستراحة من غم القلب[2]، أو الفرج.

وبما أن المفردة العربية لها أصل ثابت لا تخرج عنه فروعها وإن دلت على معنى آخر، فتبقى تشير إلى معناها الثابت سواء كانت مفردة أو مركبة.

وبالعودة إلى الرّوح وما دلّ عليه أصلها في اللغة نجد أنّ: «الرّاء والواو والحاء أصل كبير مطرد يدل على سعة وفسحة وإطراد»[3]، فهل توافق هذه الدلالات دلالة النّفس في أصلها؟! ما دامت النّفس هي الرّوح كما يرى بعض أهل اللغة فإذا كانت النّفس في أصل اللغة هي «خروج النّسيم كيف كان من ريح أو غيره»[4]، ولا تتعدى في مخارج حروفها الشّفاه والأسنان، واللّثة واللسان، فهي تلوح بنفس العمق الذي تدل عليه الروح باتجاه مخارجها نحو الداخل -الحلق- بالإضافة إلى اجتماع المدّ الواوي مع حرف الرّاء التكراري الدّال على ديمومة الحدث[5] -والرّوح لا تفنى- وانتهاء الروح بالحاء التي تصور معنى السّعة بلفظها ووقعها في السّمع[6].

فلا يوجد من أصوات الرّوح ما يدل على الظهور بينما عملية خروج ودخول النّفس -فيزيولوجيا- ملحوظة تدركها الأبصار، وتدل على ذلك بلفظها لاجتماع النّون والفاء في تركيبها وهي من الأصوات

1- تاج العروس، ج06/407-408.
2- تهذيب اللغة، ج05/ 139.
3- مقاييس اللغة، مادة (روح).
4- المرجع نفسه، 460/05.
5- فقه اللغة وخصائص العربية / 101.
6- أشتات المجتمعات/ 44.

العربية التي تدل على الإبانة والوضوح والظهور بالإضافة إلى السّين التي تشاكل بصفيرها المهموس عند إخراجها صوت النّفس.

من خلال دلالة أصل كلّ منهما، وعدم اشتراكهما في دلالة أصواتهما، فكيف يمكن أن تكون الرّوح هي النّفس، وقد توصلنا سابقا أنّ القرآن يحفظ للمفردة العربية قيمتها الدلالية التي يدل عليها أصلها في اللغة، وعند استخدامه لها يعزز هذه الدلالة الأصلية ويضيف إليها معنى قرآنيا يتوافق معها.

وقد استخدم القرآن هذا الأصل الثلاثي (روح) في موضع يدل على السّعة؛ سعة الرحمة الإلهية، فقال على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿**يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧**﴾[1]، ولقد عاب ابن سيدة في المخصص على الخليل إطلاق النّفس على الرّوح في كتابه العين ويرى أنّ «بينهما فرق لا يليق بهذا الكتاب»[2]، ولم يتعرض ابن سيدة لمعنى الروح، وذكر أنّ اطراد هذه السّعة –دلالة أصل الرّوح- يدل على بقائها وعدم زوالها، وهذا المعنى سمة قائمة في جميع ما أطلق عليه لفظ الرّوح في القرآن الكريم، وهذه المنازل هي:

- القرآن أو الوحي، قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢**﴾[3]، جاء في الكشاف: «روحا من أمرنا يريد: ما أوحى إليه، لأنّ الخلق يحيون به في دينهم كما يحيى الجسد بالرّوح»[4].

1- سورة يوسف، الآية/87.
2- المخصص، ج 01 / 179.
3- سورة الشورى، الآية/52.
4- الكشاف،ج 234/04.

- جبريل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾[1]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾[2].
- عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾[3].
- ما ينفخ في الجنين بعد مرحلة التسوية، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾[4]، وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾[5].

ونفخ الرّوح في الجسد الإنساني عند اكتمال التسوية، إشارة إلى أنّ الاستقامة والاعتدال مثلما كانت مطلبا أساسيا في بناء الأجسام لحدوثها، فإنّها إشارة إلى وجوب وجودها في بناء النّفس الإنسانية لبلوغها مرتبة الرّوح، لأنّ الرّوح من خلال استعمالاتها في القرآن تكون عند الحدّ الأعلى من الكمال.

ولقد كان القرآن دقيقا في تصوير مواطنها، فما من موضع ذكرت فيه إلاّ وكان أحد عناصر الكمال الأخلاقي مع الله يلقي بظلاله على الآية، فمثلا عند ما يحدّثنا القرآن عن خلق عيسى وأنّه من روح الله، يكون ذلك مع وصفه لعفة مريم يقول: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا

1- النحل، الآية/102.
2- الشعراء، الآية/193.
3- التحريم، الآية/12.
4- ص، الآية/ 72 .
5- السّجدة، الآية/ 09 .

﴿وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]، وبالإضافة إلى العفة يصفها -مريم- بالقنوت في آخر الآية الثانية عشرة من سورة التحريم.

وعند ذكر جبريل بلفظ الروح كانت لفظة سويا خاتمة الآية في قوله: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾﴾[2]، وصفه بالأمين، وأضاف القداسة إلى روحه.

كما صور القرآن حركة الروح من خلال إسنادها إلى أفعال دلّت على أنّها -الروح- من العوالم العليا والشّريفة، فبتأمل قوله تعالى في المواضع الآتية:

﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾[3].

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾[4].

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾[5].

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾﴾[6].

إسنادها إلى النزول يدلّ على عِلّيتها، وقد يقول القائل هنا إنّ المقصود بها في هذه الآيات من خلال التفاسير جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة فما علاقة صورتها هذه بصفة الرّوح التي تنفخ في جسد

1- الأنبياء، الآية/91.
2- مريم، الآية/17.
3- النحل، الآية/102.
4- الشعراء، الآية/193.
5- النحل، الآية/02.
6- القدر، الآية/04.

الإنسان؟ خاصة أنّ هذه الأخيرة بعض من الرّوح الإلهية بدلالة مجيئها مسبوقة بمن في التعبير عن خلق آدم وعيسى عليهما السّلام، وفي خلق الإنسان عموما.

لقد عبَّر المولى عزّ وجلّ عن هذه الرّوح في جسم الإنسان بعد مرحلة التّسوية، وهذا فعل يتوافق في دلالته مع مرتبة نفخ الرّوح في القرآن الكريم، والنّفخ في اللغة أصل صحيح يدل على انتفاخ وعلوّ[1]، لماذا لم يقل: "بعثت أو وزعت أو بثثت" هذه الأفعال التي قد تدل على انتشار الروح في الجسد (النفخ) إنه الفعل الوحيد الذي يتناسب مع طبيعة الروح التي لا تُبلغ إلاّ بالرقيّ، والذي يكون فيه الاتجاه نحو الأعلى من الصفات عندها فقط يمكن أن يدرك الإنسان ماهيتها.

إنّ هذا الاستعمال يدل على التّناسق في التعبير القرآني على مستوى الموضوع الواحد في القرآن الكريم؛ تناسق يقوم على التداعي الدلالي بين الألفاظ التي تشترك في رسم الملامح العامة للمدلول الكوني في التصوير القرآني، بما يتناسب مع طبيعة حصول هذا المدلول في الواقع المادي أو المعنوي.

3-2- النّفس:

قبل التعرض إلى النّفس في القرآن الكريم دلالاتها وأقسامها وصفاتها نتعرف على ماهية النّفس في اللغة.

النّفس في اللغة: جاء في معجم العين: «النّفس وجمعها النّفوس لها معان: النّفس: الروح الذي به حياة الجسد، وكلّ إنسان نفس حتى آدم عليه السلام، الذكر والأنثى سواء، وكلّ شيء بعينه نفس، ورجل له نفس أي: خلق وجلادة وسخاء. والنّفس: التنفس: أي خروج النسيم من الجوف، وشربت الماء بنفس وثلاثة أنفاس، وكلّ مستراح منه نفس»[2]، وفي التهذيب: «النّفس في كلام العرب على وجهين: أحدهما: قولك: خرجت نفس فلان أي روحه، ويقال: في نفس فلان أن يفعل كذا وكذا، أي في روعه، والضرب الأخير معنى النّفس حقيقة الشيء وجملته، يقال: قتل فلان نفسه، والمعنى أنه أوقع الهلاك بذاته كلّها،

1- مقاييس اللغة، مادة (روح).

2- العين، مادة (نفس).

وقال الزجّاج: لكلّ إنسان نفسان: إحداهما نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل بها يتوفاها الله كما قال جلّ وعزّ، والأخرى نفس الحياة، وإذا زالت زال معها النّفس، والنائم يتنفس، قال: وهذا الفرق بين تَوَفي نفس النائم في النوم وتَوَفي نفس الحي... والنّفس: عين الشيء، وكنهه وجوهره، والنّفس: العين التي تصيب المعين، والنّفس: الدم، والنّفس: قدر دَبْغة، والنّفس: الماء، والنّفس: الفرج من الكرب»[1].

من خلال ما جاء في معاجم اللغة، فإنّ (نفس) أصل لغوي واحد ينقسم حسب حركة عينه إلى قسمين: نَفَسٌ، نَفْسٌ. الأول: نَفَس: هو ما دلّ على خروج النّسيم كيف كان[2]، ومنه النَّفَسُ: المستراح والفرج، وهو ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبّوا الرّيح فإنّها من نفس الرحمن»[3]، والمقصود أنّها رَوْح يُتَنَفَّس به عن المكروبين[4]، ومنه ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»[5]، وجمع النَّفَس: أنفاس، إذن فمفردة نَفَس بالتحريك، ومفردة رَوْحُ بالتّسكين تشتركان في الدلالة على السّعة.

أمَّا النَّفْس بالتّسكين فقد أحصى الزبيدي لها من كلام أهل اللغة «خمسة عشر معنى، وهي: الرّوح، والدّم، والجسد، والعين، والجند، والحقيقة، وعين الشّيء، وقدر دبغة، والعظمة، والعزّة، والهمّة، والأنفة، والغيب، والإرادة، والعقوبة»[6]. وكلّ هذه المعاني متعلقة بذات الشّخص من جهة ما يدل على كينونته المادية —الدّم والجسد– فإن فنت يفنى، أو من جهة ما يصدر عن أناه من تصرفات تدلّ على إنسانيته —المعاني المعنوية– أمّا معنى الروح ففيه اختلاف، سبق وأن بيَّنا ما يختص به كلّ لفظ بدلالة لفظه عليه.

1- تهذيب اللغة، مادة (ن ف س).
2- مقاييس اللغة، مادة (ن ف س).
3- السنن الكبرى للنسائي، 09/ 343.
4- مقاييس اللغة، مادة (ن ف س).
5- مسند الإمام أحمد بن حنبل، 12/ 393.
6- تاج العروس، مادة (نفس).

ولقد وضّح السّهيلي في كتابه "الرّوض الأنف في شرح السّيرة النبوية" سبب الوقوع في الخلط بين النّفس والرّوح، وذكر الفرق بينهما، حيث قال: «ومما يتصل بمعنى الرّوح وحقيقته أن تعرف هل هي النّفس أو غيرها، وقد كثرت في ذلك الأقوال واضطربت المذاهب فتعلّق قوم بظواهر من الأحاديث لا توجب القطع لأنّها نقل أحاد، وأيضا فإنّ ألفاظها محتملة للتأويل ومجازات العرف واتساعاتها في الكلام كثيرة، فما تعلقوا به في أن الرّوح هي النّفس، قول بلال[1]: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، مع قول النبي عليه السلام: «إن الله قبض أرواحنا»[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ**﴾[3]، والمقبوضة هي الأرواح، ولم يفرّقوا بين القبض والتّوفي، ولا بين الأخذ في قول بلال... وقد روى أبو عمر[4] في التمهيد حديثا يدلّ على خلاف مذهبه في أنّ النّفس هي الرّوح لكن علّله فيه أنّ الله خلق آدم وجعل فيه نفسا وروحا، فمن الرّوح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفاؤه، ومن النّفس شهوته وطيشه وسفهه وغضبه، وهذا الحديث معناه صحيح إذا تُؤُمِّلَ صحّ نقله أو لم يصح، وسبيلك أن تنظر في كتاب الله أولاً، لا إلى الأحاديث التي تنقل مرّة على اللفظ ومرة على المعنى، وتختلف فيها ألفاظ المحدّثين فنقول قال تعالى: «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي» ولم يقل من نفسي... ولا خفاء فيما بينهما من الفرق في الكلام وذلك يدل على أن بينهما فرقا في المعنى... ولو كانت النّفس والروح اسمين لمعنى واحد كالليث والأسد لصحّ وقوع كلّ واحد منهما مكان صاحبه...»[5].

1- ينظر: صحيح مسلم، ج01 / 471، وموطأ مالك، ج02/ 19.

2- موطأ مالك، ج02/ 20.

3- الزمر، الآية/ 42.

4- أبو عمر يوسف بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت 463هـ)، صاحب كتاب التمهيد ما في الموطأ من المعاني والأسانيد.

5- الروض الأنف، ج03/ 96-97.

نخلص من قول السهيلي إلى أنّ المعيار الأول والأساسي لتحديد الفرق بين الرّوح والنّفس هو القرآن الكريم، وذكر نماذج من القرآن استخدم فيها الرّوح، ونماذج استخدمت فيها النّفس، وبيَّن عدم إمكانية أن يكون أحد اللفظين مقام الآخر.

ثمّ بين ماهية الرّوح وفي كونه سبب الحياة الأول في الجنين، مشبها إياه بأولية الماء في إحياء النبات، ويقول: «الرّوح مشتق من الرّيح وهو جسم هوائي لطيف به تكون حياة الجسد عادة أجراها الله تعالى... [و] باعتبار أوليته واعتبار النّفخة التي هي ريح فمادام الجنين في بطن أمّه حيا، فهو ذو روح، فإذا نشأ واكتسب ذلك الرّوح أخلاقا وأوصافا لم تكن فيه، وأقبل على مصالح الجسم كلفاً به وعَشِقَ مصالح الجسد ولذاته، ودفع المضار عنه سمي نفسا، فمن قال إنّ النّفس هي الرّوح على الإطلاق من غير تقييد فلم يحسن العبارة، وإنّما فيها من الروح الأوصاف التي تقتضيها نفخة المِلكِ والملك موصوف بكلّ خلق كريم»[1].

من خلال ما سبق يمكن القول: إنّ النّفس هي جملة من الخصائص والصفات المكتسبة في حياة الإنسان منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي، وكلّما نزع بعقله نحو الإيجابي منها كان أقرب إلى الرّوح، كما تدل النَّفْسُ بلفظها على الظهور، ولا يمكن تحديد نفس عن نفس إلاّ بظهور ما يعتورها من أفكار وأحاسيس وعواطف ومواقف ترقى بالإنسان إلى الرّوحية أو تنزل به إلى البهيمية.

– النّفس في القرآن الكريم:

على قدر عِظَم آيات الآفاق وكثرة استعمالها في القرآن للاستدلال بها على وجود الخالق و وحدانيته، كذلك يعطي القرآن آيات الأنفس نفس القدر، ويظهر ذلك جلياً من خلال قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ**

1- الروض الأنف، ج 03/ 98.

﴿شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[1]، وقولـه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2]، ونظرا لغلبة أوصاف الجسد وسلوكيات الإنسان على الرّوح أطلقت النّفس في القرآن الكريم للتعبير عن الإنسان جملة[3]. وقد وردت النّفس في القرآن الكريم في أكثر من مئتين وخمسة وعشرين موضعا بصيغ متعددة، ولضيق المقام أذكر نموذجا من كلّ صيغة:

- نفس؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ...﴾[4].
- النّفس؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[5].
- الأنفس؛ قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾[6].
- النّفوس؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾﴾[7].
- نفسي؛ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[8].

1- فصلت، الآية/ 53.
2- الذاريات، الآية/ 20-21.
3- الروض الأنف، ج03/ 100.
4- النساء، الآية/ 01.
5- النازعات، الآية/ 40.
6- الزخرف، الآية/ 71.
7- التكوير، الآية/ 07.
8- القصص، الآية/ 16.

- أنفسنا؛ قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[1].
- نفسك؛ قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[2].
- نفسه؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾[3].
- نفسها؛ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾[4].
- نفسا؛ قال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[5].
- أنفسكم؛ قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[6].
- نفوسهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾[7].

1- الأعراف، الآية/ 23.
2- الأعراف، الآية/ 205.
3- البقرة، الآية/ 207.
4- النحل، الآية/ 111.
5- المؤمنون، الآية/ 62.
6- البقرة، الآية/ 44.
7- يونس، الآية/ 44.

- نفوسكم؛ قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾[1].
- أنفسهن؛ قال تعالى: ﴿...فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

لقد اعتمد القرآن الكريم في عرض خصائص النّفس الإنسانية وأحوالها وصفاتها على منهج متميز يقوم على عرض نماذج بشرية، بحيث يجد المتلقي نفسه في أحد هذه النّماذج، أو في موقف من مواقفها، وهذا ما يجعل التعبير أكثر تأثيرا على النّفس، وهذا الأسلوب أكثر ملاءمة مع طبيعة النّفس الإنسانية التي لا تقبل النقد الصريح أو النصح المباشر، يقول سيد قطب: «إنّ القرآن يعرض أنماطا من نماذج النّفوس البشرية على نطاق واسع يشمل كلّ أنماط النّفوس البشرية في أصالتها الفطرية، وفي حالاتها المنحرفة كذلك في هداها وفي ظلالها، في رشدها وفي غيّها، في استقامتها وإعراضها، في ارتفاعها وفي هبوطها، في قوتها وفي ضعفها، في سرّها وعلانيتها، في فرديتها وفي جماعتها، في شتى صورها وأشكالها وأوضاعها وأحوالها... يعرض ذلك كلّه في حيز من التعبير يستحيل لو لم يكن من عند الله أن يسع هذا الحشد الكبير من الأنماط والنماذج، والأحوال والأطوار، وأن يصوّره في دقة وعمق لا يبلغها الأسلوب البشري ولا في أضعاف هذا الحيز من التعبير»[3]، فهو أسلوب يجمع بين الدقة والإيجاز في تصوير هذه النّفس في سياقات مختلفة وفق منهج تكاملي يجمع بين التربية والتعليم والتقويم والتنظيم.

1- الإسراء، الآية/ 25.
2- البقرة، الآية/ 240.
3- مقومات التصور الإسلامي/ 369.

- أقسام النّفس الإنسانية:

قال تعالى:﴿**وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠**﴾[1]، تعبّر هذه الآيات بإيجاز عن طبيعة النّفس البشرية، وما جبلت عليه من قدرة تمييزية بين الفجور والتقوى، دون إهمال القرآن لمنهج فاعليتها الإيجابية ونقيضها، وقد قال الله تعالى في سورة الإنسان: ﴿**إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣**﴾[2]، والتّسوية مبدأ قائم في الخلق من حيث تساويهم في مظاهر بشريتهم كما أنّها مبدأ قائم في عناصر فطرتهم.

فمعنى التّسوية في الآية السّابعة من سورة الشّمس لا يخرج عن دلالتها المعجمية على الاستقامة والاعتدال بين شيئين، وهنا يقع هذا الفعل على الاستعدادات الفطرية التي زوَّد الله بها الإنسان، فبناها على أساس التقابل بين الشّيء ونقيضه في كلّ نفس، والذي يدل على هذا الإطلاق مجيء النّفس نكرة ، ومن أوجه التنكير التكثير[3]، فقال تعالى: « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا» أي: «أي أيّ نفس جمع فيها سبحانه العالم بأسره. ولمّا كانت النّفوس أعجب ما في الكون وأجمع، عبّر فيها بالتسوية حثاً على تدبر أمرها للاستدلال على مبدعها للسعي في إصلاح شأنها فقال تعالى: (وما سوّاها) أي عدّلها على هذا القانون الأحكم في أعضائها وما فيها من الجواهر والأعراض والمعاني وعجائب المزاج من الأخلاط المتنافرة التي لاءم بينها بالتّسوية والتعديل فجعلها متمازجة»[4]، فقد فطر الله الإنسان على الخير والشّر وزوَّده بالحسّ السّليم لإدراك كلّ منهما، وعلى قدر نزوعه إلى أحدهما، والتّخلق بصفاته تكون نفسه تقية أو فاجرة، وقد اعتمد القرآن في أسلوب عرضه لطبيعة النّفس البشرية على التقابل اللفظي، وهو أسلوب بلاغي لبيان حقيقتين مختلفتين في نفس السّياق.

1- سورة الشمس/07-10.

2_ سورة الإنسان، الآية/03.

3- الكشاف، ج 595/07.

4- نظم الدرر، ج 75/22.

يقول سيد قطب في هذه الآيات: «ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكلّ معالمها..إنّ هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنّه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشّر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شرّ. كما أنّه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشّر سواء. وأنّ هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبّر عنها القرآن بالإلهام تارة: «وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها» .. ويعبّر عنها بالهداية تارة: «وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ» .. فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد.. والرّسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنّما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. ولكنّها لا تخلقها خلقا. لأنّها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً»[1].

إنّ هذه الآيات التي تعرض حقيقة النّفس الإنسانية في سياق يجمع بين صورة الكون التقابلية في مظاهره، ونماذج بشرية يتجلى من خلالها مصير النّفوس الخائبة، بأسلوب تربويّ إلهيّ بديع، يجمع بين «التسلسل الفكري والتناسق النفسي»[2] من خلال طرحه للمعاني الذهنية الخاصة بالنّفس ثم التّمثيل لها من خلال قوم ثمود.

فقد ذكر التّسوية كمفهوم عام، ثم كشف عن طرفيه في ثنائية ضدية (الفجور/ التقوى) وأوقع التّساوي بينهما في حدّ الإلهام الذي يدل بفعله على «إلقاء الشّيء في الرّوع، ويختصّ ذلك بما كان من جهة الله تعالى، وجهة الملإ الأعلى»[3]، فكان أنسب فعل للتعبير عن المعاني النفسية.

ولما كان الفجور مصدره النّفس الإنسانية والتقوى أقرب إلى الرّوح من النّفس، فلا يبلغها الإنسان إلاّ إذا تجّنب النّفس وشهواتها، قدَّم الفجور على التقوى في الذكر، وكون التقوى خاتمة لهذه الآية متناسب مع قوله تعالى في الآية التي بعدها: «قد أفلح من زكّاها»، فالتقوى لا تكون إلى بتزكية النّفس من كلّ أنواع الشّرور والآثام، وذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**﴾[4]، كما أنّ

---

[1]- في ظلال القرآن، ج 3917/06.

[2]- التصوير الفني في القرآن الكريم /89.

[3]- المفردات في غريب القرآن 748/01.

[4]- سورة الدخان، الآية/51.

قوله تعالى: «قد خاب من دساها» ومعنى دساها جعلها قليلة خسيسة تَناسب مع ذكره لقصة ثمود، وما اجترحوا من السّيئات، وكيف كانت عاقبتهم.

يعكس هذا التناسب جمالية التّناسق الفني في التعبير القرآني، تناسق يخلقه الانسجام الدلالي بين الألفاظ في معانيها ومبانيها، في إيقاعها وإيحاءاتها، كما تخلقه العبارات المختارة «لسبك تركيبها ووضوح معناها واتجاهه إلى الصراحة والتلميح، ولمناسبتها للغرض منها إيجازا وإطنابا، وحقيقة ومجازا، ولحسن جرسها، ثم لانسجامها مع بيئتها في السّياق...»[1]، بل يذهب الانسجام إلى أبعد من هذا الحدّ، ففي التّعبير القرآني انسجام بين المعاني المطروقة والأسلوب المتبع في طرحها ، ففي هذا الموضع من سورة الشّمس هناك توافق دلالي بين العبارة المفتاحية (تسوية النّفس) في دلالتها ودلالة صيغتها –الفعل الماضي المسبوق بما المصدرية– على الحكمة الإلهية القاضية بخلق الإنسان جسدا وروحا منذ زمن أبينا آدم، وما يتبعها من تصنيفات لاستعدادات النّفس الفطرية وأحوالها، وبين التّقابل اللفظي كأسلوب متبع يتّفق في دلالة أصل لفظة (قَبَلَ) على مواجهة الشيء بالشيء[2]، فالتسوية تستدعي دلالتها الاستقامة بين شيئين والتقابل المواجهة التفاعلية بين شيئين؛ فهناك انسجام بين الأسلوب القرآني ومعانيه دلالة ومنهجا، وبين خصائص النّفس البشرية تأسيسا وتكوينا، لذلك يعتبر القرآن «أعظم تحليل نفسي عرضه التاريخ لهذه النّفس، كيف لا يكون أعظم تحليل والذي أخبرنا بذبك خالق النّفس، والعالم بكنهها وأحوالها، ولا يخفى عنه ظاهرها ولا باطنها، فعلم الله محيط بهذه النّفس يعلم ما تسر وما تعلن»[3]. و لقد قسَّم القرآن الكريم النّفس البشرية إلى أقسام حسب سماتها الكلية، وهي: النّفس الأمّارة بالسّوء، والنّفس اللوّامة، والنّفس المطمئنة.

أ– النّفس الأمّارة بالسّوء:

قال تعالى: ﴿**وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴿٥٣﴾﴾[4]. قبل التعرض لعبارة (إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء) يجب معرفة السّياق الذي جاءت فيه؛ لقد

[1]– البيان في روائع القرآن/320.

[2]– مقاييس اللغة، مادة (قبل).

[3]– الإنسان الروح و العقل والنّفس /129.

[4]– سورة يوسف، الآية/53.

جاءت هذه الآية في قصة يوسف، وتختلف الرواية حول لسان قائلها، يقول الشوكاني: « وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنْ كَانَ مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْهَضْمِ لِلنَّفْسِ، وَعَدَمِ التَّزْكِيَةِ بِهَا مَعَ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ بَرِيءٌ، وَظَهَرَ ذَلِكَ ظُهُورَ الشَّمْسِ، وَأَقَرَّتْ بِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي ادَّعَتْ عَلَيْهِ الْبَاطِلَ، وَنَزَّهَتْهُ النِّسْوَةُ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ فَهُوَ وَاقِعٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا قَدْ أَقَرَّتْ بِالذَّنْبِ، وَاعْتَرَفَتْ بِالْمُرَاوَدَةِ وَبِالِافْتِرَاءِ عَلَى يُوسُفَ »[1].

إذن من خلال هذا النّموذج الإنساني في قصة يوسف عليه السلام حدّد القرآن ماهية النّفس الأمّارة بالسّوء، فهي «جنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسّوء لميله إلى الشّهوات وتأثيرها بالطبع، وصعوبة قهرها»[2]. ومجيء النّفس معرفة في هذا السياق مسبوقة بأن التوكيدية قرينة دالة على استغراق هذه النّفس لجميع الأنفس البشرية، ويؤكد تأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها مجيء (أمَّارة) على صيغة (فعَّالة) للدلالة على مبالغة هذه النّفس في إتيان الأفعال القبيحة كما تدل عليه لفظة السّوء.

ولولا رحمة الله ومغفرته لهلك ابن آدم، ومن رحمته بنا أن جعل في نفس كلّ ابن آدم مقابل هذه القوة الطاغية والضالة، قوة واعية أطلق عليها القرآن تعبير النّفس اللوامة.

ب- النّفس اللوامة:

وردت بهذا الاصطلاح في موضع واحد من سورة القيامة ﴿**لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢**﴾[3]، ويقول القرطبي في معناها: «ومعنى: بالنّفس اللوامة أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلاّ وهو يعاتب نفسه، قاله ابن عباس ومجاهد الحسن وغيرهم، قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يرى المؤمن إلاّ يلوم نفسه: ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه، وقال مجاهد: هي التي تلوم ما فات وتندم فتلوم نفسها على الشر لم فعلته وعلى الخير لم تستكثر منه، وقيل: إنها ذات اللوم، وقيل: إنها تلوم

1- فتح القدير، 42/03.

2-المرجع نفسه.

3- سورة القيامة، 02/01.

نفسها بما تلوم عليه غيرها، فعلى هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنى اللائمة وهو صفة مدح، وعلى هذا يجيء القسم بها سائغا حسنا»[1].

لقد جاءت هذه الصفة –اللوّامة– على وزن فعَّالة، فهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل لائمة وبالتالي فهي تدل بصيغتها على أنّها من تقوم بفعل اللوم أي العتاب، لذلك فأولى الوجوه بالتفسير ما قاله الحسن البصري: «والنّفس اللوامة، هى النّفس التي ترجع على صاحبها باللائمة لما يقع منه من إثم، وما يقترف من ذنب.. وهذا التلويم من شأنه أن يغيّر من وضع الإنسان القائم على الإثم، والمتجه إلى المنكر.. إنه قوة معارضة لهذا التيار الذي يدفع به إلى المنكر، وقد يتحول هذا التيار إلى الجهة المضادة لطريق الغواية المتجه إليه..وهذا ما يشير إليه»[2] قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[3].

وقد تناسب وصف النّفس بهذه الصفة مع ذكر يوم القيامة قبلها وما يختص به هذا اليوم من حساب وعتاب، وثواب وعقاب، كما أنّ وقوع اللوم في النّفس يكون نتيجة لحضور هذا اليوم في الذهن، كما أنّها رحمة إلهية لأنّه أمهل الإنسان فرصة محاسبة نفسه قبل يوم الحساب، فهي قوة الضمير التي إذا اجتمعت مع قوة الإيمان تحقق للنّفس الاطمئنان الذي توصف به يوم القيامة في نداء الرحمن لها: «يا أيتها النّفس المطمئنة».

ج– النّفس المطمئنة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾[4]، يقول الزجاج: «والمطمئنة التي اطمأنت بالإيمان وأخبتت إلَى رَبِّهَا»[5]، وتعددت الأقوال في معناها؛ فهي[1]:

[1]– الجامع لأحكام القرآن، ج 93/19.
[2]– التفسير القرآني للقرآن، ج 1313/15.
[3]– سورة المؤمنون / 60-61.
[4]– سورة الفجر / 27-28.
[5]– معاني القرآن للزجاج، ج 324/05.

المؤمنة الموقنة، والمصدّقة، والطائعة، وقيل هي: المطمئنة بذكر الله[2]، استنادا لقوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨**﴾[3]، وكلّ هذه المعاني تكفل لها النّجاة يوم القيامة لذلك فهي الآمنة من عذاب الله[4]، ولقد جاء ذكرها في الآيات الأخيرة من سورة الفجر بعد وصفه لمشاهد يوم القيامة.

يقول سيد قطب: «وفي وسط هذا الهول المروع، وهذا العذاب والوثاق، الذي يتجاوز كلّ تصور تنادى «النَّفْسُ» المؤمنة من الملأ الأعلى: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي» .. هكذا في عطف وقرب: «يا أَيَّتُهَا» وفي روحانية وتكريم: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ» .. وفي ثناء وتطمين.. «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» .. وفي وسط الشّدّ والوثاق، الانطلاق والرّخاء: «ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ» ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد. ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة.. «راضِيَةً مَرْضِيَّةً» بهذه النّداوة التي تفيض على الجوّ كلّه بالتعاطف وبالرضى.. «فَادْخُلِي فِي عِبادِي» .. المقربين المختارين لينالوا هذه القربى.. «وَادْخُلِي جَنَّتِي» .. في كنفي ورحمتي.. إنّها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة. منذ النّداء الأول: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» .. المطمئنة إلى ربّها. المطمئنة إلى طريقها. المطمئنة إلى قدر الله بها. المطمئنة في السّراء والضّراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء. المطمئنة فلا ترتاب. والمطمئنة فلا تنحرف. والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق. والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب..»[5].

إذن، فالمقام الذي ذكرت فيه النّفس المطمئنة مقام يوم القيامة، فبعد أن انتهى من وصف أهوالها، وذكر أحوال الضالين يومها وجزائهم، بشّر المؤمنين الصادقين بثوابهم، وقد اختار مفردة مطمئنة لدلالتها على السكينة والأمان وهو معنى يتناسب مع موضعه من السّورة، ومع جوها العام.

---

[1]- جامع البيان، ج 423/24، 424.

[2]- معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج 253/05.

[3]- سورة الرعد، الآية/28.

[4]- معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج 253/05.

[5]- في ظلال القرآن، ج 3907/06.

أمّا صيغة هذه المفردة فيقول عنها الطاهر بن عاشور: «والْمُطْمَئِنَّةُ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنِ اطْمَأَنَّ إِذَا كَانَ هَادِئًا غَيْرَ مُضْطَرِبٍ وَلَا مُنْزَعِجٍ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ سُكُونِ النَّفْسِ بِالتَّصْدِيقِ لِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلَا اضْطِرَابِ بَالٍ فَيَكُونُ ثَنَاءً عَلَى هَذِهِ النَّفْسِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هُدُوءِ النَّفْسِ بِدُونِ خَوْفٍ وَلَا فِتْنَةٍ فِي الْآخِرَةِ. وَفِعْلُهُ مِنَ الرُّبَاعِيِّ الْمَزِيدِ وَهُوَ بِوَزْنِ افْعَلَّ»[1]، وإن كان المراد من هذا الوصف الثناء على النّفس، فإنّها أيضا للتخصيص، فليس كلّ المسلمين مطمئنة نفوسهم، فالاطمئنان يكون باليقين، وقد استخدم القرآن هذا الفعل في سورة البقرة على لسان إبراهيم عليه السلام، حين سأل المولى عزّ وجلّ عن كيفية إحياء الموتى طلبًا للاطمئنان رغم إيمانه، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾**﴾[2].

كما ذُكِر هذا الفعل في القرآن في المواضع التي يُطلب فيها ذكر الله، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾**﴾[3]. فالاطمئنان إذا يكون بحضور الله في القلب وعدم الغفلة عنه، وهذه الدرجة لا يصلها إلاّ نخبة من المؤمنين، لذلك لم يختر صيغة مبالغة للتعبير عن هذه الصفة بينما اختار صيغة المبالغة (فعّالة) للتعبير عن النّفوس الدنيوية؛ النّفس الأمّارة بالسّوء، والنّفس اللوّامة؛ لأنّ الأولى كثيرة الطلب لمتاع الدنيا، والثانية كثيرة المجاهدة للأولى.

رغم عرض كلّ نفس في سورة مختلفة إلاّ أنّ اختيار القرآن للألفاظ من حيث معانيها وصيغها، وعلاقتها بالألفاظ الأخرى لا يخدم مقصدية الخطاب في الآية الواحدة فقط، أو الصورة الواحدة، بل في القرآن الكريم كلّه باعتباره منظومة من المفاهيم العقائدية والتشريعية والكونية، ففي مجال النّفس الإنسانية من

[1]- التحرير والتنوير، ج 342/30.

[2]- سورة البقرة، الآية /260.

[3]- سورة النساء، الآية/103. ينظر الرعد، الآية/28.

خلال تحليل القرآن لها تتجلى فنيته ودقته في اختيار الألفاظ والعبارات المعبرة عنها، بحيث إذا تم إخراج التعابير المفتاحية الدالة عليها من النّص لا تفقد قيمتها الدلالية في التعبير عن واقع هذه النّفس وحقيقتها، لأنّ معنى المفردة يحفظ لها انتماءها إلى مجالها المفهومي وبنية صيغتها تحفظ لها كيفية وجودها في الواقع الإنساني.

وإذا اشتركت لفظتان في الانتماء إلى حقل معين واشتركتا في البنية، وأوشك أن يقع لبس في تحديد دلالة إحديهما، استعان التعبير بمفردة متممة، تفرق بين المفهومين، وتعبر بلفظها معنًى وبنيةً عن السّمات التمييزية التي تخص المعنى الذي أضيف له، كالنّفس الأمّارة بالسّوء؛ فلو قال الأمّارة فقط مقابلة اللوامة لاحتملت الأمّارة أن تكون أمّارة بالخير أو الشّر، لكنّ وصفها بالسّوء، مع إطلاق السّوء مصدرا معرفاً استغرق بهذه الصيغة كلّ أنواع القبح والفواحش.

3-3- العقل:

العقل في اللغة: قال صاحب العين: « العَقْل: نقيض الجَهْل. عَقَل يَعْقِل عَقْلاً فهو عاقل. والمَعْقُولُ: ما تَعْقِلُه في فؤادك. ويقال: هو ما يُفْهَمُ من العَقْل، وهو العَقْل واحد، كما تقول: عَدِمْتَ مَعْقُولاً أي ما يُفْهَمُ منك من ذهْنٍ أو عَقْل، قال دغفل: فقد أفَادَتْ لهُمْ حِلْماً ومَوْعِظةً ... لِمَنْ يكون له إرْبٌ ومَعْقُولُ»[1].

وجاء في التهذيب: «العقل والعَقْل فِي كَلَام الْعَرَب: الدِّية، سميت عَقلاً لِأَن الديَة كَانَت عِنْد الْعَرَب فِي الْجَاهِلِيَّة إِبِلاً، وَكَانَت أموالَ الْقَوْم الَّتِي يرقئون بهَا الدِّمَاء، فسمِّيت الدِّيَة عَقْلاً لأنّ الْقَاتِل كَانَ يكلَّف أَن يَسُوق إبل الدِّيَة إِلَى فِنَاء وَرَثَة الْمَقْتُول، ثمَّ يَعْقِلهَا بالعُقُل ويسلمها إِلَى أوليائه. وأصل الْعقل مصدر عقلت الْبَعِير بالعقال أعقله عقلا، والعِقال: حَبل يُثنَى بِهِ يَد الْبَعِير إِلَى رُكْبَتَيْهِ فيشدُّ بِهِ، سمِّي عقلُ الْإِنْسَان وَهُوَ تَمْيِيزه الَّذِي بِهِ فَارق جميعَ الْحَيَوَان عقلا لأنّه يعقله، أَي يمنعهُ من التورُّط فِي الهَلَكة، كَمَا يعقل العقالُ البعيرَ عَن رُكُوب رَأسه»[2].

[1]- العين، مادة (ع ق ل).

[2]- تهذيب اللغة، مادة(ع ق ل).

يمكن القول من خلال ما جاء به الخليل بن أحمد أنّ العقل هو العلم والفهم، أي التّمكن من إدراك حقائق الأمور الذهنية وغير الذهنية، أمّا ما يفهم من كلام الأزهري، فالعقل هو ما دلّ على المنع، لدلالة فعله على حبس البعير ومنعها من ركوب رأسها، ودلالة المنع هذه تدل عليها مادة هذا الفعل، يقول أحمد بن فارس: «(عَقَلَ) الْعَيْنُ وَالْقَافُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُنْقَاسٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عُظْمُهُ عَلَى حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ أَوْ مَا يُقَارِبُ الْحُبْسَةَ. مِنْ ذَلِكَ الْعَقْلِ، وَهُوَ الْحَابِسُ عَنْ ذَمِيمِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ»[1].

وقال الزبيدي: « العَقْل: العِلم، وَعَلِيهِ اقتصرَ كَثِيرُونَ، وَفِي العُباب: العَقْل: الحِجْرُ والنُّهْيَة، ومثلُه فِي الصِّحاح، وَفِي المحكَم: العَقْل: ضِدُّ الحُمق، أَو هُوَ العِلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها، أَو هُوَ العِلمُ بخيرِ الخَيرَيْن وشَرُّ الشَّرَّيْن، أَو مُطلَقٌ لأمورٍ أَو لقُوَّةٍ بهَا يكون التَّمييزُ بَين القُبحِ والحُسنِ، ولمِعانٍ مُجتمِعةٍ فِي الذِّهْنِ يكون بمُقَدِّماتٍ يسْتَتِبُّ بهَا الأغْراضُ والمصالِح، ولهَيئَةٍ مَحْمُودةٍ للإنسانِ فِي حَرَكَاتِه وكَلامِه»[2].

من خلال هذه التعاريف يمكن القول أن للعقل دلالتين: الأولى: لغوية والمتمثلة في دلالته على المنع والحبس، والثانية: دلالة معنوية تتمثل في دلالته على العلم والفهم والإدراك والتمييز بين الأشياء رفيعها ودنيّها من معان وسلوكات، لذلك يتجلى العقل في السّلوك الإنساني منطقه وأخلاقه، ومعاملاته، وهذه الدلالة لا تخرج عن معنى المنع أو الحبس، لأنّ العقل عقال النّفس عن إتباع هواها، وبه أيضا يتم صيد المعارف وحبسها في الأذهان والاستعانة بها على الفهم والإدراك، ومن مرادفاته: القلب3، والحجر والنهى، يقول الراغب: « العَقْل يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ، ولهذا قال أمير المؤمنين رضي الله عنه:

رَأَيتُ العَقلَ عَقلَينِ فَمَطبوعٌ وَمَسموعُ
وَلا يَنفَع مَسموعٌ إِذا لَم يَكُ مَطبوعُ
كَما لا تَنفَعُ الشَمسَ وَضوءُ العَينِ مَمنوعُ

وإلى الأوّل أشار صلّى الله عليه وسلم بقوله: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل» وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرّدّه عن ردى» وهذا العقل هو

[1]- مقاييس اللغة، مادة (ع ق ل).
[2]- تاج العروس، مادة (ع ق ل).
[3]- تهذيب اللغة، مادة (عقل).

المعنيّ بقوله: وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُون[العنكبوت/ 43] ، وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأوّل، نحو: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ إلى قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة /171] ونحو ذلك من الآيات، وكلّ موضع رفع فيه التّكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأوّل»[1].

إذن فالعقل هو استعدادات فطرية لاكتساب المعرفة، وعلى قدر المعارف المكتسبة تكون رؤية الإنسان سليمة للعوالم المحيطة به، و من خصائصه القدرة على التمييز وحفظ المعاني، وتوجيه النّفس البشرية، لذلك فهو مناط التكليف. ومن خلال الأبيات التي جاء بها الراغب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإن العقل قسمان: عقل مطبوع أي فطري، وعقل مسموع أي مكتسب، والأول هو الذي يتم به تمييز الإنسان العاقل عن المجنون، وبناءً عليه يصير الإنسان مكلفا، أمّا الثاني: فهو ناتج عن تفعيل الأول وتغذيته بالمعرفة حتى يكون متمكّنا بالعلم وذا قدرة على فهم جواهر الأمور.

العقل في القرآن الكريم:

لم يرد لفظ (عقل) في القرآن الكريم بصيغة اسمية إطلاقا، وإنّما جاء بصيغ فعلية مختلفة، هي:

- عقلوه: مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾**﴾[2].

- نعقل: مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[3].

- يعقلها: مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾**﴾[4].

---

[1]- المفردات في غريب القرآن، ج 577/01، 578.

[2]- سورة البقرة، الآية/75.

[3]- سورة الملك، الآية/10.

[4]- سورة العنكبوت، الآية/43.

– تعقلون: أربعا وعشرين مرة كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1]، ومنها ما جاء بصيغة الاستفهام التقريعي التوبيخي (أفلا تعقلون)، نحو قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾[2].

– يعقلون: اثنتين وعشرين مرة، قال تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾[3]، ويكون مجموعها تسعا وأربعين مرة. إنّ هذا الاستعمال يثير في الخاطر إشكالية، وهي: ما الذي يدل عليه اقتصار التّعبير القرآني على استخدام الصيغة الفعلية، من لفظة (العقل)؟

يقول السّامرائي في دلالة الصيغة الفعلية: «إنّ الفعل يدل على الحدوث والتجدد»[4]، ويزيد على هذه الدلالة –دلالة الحدوث والتجدد– في استخدام القرآن لها في مادة عقل مجيئها في الزمن المضارع، إنّها إذًا إشارة إلهية إلى أنّ قوام العقل تفعيله من خلال قيامه بعمليات تختلف في درجة استعمالها للعقل حددها القرآن الكريم في مواضع مختلفة والغاية من هذا التفعيل تطوير العقل الغريزي لأنّ حياته تكون بإدراك الحقائق، وكلّما زاد علمه زادت معرفته بالله.

لقد جاء استخدام فعل العقل في سياقات محددة تعزّز عقيدة التوحيد هذه السّياقات حددها صاحب تفسير المنار في المواضع التالية[5]:

– آيَاتُ الْكَوْنِ الدَّالَّةُ عَلَى عِلْمِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا

[1]– سورة البقرة، الآية/242.
[2]– سورة البقرة، الآية/44.
[3]– سورة الفرقان، الآية/44.
[4]– من أسرار البيان القرآني /22.
[5]– تفسير المنار 202/11.

يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

– آيَاتُ كِتَابِهِ التَّشْرِيعِيَّةُ وَوَصَايَاهُ، كَقَوْلِهِ فِي تَفْصِيلِ الْوَصَايَا الْجَامِعَةِ مِنْ أَوَاخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾[2]، وَجَعَلَ إِهْمَالَ اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ سَبَبَ عَذَابِ الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ فِي أَهْلِ النَّارِ مِنْ سُورَةِ الْمُلْكِ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

بالنسبة للآيات الكونية غالبا ما تأتي عبارة (لِقوم يعقلون) خاتمة لها، بعد عرض الله لصفحات هذا الكون على الإنسان مخاطبا فيه عقله الفطري بما يتناسب مع فطرته السّليمة[4]، فجاء بهذا الأسلوب التقريري، لأنّ: «التَّقْرِيرَ: حَمْلُكَ الْمُخَاطَبَ عَلَى الْإِقْرَارِ وَالِاعْتِرَافِ بِأَمْرٍ قَدِ اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ»[5]، ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾[6].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[7].

---

[1]– سورة البقرة، الآية/164.

[2]– سورة الأنعام، الآية/151.

[3]– سورة الملك، الآية/10.

[4]– القرآن والنظر العقلي /65.

[5]– البرهان في علوم القرآن 331/02.

[6]– سورة النحل، الآية/12.

[7]– سورة الروم، الآية/24.

ومن الألفاظ التي تطلق على العقل في اللغة: الحجر والنهى، واللب والقلب، وقد استخدمها القرآن الكريم في سياقات مختلفة، لكن هل يمكن القول أنّها من مرادفات العقل في القرآن؟

1- الحجر: الحجر في اللغة بفتح الفاء أو كسرها يدل أصله على « الْمَنْعُ وَالْإِحَاطَةُ عَلَى الشَّيْءِ. فَالْحَجْرُ حَجْرُ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ تُكْسَرُ حَاؤُهُ. وَيُقَالُ حَجَرَ الْحَاكِمُ عَلَى السَّفِيهِ حَجْرًا ; وَذَلِكَ مَنْعُهُ إِيَّاهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ. وَالْعَقْلُ يُسَمَّى حِجْرًا لِأَنَّهُ يَمْنَعُ مِنْ إِتْيَانِ مَا لَا يَنْبَغِي»[1]، وقال الفراء: في قوله تعالى: ﴿**هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ**﴾[2]:«لذي عقلٍ: لذي سِتْر، وكلّه يرجع إلى أمر واحد من العقل، والعرب تَقُولُ: إنه لذو حجر إِذَا كَانَ قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، كأنه أخذ من قولك: حجرت عَلَى الرجل»[3]. إذن فالعقل والحجر يشتركان في دلالة أصليهما على المنع، ومن ثم أطلق الحجر على العقل لمنعها عن إتيان القبيح من الأفعال، إلاّ أنّ في الحِجْر منع مع التشديد.

2- النُّهى: جاء في لسان العرب: « والنُّهَى: العَقْل، يَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ**﴾[4]، والنُّهْيَةُ: الْعَقْلُ، بِالضَّمِّ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَنْهَى عَنِ الْقَبِيحِ؛ وَفُلَانٌ ذُو نُهْيَةٍ أَي ذُو عَقْلٍ يَنْتَهِي بِهِ عَنِ الْقَبَائِحِ وَيَدْخُلُ فِي الْمَحَاسِنِ»[5]، فالنّهى إذا جمع نهية[6]، وتطلق على العقل في حالة تغلبه على النّفس وبلوغه غايته في كفّها عن إتباع هواها.

3- اللبُّ: أصَّل أحمد بن فارس لهذه المفردة، فقال: «لُبَّ) اللَّامُ وَالْبَاءُ. أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى لُزُومٍ وَثَبَاتٍ، وَعَلَى خُلُوصٍ وَجَوْدَةٍ. وَالْمَعْنَى الْآخَرُ اللُّبُّ مَعْرُوفٌ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَالِصُهُ وَمَا

---

[1]- مقاييس اللغة، مادة (حجر).

[2]- سورة الفجر، الآية/05.

[3]- معاني القرآن للفراء 260/03.

[4]- سورة طه، الآية/54.

[5]- لسان العرب، مادة (نهى).

[6]- المرجع نفسه، ينظر: مقاييس اللغة ، مادة (نهى).

يُنْتَقَى مِنْهُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْعَقْلُ لُبًّا. وَرَجُلٌ لَبِيبٌ، أَيْ عَاقِلٌ. وَقَدْ لَبَّ يَلُبُّ. وَخَالِصُ كُلِّ شَيْءٍ لُبَابُهُ»[1]، ويقول الراغب الأصفهاني: «اللُّبُّ: العقل الخالص من الشّوائب، وسمّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كَاللُّبَابِ واللُّبِّ من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل، فكلّ لبّ عقل وليس كلّ عقل لبّا. ولهذا علّق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلّا العقول الزّكيّة بأولي الْأَلْبَابِ»[2]. كقوله تعالى: ﴿**يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾**﴾[3]، فاللبّ هو صفة متعلقة ببلوغ العقل درجات كبرى من العلم، تحصل له من خلالها معرفة الله فالخطاب الموجه لأولي الألباب: «خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعي أوفر من نصيب العقل الذي يكفُّ صاحبه عن السّوء ولا يرتقي إلى منزلة الرسوخ في العلم والتمييز بين الطيب والخبيث والتمييز بين الحسن والأحسن»[4].

4-القلب: قال أحمد بن فارس: «(قَلَبَ) الْقَافُ وَاللَّامُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى خَالِصِ شَيْءٍ وَشَرِيفِهِ، وَالْآخَرُ عَلَى رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ. فَالْأَوَّلُ الْقَلْبُ: قَلْبُ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ، سُمِّيَ لِأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فِيهِ وَأَرْفَعُهُ. وَخَالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفُهُ قَلْبُهُ»[5]، وهو في هذا الوجه يشترك مع اللبّ في الدلالة على خالص الشّيء. وذكر بعض أهل اللغة –أبو نصر الفارابي، والفيروز آبادي– أنّ كلمة "قلب" تعني العقل[6]، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾**﴾[7]، ورأى بعض المفسّرين أنّ القلب هو العقل[8]، ويستند الطاهر بن عاشور إلى أنّ القلوب هي العقول بقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ**

---

[1]- مقاييس اللغة، مادة (لبّ).

[2]- المفردات في غريب القرآن ،ج733/01.

[3]- سورة البقرة، الآية/269.

4- التفكير فريضة إسلامية، ص/12.

[5]- مقاييس اللغة، مادة(قلب).

[6]- الصحاح تاج اللغة، مادة (قلب).

[7]- سورة ق، الآية/37.

[8]- معاني القرآن للفراء 80/03، غريب القرآن 362/01، القرطبي 23/17.

﴿ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَآۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾[1]،

حيث يقول: «وَأُطْلِقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى تَقَاسِيمِ الْعَقْلِ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ لِأَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مُفِيضُ الدَّمِ- وَهُوَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ- على الْأَعْضَاء الرئيسية وَأَهَمُّهَا الدِّمَاغُ الَّذِي هُوَ عُضْوُ الْعَقْلِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: يَعْقِلُونَ بِها وَإِنَّمَا آلَةُ الْعَقْلِ هِيَ الدِّمَاغُ وَلَكِنَّ الْكَلَامَ جَرَى أَوَّلُهُ عَلَى مُتَعَارَفِ أَهْلِ اللُّغَةِ ثُمَّ أُجْرِيَ عَقِبَ ذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ فَقَالَ: يَعْقِلُونَ بِها فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الْقُلُوبَ هِيَ الْعَقْلُ»[2].

ما الفائدة من ذكر الباء في قوله تعالى (بها)؟ وإذا كان المقصود بالقلوب العقول، لِمَ لَمْ يقل قلوب تعقل؟ لما جاء هذا التعبير في سياق ذُكِرَتْ فيه آلة السّمع، وكان تركيب آية السّمع معطوفا على تركيب آية العقل؟ ما الذي يمنع أن يكون القلب أحد الآليات أو الوسائط التي تساعد على بلوغ المعرفة؟ فهو محلّ استشعار وبالتالي يكون التّعبير بالقلب عندما يستوجب حصول العلم أو الإدراك حضور الحس الوجداني إلى جانب قوى التمييز.

إذن فالنهى، والحجر، والألباب هي صفات للعقل وليست مرادفات، فعلى قدر استغلال الإنسان لعقله تكون صفته .

نخلص من خلال هذا المبحث إلى ما يأتي:

- للمفردة القرآنية بعد واقعي، وإن خرجت عن السّياق القرآني، يحفظه -البعد- لها اجتماع دلالة أصلها الاشتقاقي، ودلالة بنيتها الصرفية، ودلالة بنيتها الصوتية في الدلالة على صورة معنوية واحدة.
- يعتبر السّياق القرآني محددا دلاليا للفروق المعنوية بين الألفاظ.
- اعتماد القرآن على التّقابل اللفظي، بناءً على التقابل المعنوي الذي جبلت عليه النّفس البشرية، وهو أنسب منهج لبناء الشخصية الإسلامية وفق ما يتناسب مع طبيعتها الفطرية.
- اعتماد القرآن على القصص وعرض النماذج الإنسانية كأسلوب توجيهي تربوي للإنسان.

[1]- سورة الحج، الآية/46.

[2]- التحرير والتنوير، ج 287/17.

- مخاطبة القرآن للعقل بصيغ ومفردات تتناسب مع دوره في الذات الإنسانية ودوره في العالم المحيط به.
- الآيات الكونية أكثر الآيات التي وجه فيها الخطاب إلى العقل والنظر العقلي والتفكر والتدبر، فشكّلت صيغها الفعلية خواتيم في أغلب الآيات.
- إنّ هذا التوجيه، وبالإضافة إلى ما تضمنته الآيات القرآنية من إشارات علمية لحقائق كونية دفع بعض أصحاب التفسير العلمي للقرآن إلى إسقاط حقائق ونظريات العلم الحديث على الآيات الكونية. فإلى أي مدى يتوافق الإعجاز اللغوي في التعبير عن الظواهر الكونية مع التّفسير العلمي؟

الفصل الرابع

الإعجاز اللغوي وعلاقته بالتفسير العلمي في القرآن الكريم

تمهيد .

1- نشأة الكون بين التعبير القرآني والتفسير العلمي .

1-1- مرحلة ما قبل الخلق .

1-2- نشوء الكون .

2- حقائق السّماء والأرض بين القرآن والعلم .

2- 1- السّماء بين القرآن والعلم .

2-2- الأرض بين القرآن والعلم .

3- خلق الإنسان بين التعبير القرآني والتفسير العلمي .

3-1- إسقاط النظريات العلمية على آيات خلق الإنسان .

3-2- أطوار خلق الإنسان بين القرآن والحقائق العلمية .

الفصل الرابـــــــــع:

الإعجاز اللغوي وعلاقته بالتفسير العلمي للقرآن الكريم

تمهيد:

لقد بدأ الله سبحانه وتعالى نسيجه الكوني بخلق السّماوات والأرض، كما يدلّ عليه قوله تعالى في مواضع متعددة من القرآن، منها قوله عزّ وجلّ: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩**﴾[1]، وقولـــه: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤**﴾[2].

و خلْقُ هذا الكون آثار عدة تساؤلات، تتعلق بكيفية الخلق، وماذا كان يوجد قبله، ولقد أجاب القرآن الكريم عن هذه التساؤلات بأسلوب موجز ودقيق وبليغ، بحيث إنّ كلّ كلمة تحمل من الدلالات والعلوم ما لا يستطيع أن يلمّ به علم البشر؛ «فالعلوم كلّها داخلة في أفعال الله عزّ وجلّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها... بل كلّ ما أَشْكَل فهمه على النظّار، واختلفت فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، ففي القرآن إليه رمز، ودلالة عليه، يختص أهل الفهم بدركها»[3].

فقد جمع القرآن كلّ العلوم الظاهرة والباطنة، والتي تصنَّفُ إلى مجالات بحسب طبيعتها وآليات دراستها، وخلق السّماوات والأرض من الآيات الكونية الكبرى التي تعدّ أحد موضوعات علم الكونيات، الذي هو «دراسة تركيب الكون وتطوره، وحركته في علم الفلك والفيزياء الفلكية، وهذه الدراسة تحاول أن

[1]- سورة الفرقان، الآية/59.

[2]- سورة الحديد، الآية/04.

[3]- إحياء علوم الدين، ج 289/01.

تشرح كيفية نشوء الكون، وماذا حدث له في الماضي، وماذا يمكن أن يحدث له في المستقبل»[1]، إنّ هذه التساؤلات التي شكّلت هاجسا لدى علماء الكونيات؛ جاءت الإجابة عنها في القرآن الكريم بشكل منفتح دلاليا بحيث يتناسب مع التطور المعرفي للعقل البشري، بما يصل إليه من حقائق ثابتة لا تتعارض مع الخطاب القرآني؛ لأنّه خطاب يزاوج في أسلوبه بين المباشرة والإضمار، «وهكذا يرى القارئ لكتاب الله تعالى وما فيه من أدلة أنّه قريب من الأمّيّ يفهمه ويعرفه، ويعلم منه علم ما لم يكن يعلم. يدرك منه ما يناسب معرفته ويسمو إليه إدراكه وما يدركه من صدق يقيني لا شبهة فيه، ويرى فيه العالم الباحث حقائق صادقة ما وصل إليها البحث العلمي الحديث إلاّ بعد تجارب ومجهودات عقلية، ولما ازداد المتأمل المتبصر في الآيات التي تتعلق بالكون ازداد استبصارا، ورأى علما أسمى مما يدركه الإنسان بتجاربه، وأعلى ما يهتدي إليه الإنسان بعقله المجرد»[2].

ولقد حاول الإنسان بعقله، ومختلف آلياته العلميّة تفسير هذه الظواهر الكونية، فتعددت النظريات المفسّرة لنشوء الكون بدءًا من فلاسفة العصور الوسطى (بطليموس، وأرسطو، وطاليس)، وعلماء الفلك المسلمين[3]، خاصة في العصر العباسي حتى أنّهم ألّفوا في ذلك[4]، ثم بداية علم الفلك الحديث التي كانت على يد العالم الفلكي كوبرنيكوس (1473-1543م)، حيث كان رائجا أنّ الأرض هي مركز الكون ،«ونظرية كوبرنيكوس الفلكي تعتمد في فكرتها أن الشمس يجب أن تكون هي المركز لكلّ الكواكب حتى تتمكن من مدّ سائر الكواكب السيارة بالضوء...»[5]، ثم تعاقبت النّظريات المفسّرة للظواهر الكونية وحركتة الأجرام السّماوية، وصولا إلى عصرنا الذي أصبح يعتمد على المعدّات العلمية والتكنولوجية في البحث الفلكي، مما أوصله إلى نتائج مبهرة؛ لكنّ الحقيقة التي لا تزال قيد التنظير قضية نشوء الكون

---

[1]- الموسوعة العربية العالمية، ج 20/ 315- 316.

[2]- المعجزة الكبرى القرآن/ 268.

[3]- الشائع هو الجهود الفكرية لعلماء الفلك الغربيين في دراسة الظواهر الكونية، إلا أن للعلماء المسلمين جهود لم يهملها التاريخ، من ذلك مدرسة الفلك التي كانت في بغداد في العصر العباسي في عهد الخليفة أبي المنصور، «وقد كان هو نفسه عالم في الفلك... وفي خلافة هارون الرشيد والمأمون حققت المدرسة البغدادية الفلكية إنجازات مدهشة، وقد نقصت النظريات الفلكية القديمة، وأصلحت الكثير من أخطاء بطليموس...» (المسلمون وعلم الفلك/31).

[4]- إن العالم المسلم عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الإمام في اللغة والأدب وصاحب أدب الكاتب وعيون الأخبار، وتأويل مشكل القرآن، يكاد يكون أول من ألّف في علم النجوم والأنواء، وله كتاب الأنواء الذي تكلم فيه عن النجوم، وكيفية استدلال العرب بها. (المسلمون وعلم الفلك/ 68).

[5]- الموسوعة الكونية الكبرى، ج 56/01.

فمن القول بالمصادفة، أي أن هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه أو من العدم، إلى القول بأزلية العالم، و«دعاة الأزلية الذين يدَّعون أنّ الكون موجود منذ الأزل ولا بداية له ولا نهاية، ماتت نظريتهم بعد ثبوت نظرية أكثر العلماء بداية الخلق وحدوث (الانفجار الكبير)، وكذلك ماتت كلّ نظريات الملحدين والوجوديين، وبأنّ الطبيعة أوجدت نفسها بنفسها؛ فالعلم والعلماء أثبتوا بداية لهذا الكون ونشأة نشأ بها»[1]، أثبتوا ذلك من خلال وصول المعاصرين إلى نظرية الانفجار الكبير أو العظيم، أو الأعظم الذي يرون «أنّه بداية الخلق والوجود، وتكوين المجرات والنّجوم والكواكب، والشّمس والأرض والقمر...»[2]، لكنّ السّؤال الذي بقي عالقا ولم يستطع علماء الكونيات إيجاد حل مناسب له، هو: ماذا كان موجودا في الفضاء قبل حدوث الضربة الكبرى[3]؟ والمقصود بالضربة الكبرى في النظرية العلمية الفلكية الانفجار الأعظم، ويقابلونها في النّص القرآني بالرتق والفتق. فما مدى التوافق بين التعبير القرآني والتفسير العلمي في الكشف عن مراحل نشأة الكون؟

1- نشأة الكون بين التعبير القرآني والتفسير العلمي:

1-1- مرحلة ما قبل الخلق:

ما الذي كان موجودا قبل نشأة الكون؟ لقد جاءت الإجابة عن هذا السّؤال في القرآن الكريم، في الآية السّابعة من سورة هود؛ قال تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلاً**﴾[4].

تعتبر دلالة صيغة الفعل كان على المضيّ في جملة: «وكان عرشه على الماء» في سياق هذه الآية قرينة لغوية تدل على ما كان موجودا قبل نشأة هذا الكون وقد اتفقت التفاسير[5]، أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السّماوات والأرض.

---

[1]- الموسوعة الكونية الكبرى، ج 01/ 88.

[2]- المرجع نفسه، 03/ 55.

[3]- المرجع نفسه

[4]- سورة هود، الآية/07.

[5]- جامع البيان في تأويل القرآن، ج 246/15، الكشاف، ج380/02، الجامع لأحكام القرآن، ج 08/09.

وقد جمع الرازي في تفسيره الكبير عدة أقوال حول هذا الأمر، حيث قال: «(وكان عرشه على الماء)، قال كعب: خلق الله تعالى ياقوتة خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثم خلق الرّيح فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء، قال أبو بكر الأصم: معنى قوله: «وكان عرشه على الماء» كقولهم السّماء على الأرض، وليس على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر، فذلك يدل على أنّ العرش والماء كانا قبل السّماوات والأرض، وقالت المعتزلة: في الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما؛ لأنه لا يجوز أن يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرش والماء، لأنه تعالى لما خلقهما فإما أن يكون خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة، والثاني عبث، فبقي الأول وهو أنه خلقهما لمنفعة... وأما أبو مسلم الأصفهاني فقال في معنى قوله تعالى: «وكان عرشه على الماء» أي بناؤه السّماوات كان على الماء، وقد مضى تفسير ذلك في سورة يونس وبيّن أنّه تعالى إذا بنى السّماوات على الماء كانت أبدع وأعجب، فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت، فكيف بهذا الأمر إذا بسط مع الماء؟»[1].

بالنسبة للحديث المذكور عن كعب*، والذي يبيِّن كيف خُلق الماء، فلا أثر له في متون الحديث والصحاح، والمهم هو دلالة الآية على وجود العرش والماء قبل خلق السّماوات والأرض، كما قال أبو بكر الأصم؛ أمّا فيما يتعلق بقضية الانتفاع بخلقهما التي قالت بها المعتزلة، وأنّه دليل على وجود الملائكة، فبالنسبة للعرش فإنه متعلق بالمولى عزّ وجلّ، ومن الملائكة من هم حملة العرش، أمّا فيما يخص الماء فمعلوم أنّ الملائكة لا تأكل ولا تشرب، فما وجه انتفاعها بالماء؟ لكنّ الانتفاع به قد يكون في عملية الخلق، وإلاّ لما خصَّ الماء بالذّكر قبل وجود الخلق، ألا يمكن أن تكون له علاقة بقضية الفتق، وخلق السّماوات والأرض؟ وإذا كان أبو مسلم الأصفهاني يتساءل عن كيفية بسط هذا الأمر العظيم – العرش على الماء– أليس في هذا إشارة ربانية إلى القوة الكامنة في هذه المادة التي سبقت الخلق، لأنّه من الممكن أن يكون أساس بناء المخلوقات جميعا بما فيها السّماوات والأرض؟

ويجيب الرازي عن الفائدة من ذكر أنّ عرشه كان على الماء قبل خلق السّماوات والأرض بأنّ: «فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه: الأول: أنّ العرش كونه أعظم من السّماوات والأرض كان على الماء، فلولا أنّه تعالى قادر على إمساك الثقيل بغير عمد لما صحَّ ذلك، والثاني: أنّه تعالى أمسك الماء لا على

[1]- مفاتيح الغيب، ج 17/ 319.

*إما أن يكون: كعب بن عجرة الأنصاري، أو كعب بن مائع الحميري، أو كعب بن مالك بن أبي كعب، وتعريف الثلاثة موجود في موطأ مالك، ن الأعظمي، 6/91-92.

قرار، والإلزام أن يكون أقسام العالم غير متناهية، وذلك يدلّ على ما ذكرناه، والثالث: أنَّ العرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سماوات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه، وذلك يدل على ما ذكرناه»[1].

إذن، إلى جانب ما يدل عليه هذا المشهد من كمال القدرة الإلهية، فإنّ ذكر هذه الجملة في سياق حديثه عن خلق السّماوات والأرض لا بدّ فيه من حكمة بالغة، لا تتعلق فقط بجلال الربوبية، لأنّ الكون كلّه والقرآن كلّه دليل على ذلك، خاصة وأنّ هذه الجملة جاءت في حديث بدء الخلق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كان الله ولم يكن شيئا غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء، وخلق السّماوات والأرض»[2]. ما علاقة هذه الجملة بالخلق؟ يقول السيد قطب: «الجديد هنا في خلق السّماوات والأرض هو الجملة المعترضة: «وكان عرشه على الماء» وما تفيده من أنه عند خلق السّماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما الذي انتهيا إليه كان هناك الماء، وكان عرش الله سبحانه على الماء... أمّا كيف كان هذا الماء، وأين كان، وفي أي حالة من حالاته كان، وأمّا كيف كان عرش الله على هذا الماء... فزيادات لم يتعرّض لها النّص»[3].

إذا كانت هذه الجملة اعتراضية، فإنها تدعو المتدبر للوقوف عندها، وهي تؤدي نفس الغرض مع كونها حالية، من بيان الهيئة التي كان عليها العرش قبل خلق السّماوات والأرض، وذكرها بنفس التركيب في الحديث الشريف تأكيدٌ على وجود الماء قبل الخلق، إنّ «هذه الآية الكريمة عظيمة الشّأن، عظيمة المعنى، عظيمة الدلالة، فالعلماء المعاصرون يتساءلون ويبحثون ماذا كان قبل الانفجار الكبير؟ وهو لحظة خلق الكون ونشأة النّجوم والمجرات، فلا يجدون جوابا شافيا بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من دراساتهم وبحوثهم في عالم الفلك، وهم يتخبطون في الجواب وكثرة النظريات وكل يدلي بدلوه»[4]، والإجابة واضحة وصريحة في جملة بسيطة التركيب بسيطة المعنى من النّص القرآني.

إنَّ هذا التساؤل ليس غريبا من علماء الفلك الغربيين؛ لأنّ رحلتهم منذ البداية كانت تهدف إلى إثبات فكرة أزليّة الكون وعدم وجود الخالق، لكنّ الغريب هو انسياق بعض العلماء المسلمين وراء هذه

---

[1]- مفاتيح الغيب، ج 17/ 319-320.

[2]- صحيح البخاري، ج 105/04.

[3]- في ظلال القرآن، ج01/ 1857.

[4]- الموسوعة الكونية الكبرى، 03/ 57.

التساؤلات وهذه النظريات، وتعاملهم معها كأنّها حقائق ثابتة، ويلتمسون من الآيات القرآنية ما يتوافق معها.

يقول زغلول النجار في كتابه السّماء في القرآن تحت عنوان: "خلق السّماوات والأرض في القرآن الكريم": «من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة لخّص ربّنا سبحانه وتعالى في صياغة آلية شاملة عملية خلق السّماوات والأرض وإفنائهما وإعادة خلقهما من جديد في خمس آيات من القرآن الكريم على النحو التالي:

1- ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾[1].

2- ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾[2].

3- ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾[3].

4- ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾[4].

5- ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾[5].»[6]

النّجار اختار هذه الآيات بالاعتماد على كيفية الخلق في النّظرية العلمية الفلكية المعاصرة، فاختار الآية الأولى لأنّها تتوافق مع نظرية توسّع الكون، التي تدل على أنّ لهذا الكون بداية، واختار الآية الثانية لأنّها تتوافق مع نظرية الانفجار الأعظم، التي يرى أنّ القرآن يرقى بها إلى مقام الحقيقة العلمية بدليل موافقة دلالة ألفاظها اللغوية لمفهوم هذه النظرية، يقول في الآية ثلاثين من سورة الأنبياء: «والرتق في اللغة عكس الفتق؛ لأنّ الرتق هو الضّم والالتحام والالتئام، سواء كان ذلك طبيعيا أو صناعيا، والفتق لغة: هو الفصل والشّق، والانشطار. و القرآن الكريم هنا يعطي الصّورة الكاملة الجامعة لهذا الحدوث الكوني

[1]- سورة الذاريات، الآية/47.
[2]- سورة الأنبياء، الآية/30.
[3]- سورة فصلت، الآية/11.
[4]- سورة الأنبياء، الآية/104.
[5]- سورة إبراهيم، الآية/48.
[6] - الّسماء في القرآن الكريم / 82.

العظيم، ويترك التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين، الذين يفكرون في خلق السّماوات والأرض، يجعلنا نرتقي بنظرية الانفجار الكوني العظيم إلى مقام الحقيقة، ونكون هنا قد انتصرنا بالقرآن الكريم للعلم المكتسب وليس العكس. وهذا الجرم الابتدائي كان في حالة من الكثافة والحرارة تتوقف عندهما كلّ القوانين الفيزيائيّة المعدومة، ومن ثمّ فإنّ العقل البشري لا يكاد يتصورهما، فانفجر هذا الجرم الأولي بأمر من الله في ظاهرة يسميها العلماء عملية الانفجار الكوني، ويسميها القرآن الكريم باسم الفتق، فقد سبق القرآن الكريم كلّ المعارف الإنسانية بالإشارة إلى ذلك الحدث الكوني العظيم من قبل ألف وأربعمائة من السّنين»[1].

إنّ زغلول النّجار في عرضه للآيات التي يرى بأنّها شاملة لعملية خلق السّماوات والأرض يتجاهل الآية التي تصرح بوجود الماء قبل الخلق، وهذا الأمر معرفته ضرورية لما قد يكون له دور في عملية الخلق.

يتعامل النّجار مع نظرية الانفجار الأعظم على أنّها حقيقة علمية تتوافق مع النّص القرآني، بينما هي في الحقيقة نظرية قابلة للتغيّر، كما حدث للنظريات التي جاءت قبلها، وهو نفسه يقول في كتابه: "حقائق علمية في القرآن الكريم": «إنّ المولى عزّ وجلّ قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السّماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان بإمكانياته المحدودة على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق، إلاّ أنّ هذا التصور يبقى محل الفروض والنّظريات ولا يمكن أن يرقى إلى معالم الحقيقة أبدا؛ لأنّ الحقيقة العلمية لا بدّ وأن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه –على الرغم من محدودية ذلك– ومن هنا فإنّ العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية مرحلة التنظير أبدا، ولذلك تتعدد النظريات في قضايا الخلق بتعدد واضعيها...»[2]، إذا كان هذا رأيه في النّظريات العلمية، ما الذي يجعله يرتقي بنظرية الانفجار الأعظم إلى مقام الحقيقة العلمية الموافقة للقرآن؟ هل دلالة لفظتي الرّتق والفتق لغة كافية لإسقاط هذه النّظرية على الآية؟

إنّ عملية بدء الخلق حقيقة لا يمكن تحصيلها من دلالة لفظة أو لفظتين؛ إنّها مفهوم تجتمع جميع العناصر اللغوية في الآيات القرآنية ككلّ التي تدخل في هذا الحقل الدلالي، لتشكل تصورا قريبا من مفهومه الحقيقي باعتبار أنّ هذه العملية لم يشهدها أحد من الخلق؛ لكنّ الكون والخطاب القرآني يتوفران على مؤشرات تقرّب المتدبِّر من هذه الحقيقة، ولو لم يضع الله هذه المؤشرات لما أمر بالتفكُّر والتدبّر، وإن

[1]- المرجع نفسه/107.

[2]- حقائق علمية في القرآن الكريم/13.

كانت الغاية من ذلك الهداية. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[1].

انطلاقا من كون النّظرية العلمية ما هي إلاّ تعبير تقريبي عن الحقيقة[2]، وليست تعبيرا مطلقا، فلا يمكن الجزم بأن تكون نظرية الانفجار الأعظم هي التّفسير الحقيقي لعملية نشوء الكون، وهذا ما يراه منير العلي صاحب كتاب "التفسير العلمي للقرآن الكريم"؛ حيث يقول: «تظل الآية هي الحقيقة وهي الطرف الثابت في المعادلة التفسيرية، فمثلا نظرية الانفجار الأعظم قد لا تكون النّظرية النهائية التي ستظل دائما تفسر نشوء الكون، كما وحاشى لله أن تكون هي التي خلقت الكون، فهي التي بحاجة إلى التوفيق السّماوي، بينما الوجود هو الحقيقة النهائية سواء أكان هناك تفسير علمي لكيفية عمل الكون، أم لم يوجد»[3].

ثم يضيف منير العلي في محاولة منه للوقوف على حقيقة وجود الماء قبل الخلق، ولما قد يكون لها من أثر في قلب نظرية الانفجار الأعظم إلى الانفجار المائي، انطلاقا من استنتاج الباحثين لوجود الماء في الكون منذ البداية، لأنّ العناصر الأساسية المكونة للماء: -الهيدروجين والأوكسجين والهيليوم الذي تكوّن من الهيدروجين، وكوَّن الأوكسجين- هي أول ثلاث مواد كيماوية تكونت في أول بدء الكون وأغزرها وجودا لحد الآن[4]، ثم يقول: «إنّ الماء أو أحد أنواعه أو مادة أخرى تشبهه كانت موجودة قبل نشوء الكون بدأ منها الانفجار المائي *(Water bang)* بأسلوب الانفجار الأعظم نفسه *(Big bang)* السّائد حاليا، أو بأسلوب آخر لا يزال علمه عند الله، فلا ضرورة لحالة التفردية *(Singularity)*. إنّ هذا التعليل قد ينقذ نظرية الانفجار الأعظم الذكية من إشكاليتها في تناقضها مع المنطق، فبدلاً من القول: بدأ الكون من اللاشيء اللامتناهي في الثقل وسينتهي إلى اللاشيء اللامتناهي في الثقل تصبح: بدأ من الماء وسينتهي

[1]- سورة آل عمران /190-191.
[2]- خلق الكون بين العلم والإيمان/ 25.
[3]- التفسير العلمي للقرآن الكريم/ 25.
[4]- التفسير العلمي للقرآن الكريم / 50.

إلى الماء فيسهل استيعابها، وفي الوقت ذاته نتوصل إلى حل اللغزين بتعليل واحد، لغز التفرديات ولغز ماذا قبل الكون وماذا بعده؟»[1].

إنّ في هذا التعبير محاولة من الكاتب للمقاربة بين الحقائق العلمية حول وجود العناصر المكونة للماء منذ البداية، وبين الحقيقة القرآنية بوجود الماء قبل الخلق، والتي تكرر ذكرها في السّنة النبوية، كما يحمل تعبير الكاتب إشارة إلى وقوع تناقض بين هذه النظرية والمنطق، فإذا كانت هذه النظرية تتناقض مع العقل الصحيح، فكيف لها أن تتطابق مع النقل الصريح؟! و«ولو نظرنا إلى ما في الوحي المنزل من عند الله لوجدنا أنه يتضمن أصولا صحيحة دوما لا تقع في تناقض مع العلم أبدا، لأنّه الله تعالى يحكم آياته ولا يدعها تتأثر حتى بأمنيات الأنبياء والرسل... أمّا ما يحلّ من تناقض فمرده أمران؛ الأول: فهم خاطئ للنص من خلال تفسير خاطئ، الثاني: توصل خاطئ أو ناقص في العلم العقلي»[2].

إنّ عدم إهمال منير العلي لقوله تعالى: «وكان عرشه على الماء» في الآية السّابعة من سورة هود جعله يحدد تصورا معقولا لقضية بدء الخلق؛ تصور يتوافق مع دلالة الآية السابقة، والآية ثلاثين من سورة الأنبياء: «كانتا رتقا ففتقناهما»، وهما تشكلان المرحلة الأولى في عملية الخلق، ومن خلال ما توصّلنا إليه في الفصل الثاني من اشتراك مستويات البحث اللغوي في إنتاج مفاهيم جزئية تتعلق بمدلول الآيتين قد تصل بنا إلى تصور مفهوم عملية الخلق من المنظور القرآني، سنحاول توضيح ذلك من خلال المقارنة بين دلالة الآيتين والتّفسير العلمي لقضية الخلق المسقط على الآية ثلاثين من سورة الأنبياء.

1-2- نشوء الكون:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ** ﴾[3].

يرى علماء الكونيات المسلمون أنّ مصطلح الانفجار الأعظم يعادل في التعبير القرآني (الرتق والفتق)، وقبل الخوض في التفسير العلمي المعاصر لهذه الآية، لا بدّ من توضيح آراء بعض المفسرين القدامى الذين كان لهم نفس التّوجه، أي الرّبط بين دلالة الآيات الكونية والآراء العلمية التي كانت

[1]- المرجع نفسه/51.

[2]- خلق الكون بين العلم والإيمان/ 13، 14.

[3]- سورة الأنبياء، الآية/30.

آنذاك فلسفية، من هؤلاء الفخر الرازي الذي ذكر عدة آراء، ثم رجَّح بعضها بمنطقه العلمي، يقول: «اختلف المفسرون في المراد من الرتق والفتق على أقوال: أحدهما: وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم أن المعنى كانتا شيئا واحدا ملتزقين، ففصل الله بينهما ورفع السّماء إلى حيث هي وأقرّ الأرض... وثانيها: هو قول أبي صالح ومجاهد أنّ المعنى كانت السماوات مرتتقة فجُعلت سبع سماوات، وكذلك الأرضون، وثالثها: وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين أن السّماوات والأرض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة، ففتق الله السّماء بالمطر والأرض بالنبات والشّجر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾[1]، ورجّحوا هذا الوجه على سائر الوجوه، يقول بعد ذلك: «وجعلنا من الماء كل شيء حي»، وذلك لا يليق إلاّ وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلاّ إذا كان المراد ما ذكرناه... ورابعها: قول أبي مسلم الأصفهاني: يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار، كقوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2]، وكقوله: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[3]، فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرّتق، وتحقيقه أنّ العدم نفي محض، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة، بل كأنّه أمر واحد متصل متشابه، فإذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكوّن يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض. فبهذا الطريق حسن جعل الرّتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود، وخامسا: أن الليل سابق على النّهار لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ...﴾[4]، وكانت السّماوات والأرض مظلمة أولاً، ففتقها الله بإظهار النّهار المبصر»[5].

إنّ الرازي بعد عرضه لهذه الآراء المختلفة لم يستثن أيّ واحدٍ منها، بل رتَّبها من حيث الرجحان إلى مراتب، فجعل الوجه الأول أوْلاها، ثم الثاني والثالث، بعد أن قدَّم في الذكر الوجه الرابع والخامس، ثم اختصر رأيه في قوله: «دلالة هذه الوجوه على إثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة، لأنّ أحدا لا يقدر

---

[1]- سورة الطارق، الآية/ 11-12.

[2]- سورة الشورى، الآية/11.

[3]- سورة الأنبياء، الآية/56.

[4]- سورة يس، الآية/37.

[5]- مفاتيح الغيب، ج 22/ 137-138.

على مثل ذلك، والأقرب أنّه سبحانه خلقهما رتقا لما فيه من المصلحة للملائكة، ثم لَمَّا أسكن الله الأرض أهلها جعلهما فتقا لما فيها من منافع العباد»[1].

يبدو أنّ الرازي يأخذ بالوجه القائل أنّ المراد بالفتق فتق السّماوات بالمطر والأرض بالنبات مادام يربط بين هذه العملية وتحقيق المنفعة للعباد من أهل الأرض؛ أمّا ربطه بين عملية الرتق ومصلحة الملائكة، فأيُّ مصلحة للملائكة بهذه المخلوقات المادية (السّماوات والأرض)، والملائكة مخلوقات نورانية لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، فهي لا تحتاج إلى قانون طبيعي معدوم أو موجود، في عبادتها للمولى عزّ وجلّ.

ومن التفاسير الحديثة التي أشارت إلى توافق ظاهر هذه الآية مع النّظريات الفلكية، تفسير سيد قطب، يقول في تفسير الرتق والفتق: «وتقريره أن السّماوات والأرض كانتا رتقا ففتقتا مسألة جديرة بالتّأمل، كلّما تقدّمت النّظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثمائة عام.

فالنّظرية القائمة اليوم هي أنّ المجموعات النّجمية كالمجموعة الشّمسية المؤلّفة من الشّمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر... كانت سديما، ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية، وأنّ الأرض كانت قطعة من الشّمس ثم انفصلت عنها وبردت، ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية تقوم اليوم، وقد تُنْقَضُ غدًا، وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية...

وقد يشير القرآن أحيانا إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا: «أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما»، ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن، وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السّماوات والأرض، أو فتق السّماوات عن الأرض، ونتقبل النّظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن، ولكنّنا لا نجري بالنّص القرآني وراء أيّة نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقا للقرآن في نظريات البشر، وهو حقيقة مستيقنة! وقصارى ما يقال: إنّ النّظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النّص القرآني السّابق عليها بأجيال!»[2].

يشير سيد قطب إلى إعجاز القرآن اللامتناهي، والذي يتوضّح تدريجيا كلما تقدّم العلم، فللقرآن السّبق في الإشارة إلى هذه الحقائق، وإن كانت محاولات تفسير الظواهر الكونية تبقى جهدا بشريا لا يخلو من

[1]- المرجع نفسه، 22/ 138.

[2]- في ظلال القرآن، ج 04/ 2376.

النقص، ودليل ذلك نَقضُ هذه النظريات لبعضها، لذلك فهو يرفض إسقاطها على الآيات وتفسيرها بها، لكنّه لا ينفي عدم التعارض بين الخطاب القرآني في ظاهره وبين العلم بإحدى النظريات التي كانت على زمانه النظرية المفسّرة لنشوء الكون، والتي يعتبرها عبد المجيد الزنداني حقيقة كان القرآن سابقا إلى الإخبار بها، يقول الزنداني في كتابه "توحيد الخالق": «كشف التقدم العلمي في علمي الفلك والجيولوجيا أنّ الأرض كانت جزءا مما في العماء أو النّجوم، والاختلاف بين العلماء في تحديد أصلها هل من الشمس أم من نجم؟ وإذا سألنا عن أصل الشمس وجدناه واحدا يسمونه (السّديم) انفصلت منه النجوم والكواكب والشمس، كما انفصلت الأرض، وهذا أمر صعب التصور على الإنسان، لكنّ هذه الحقيقة التي أجمع عليها علماء الفلك والجيولوجيا وأخبرنا بها القرآن»[1].

يتعامل الزنداني مع هذه النظرية على أنّها حقيقة علميّة، بدليل تعبيره عنها بعبارة (كشف التقدم العلمي)، والكشف هو تجلي الحقيقة، وفي نفس الوقت يوجد تناقض بين اعتباره إياها حقيقة يسقطها على نص قرآني وبين حيرة هذه النّظرية في تحديد أصل الأرض أمن شمس هي أم من نجم؟ وإذا وقفنا على قضية النّجوم، فإنّنا نجد القرآن في حديثه عن خلق السّماء جعلها –النّجوم– آخر شيء ،و وصفها بأنّها زينة السّماء الدنيا، يقول تعالى في سورة الملك: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥**﴾[2]، ويقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: «الدّنيا القربى، لأنّها أقرب السّماوات إلى النّاس، ومعناها: السّماء الدنّيا منكم، والمصابيح السّرج سميت بها الكواكب، والنّاس يزينون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح، وقيل: ولقد زيّنا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح أي بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة، وضممنا إلى ذلك منافع أخر: أنّا جعلناها رجوما لأعدائكم الشّياطين الذين يخرجونكم من النّور إلى الظلمات، وتهتدون بها في ظلمات

[1]- كتاب التوحيد/ 67.

[2]- سورة الملك /03-05.

البرّ والبحر، قال قتادة: خلق الله النّجوم لثلاث: زينة للسّماء ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به»[1].

هذا بالنسبة للنّجم، أمّا فيما يخص الشّمس فلو كانت الأرض منبثقة عنها لكان خلق الشّمس سابقا على خلق الأرض، لما لم يعبّر القرآن عن تكوين الشّمس بالإبداع؟ وكيف يُؤخذ الزنداني بحيرة العلماء في أصل الأرض؟! ولقد عارض هذا الأخير أبو محمد عبد الكريم بن صالح ونقده نقدا لاذعا لإتباعه العلماء الغرب وإسقاط نظرياتهم العلمية على الآيات الكونية في القرآن الكريم، يقول في كتابه الفرقان في بيان إعجاز القرآن: «يبحث صاحب كتاب توحيد الخالق عن آيات يغصبها لتجاري علوم الملاحدة، ويزعم أنّ ذلك من إعجاز القرآن، وأنّه يوجِب الإيمان، ولقد تكلّم هو وكثيرون غيره في بدء الخلق وفي وصف الأرض وما فوقها بكلام هو من أخطر الكلام وأضرّه على عقيدة المسلم والآيات المذكورة [الآية30 من سورة الأنبياء، الآيات: 01-05 من سورة النازعات] تدل على ما ذهبوا إليه، فإن كلام السّلف فيها مخالف من كلّ وجه لكلام هؤلاء فآية سورة الأنبياء كلام السّلف فيها ابن عباس وعطية العوفي، وأبو صالح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، ويحيى، وابن كثير كلامهم في الآية أنّ السّماوات والأرض متصل بعضها ببعض ففتق هذه من هذه فجعل السّماوات سبعا، والأرض سبعا، وفصل بين السّماء الدنيا والأرض بالهواء، ومعنى (رتقا): أن السّماء لا تمطر، والأرض لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، وأنّ السّماء واحدة ففتق منها سبع سماوات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أراض، وأنّه فصل بين الأرض والسّماء بالهواء»[2].

يعتمد هذا الكاتب في نقده للزنداني على آراء السّلف في تفسير الآيات الكونية، وهو في كتابه يرفض تماما مقولة الإعجاز العلمي في القرآن، ويرى فيها انقيادا وراء الملاحدة، ونقص في العقيدة، يقول في مقدمة كتابه: «والمراد من هذا الكتاب النظر في هذا الطوفان الغامر المسمى (إعجاز القرآن العلمي) برغم تصديق كلام الله، وتصحيحه وتأييده هذه النّظريات التي يطلق عليها اسم العلم، التي وفدت من

[1]- الكشاف، 577/04.

[2]- الفرقان في بيان إعجاز القرآن / 115.

ملاحدة أصَّلوا علومهم ونظرياتهم على جحود الخالق سبحانه وبحمده، فهل القرآن حقيقة يوافق ذلك أم يخالفه؟ فلننظر لقوله تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ ﴾[1] »[2]

إنّ رفض صاحب كتاب الفرقان في بيان إعجاز القرآن لقضية الإعجاز العلمي في القرآن تعود إلى كون أصحاب العلم الحديث من الكفار الذين أسسوا علمهم على فكرة جحود الخالق، وهذا السّبب غير كافٍ لرفض الإعجاز العلمي في القرآن؛ لأنّه وإن كانت الغاية إنكار الخالق إلاّ أنّ الكثير من الحقائق التي توصلوا إليها تعزز فكرة وجوده ووحدانيته، وهو ما أقرّ به الكثير من علمائهم، وكانت هذه الحقائق سببا في إسلام بعضهم، فلا يجوز الرّفض المطلق لهذا الوجه من الإعجاز في القرآن الكريم.

والآية ثلاثون من سورة الأنبياء بالإضافة إلى ما تحمله من الدلالات حول نشأة الكون، فإنّ الخطاب فيها موجه إلى الذين كفروا، فلما خصَّ الكفار بهذا الاستفهام الإنكاري في هذا الموضع من القرآن الكريم، وهو موضع دقيق يحتاج إلى تبحّر أهل الاختصاص في علم الفلك. إنّ إشكالية التفسير العلمي للقرآن الكريم بين الرفض والتأييد تعود إلى الإسقاط المفرط لكلّ ما هو علمي، ولو كان مجرد نظرية على الآيات الكونية، رغم اجتهاد العلماء في وضع مقاييس وشروط للتفسير العلمي للقرآن[3].

إنّ انطلاق هؤلاء الباحثين من الزاويّة الشّخصيّة –علميّة أو مذهبيّة أو عقائديّة– لفهم النّص القرآني لا يعطي للنّص حقه من الدلالة التي يجب الانطلاق في تحديدها من الزاوية القرآنية التي تجمع بين المنهج التكاملي والتّناسق التعبيري في عرض الحقائق، ويكون ذلك انطلاقا من الطبيعة اللغوية لهذا الخطاب، ثم من المفاهيم القرآنية للمصطلحات الكونية في القرآن الكريم، ولا يكون ذلك إلاّ بالكشف عن كلّ العلاقات اللغوية على مستوى الآية الواحدة، ثم الكشف عن العلاقات المعنوية على مستوى جملة من الآيات تتناول موضوعا واحدا، فإلى أي مدى يشكّل مفهوم نظرية الانفجار الأعظم مدلولا لآية بدء الخلق في القرآن الكريم؟

يقول منير العلي في مفهوم هذه النظريّة: «هذا هو الانفجار الأعظم *Big bang*، حيث كان الكون كتلة واحدة متماسكة تسمى التفردية *Singularity* (وهي حالة الكتلة اللامتناهية والحجم صفر)، وانفجر

---

[1]– سورة الأنفال، الآية/42.

[2]_ المرجع نفسه/14.

[3]– ينظر: الفصل الأول/48.

مكونا الأجرام»[1]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾[2]. ويقول النّجار: «هذه الآية الكريمة واضحة الدلالة على أنّ الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية، بدأ خلقه من جرم ابتدائي واحد (مرحلة الرتق)، وهو القادر على كلّ شيء، ثم أمر الله تعالى بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق (مرحلة الفتق)، وتحوّل إلى سحابة من الدخان (مرحلة الدخان)، وخلق الله تعالى من هذا الدخان كلا من الأرض والسّماء؛ أي جميع أجرام السّماء وما ينتشر بينها من مختلف صور المادة والطاقة مما نعلم وما لا نعلم»[3].من خلال هذه الأقوال يمكن مناقشة نظرية الانفجار الأعظم في النقاط الآتية:

أ- القول بالتفردية التي تعني اللاشيء اللامتناهي في الثقل، والذي يساوي بالمفهوم العلمي الجرم الابتدائي على حدّ تعبير علمائنا المحدثين. وإذا كان مدلول الرتق هو التحام الفتق والتئامه، فما الذي كان مرتتقا في هذا الجرم المجهول المادة، أو المنعدم المادة بتعبيرهم اللاشيء؟!

ب- التعبير عن نشوء الكون في النظرية العلمية المعاصرة بالانفجار، وإسقاط هذه الظاهرة الغير المشهودة، والمتوصل إليها بقوانين فيزيائية تنعدم عندها، مما لا يمكن للعقل البشري تصوره، أمر يتناقض مع المنطق العقلي، فما مصداقية الحقائق العلمية التي تتناقض مع المنطق؟!

ج- إذا كان فناء الكون بالحسابات العلمية ذاتها، سيكون بنفس الطريقة «السّحق الأعظم *(Big grunch)*، حيث ينهار الكون وينكمش نحو الفناء عندما تصل كثافته وينتهي بما يسمى ثقبا أسودا موحدا، أو تفردية الثقب الأسود *(Block hole singularity)* أو تفردية السّحق الأعظم، حالة التفردية هي عندما يكون الحجم صفرا والكثافة لامتناهية»[4].

فهل يقبل التعبير القرآني الانكماش مرادفا للرتق؟ هل يقبل التعبير القرآني الانفجار مرادفا للفتق؟ إذا كان الفتق بدلالته الدقيقة تجاوز معنى الفصل إلى وجوب وجود شيئين ملتصقين إحداث فرجة بينهما هو

---

[1]- التفسير العلمي للقرآن الكريم/47.

[2]- سورة الأنبياء، الآية/30.

[3]- السماء في القرآن الكريم/95.

[4]- التفسير العلمي للقرآن الكريم/ 70.

الفتق، ولا يكون في الشّيء الواحد، فأين هذين الشيئين من كُنهِ هذا الجرم الأولي غير المعروف عند علماء الكونيات حتى يفسّر انفجاره على أنّه فتق؟

ومن النّاحية العلمية، يقول منير العلي: «إنّ نظرية الانفجار الأعظم هي السّائدة حاليا حول نشوء الكون، بدءًا من حالة التفردية الأولى *(Initial singularity)*، ولكنّها ظلت عاجزة عن تفسير الكثير، كالإجابة عن السّؤال حول ما قبل نشوء الكون، هذا مع علمنا بأنّ حالة التفردية الأولى، وكذلك حالة التفردية الأخيرة عند فناء الكون، هما من المقتضيات الحسابية الرياضية لهذه النظرية، ولكنّهما نقائض لا منطقية، فكيف تكون هناك حالة اللاشيء التي حجمها صفر، وكتلتها لانهائية (بقدر كتلة الكون أقلّها) يتكون منها الكون الذي في النهاية سيعود إلى تلك الحالة اللاشيئية ذات الكتلة اللانهائية؟»[1]. كيف يمكن إذاً التعامل مع نظرية تتناقض مع المنطق العلمي في جوهرها كحقيقة علمية ونفسّر بها آية قرآنية؟

إنّ مشكلة هذه النظرية تجاهلها للمادة التي سبق وجودها خلق الكون، والتي صرَّح بها القرآن: «وكان عرشه على الماء»، و بالإضافة إلى ذلك تعامل المفسرين المحدثين مع الدلالة اللغوية للمفردة القرآنية تعاملا سطحيا، إذ يأخذون من المعاني المعجمية للفظة ما يتناسب مع نظرياتهم العلمية، والمفردة القرآنية إذا كانت تشير إلى حقيقة علمية لا بدّ من الرجوع إلى المحاور الأساسية لاختيارها، وهي أصلها الاشتقاقي، وبنيتها الصرفية، ودلالة أصواتها، لأنّ القرآن دقيق في تعابيره؛ فإذا ما تضمنت الآية إشارة إلى حقيقة علمية فإنّه يقدم مصطلحات وليس مفردات تقبل مرادفا، سواء من داخل النّص القرآني أو من خارجه؛ ف: «كلّ لفظة من ألفاظ القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا نجد فيه ترادفا، بل كلّ كلمة تحمل إليك معنى جديدا»[2].

فالتّرادف وإن كان موجودا في اللغة فهذا لا يعني وجود في السياق القرآني، فهناك مقصديّة في الاستخدام تمنع أن يقوم لفظ مقام آخر، وهو ما يؤكّده عدم استخدام القرآن للفظتي الرّتق والفتق منفصلتين أو مجتمعتين في أيّ موضع آخر من القرآن يحمل دلالة الفصل أو القطع، أو الانشطار أو الانشقاق، أو الالتحام... وهو مؤشّر على عدم تكرار الظاهرة مما يعني أنّ الآية ثلاثين من سورة الأنبياء بكلّ عناصرها الدلالية تعطي المشهد الأول لعملية بدء الخلق، وتصبح دلالة الفتق على وجوب اتصال شيئين لإحداث الفتق، تجعلنا نطرح سؤالا: مِمَ فتقت الأرض والسّماء؟ أمن بعضهم أم كانتا ملتصقتين بشيء آخر هو

[1]- التفسير العلمي للقرآن الكريم/50.

2- الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق/222.

مصدر الخلق، وفتقتا منه بإرادة المولى عزَّ وجلَّ؟ ألهذا علاقة بذكر الماء في الجملة التي بعد فعل الفتق؟ ولاحظنا في الفصل الثاني أنّ الرابط بين الجملتين حرف الواو، والواو وإن أفاد العطف فهو لا يفيد الترتيب، وهذا المعنى لا بدّ وأن تكون له علاقة مع حقيقة وجود الماء قبل الخلق.

ومادامت المفاهيم القرآنية للمدلولات الكونية –كحقيقة الخلق– لا يمكن استجلاؤها من القرآن إلاّ بجمع حيثياتها المنثورة في الآيات الكونية الخاصة بهذا الموضوع؛ وإذا كان جمع هذه الحيثيات يستدعي قرائن لفظيّة على مستوى الآية الواحدة، وقرائن معنويّة على مستوى جملة من الآيات تشكّل تصورا لحقيقة هذا المدلول، يمكن طرح الإشكال التالي: بالإضافة إلى استخدام الواو رابطا بين الجملتين (كانتا رتقا ففتقناهما **و**جعلنا من الماء كلّ شيء حيّ)، لماذا جاء الفعل جعلنا متعلقا بالماء في هذا الموضع، ولم يذكر في سياق الآية أيّ شيء عن أيّ كائن حيّ يحيا بالماء؟

استخدم القرآن الفعل جعل بعدة معان، وهو في اللغة بمعنى[1]: صنع وصيَّر، وعمل وهيأ، وكذلك بمعنى خلق إذا كان مسندا إلى المولى عزّ وجلّ، كقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾[2]، «أَي خَلَقْنا. وإِذا قَالَ الْمَخْلُوقُ جَعَلْتُ هَذَا الْبَابَ مِنْ شَجَرَةِ كَذَا فَمَعْنَاهُ صَنَعْتَه»[3]، ويقول القرطبي في استعمالات "جعل" في القرآن الكريم: «والجعل يكون بمعنى التعبير والوصف والتسمية، وقد يكون بمعنى الخلق بدلالةٍ تدل عليه، نحو قوله: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾[4] أي: وخلق، لكن إذا كانت " جعل " بمعنى " خلق " لم تتعد إلاّ على مفعول واحد»[5]، ويقول: «وجعل يكون بمعنى "صيَّر"، وبمعنى: "سمَّى" وبمعنى "خلق"، فإذا كانت بمعنى: "صيَّر" تعدت إلى مفعولين، وكذلك إذا كانت بمعنى: "سمَّى" كقوله: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا**﴾[6]، وإذا كانت بمعنى: " خَلَقَ " تعدّت إلى

1- لسان العرب، مادة (جعل).
2- سورة الأنبياء، الآية/30.
3- المرجع السابق ، مادة (جعل).
4- سورة الأعراف، الآية/189.
5- الهداية إلى بلوغ النهاية ،ج1894/03.
6- سورة الزخرف، الآية/03.

مفعـــول واحـــد، كقولـــه): ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾[1]، وقولـــه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[2]، هي بمعنى: " صيَّر " تعدت إلى مفعولين وهما: {ابن}، و {آيَةً}»[3].

إنّ تحديد معنى جعل في القرآن يكون بالاعتماد على السّياق من جهة، ومن جهة أخرى على عملها، فإذا كانت تنصب مفعولا واحدا فهي بمعنى خلق، وإذا نصبت مفعولين فهي بمعنى صيَّر، أو بمعنى آخر يفهم من خلال السّياق، واحتمالها لأكثر من معنى يدل عليه التعبير القرآني من حيث استعمالها للتعبير بها عن أفعال العباد، وقد بيَّن ذلك عبد العزيز الكناني في كتابه "الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن" يقول: « إنّ جعل في كتاب الله عز وجل يحتمل معنيين عند العرب، معنى خَلَق، ومعنى صير غير خلق، فلمّا كان خلق حرفا محكما لا يحتمل معنىً غير الخلق، ولم يكن من صناعة العباد لم يتعبد الله به العباد فيقول لهم: اخلقوا أو لا تخلقوا، إذ كان الخلق ليس من صناعة المخلوقين وكان فعل الخالق سبحانه وتعالى"، ولما كان "جعل" على معنى "صير" لا على معنى "الخلق" خاطب الله به العباد بالأمر والنهي فقال: اجعلوا ولا تجعلوا، ولما كان جعل كلمة تحتمل معنيين، معنى "خلق ومعنى صير" لم يدع الله في ذلك اشتباها على خلقه ولبسا على عباده، حتى يجعل كلّ كلمة علما ودليلا فرّق به بين الجعل الذي يكون على معنى الخلق، وبين الجعل الذي يكون على معنى التصيير»[4]، من خلال وظيفة معمولها، فإذا تمّ المعنى عنده كانت بمعنى خلق، وإذا احتاج التعبير إلى معمول ثان كانت بمعنى صيّر.

أمّا الفرق بين استخدامهما –الخلق والجعل– في القرآن، فيقول فيه الطاهر بن عاشور: « فَإِنَّ فِي الْخَلْقِ مُلَاحَظَةَ مَعْنَى التَّقْدِيرِ، وَفِي الْجَعْلِ مُلَاحَظَةَ مَعْنَى الِانْتِسَابِ، يَعْنِي كَوْنَ الْمَجْعُولِ مَخْلُوقًا لِأَجْلِ غَيْرِهِ أَوْ مُنْتَسِبًا إِلَى غَيْرِهِ... فَفِعْلُ (خَلَقَ) أَلْيَقُ بِإِيجَادِ الذَّوَاتِ، وَفِعْلُ (جَعَلَ) أَلْيَقُ بِإِيجَادِ أَعْرَاضِ الذَّوَاتِ وَأَحْوَالِهَا وَنِظَامِهَا»[5].

1- الأنعام، الآية/01.

2- المؤمنون، الآية/50.

3- الهداية إلى بلوغ النهاية، ج 3006/04-3007.

4- الحيدة الاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن/69.

5- التحرير والتنوير، ج127/07.

وإذا عدنا إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾[1]، وجدناها تحتمل المعنيين لتعدد أوجه إعرابها كما رأينا في الفصل الثاني، ولنتأمل دلالة هذا التركيب عنصرا عنصرا، ونحاول الربط بين ما يعطينا من مفهوم، وبين حقيقة وجود الماء قبل الخلق.

الواو: تفيد الربط لا الترتيب.

جعلنا: تحتمل معنى الخلق والتصيير.

من :تفيد ابتداء الغاية.

الماء: مع عامله متعلقان بجعلنا إذا كانت بمعنى خلقنا، وإذا كانت بمعنى صيرنا يكونان مفعولا ثانيا، والمهم هو ذكر الماء مقدما على شيء موافق لأسبقية وجوده على الخلق.

كلّ شيء: دلالة (كلّ) على الاستغراق؛ قد تدخل ضمن دلالة الشيء السّماوات والأرض، بما أنّ الشيء يطلق على كلّ ما له ماهية يعرف بها عن طريق الحواس.

حيّ: تدل على كلّ ما هو موجود، وليس كلّ حيوان (ما كان بالتناسل) فقط، والذي يؤكد هذا المعنى الربط بين فعل "الفتق" والفعل "جعلنا" بالواو لأنّه لو أراد بها المعنى السابق لاستخدم "ثم" لأنّها أدل على الترتيب، وعلى الفارق الزمني بين خلق السّماوات والأرض، وبين خلق الكائنات الحية، ويؤكد هذه الدلالة سياق الآية، لأنّه من خصائص البيان القرآني التناسب بين آياته وسوره، ولم يذكر في الآية التي بعدها ما تعلّق بخلق النبات أو الحيوان أو الإنسان.

يمكن القول إنّ هذا التعبير يدلّ على تعلّق الماء بخلق السّماوات والأرض في هذه الآية، وإلاّ لماذا ذكر الماء قبل الخلق؟ وذكر الماء مع الكيفية التي حدث بها الخلق، وعلّقه بفعل بمعنى الخلق –جعلنا– وهو أنسب في هذا الموضع من فعل الخلق، لأنّه جاء في سياق عرض تحول السّماوات والأرض من حالة العدم إلى حالة الوجود، ألا يمكن القول إنّ الماء مصدر الخلق وليس مصدر الحياة فقط؟ ألا يمكن القول إنّ السّماوات والأرض فتقتا من مصدر واحد هو الماء؟ لذلك عبَّر القرآن عن حالهما قبل الخلق بمصدر لغوي تضمّن في دلالته على الحدث دون الزمن، حالة السّكون التي كان عليها ذلك المصدر الكوني – الماء–وحين شاء الله للكون أن يكون أخرجه من حالة السكون وأوجد منه السّماوات والأرض. إذا كانت هناك وحدة قائمة في الخلق بين الكون والكائنات الحية من حيث المادة، والكائنات الحية مصدر حياتها الماء، فما الذي يمنع أن يكون هو منشأ الكون؟

1- سورة الأنبياء، الآية30.

إنّ الله في هذه الآية يعبِّر بدقة وبإيجاز عن المشهد الأول لخلق الكون، وعلى أصحاب التفسير العلمي أن يأخذوا بكلّ العناصر الدلالية في هذه الآية لأنّها تمثل مشهدا واحدا، فلا يجوز إسقاط أيّ عنصر منها بما في ذلك السّياق الذي جاءت فيه، وبما أنّ التفسير العلمي يتناول آيات معينة حسب الموضوع العلمي المطروق، فلا بدَّ من الأخذ بعين الاعتبار أثناء التّفسير كلّ الآيات التي تتحدث عن نفس الموضوع، لأنّ ما تفرزه كلّ آية من الدلالات يتصل بما تفرزه الأخرى؛ أولاً من باب المناسبة ثم من باب التفصيل أو الإيجاز أو الاعتبار، لذلك إذا كانت لدينا أسئلة حول هذا الوجود يجب أن نبدأ في البحث عن الإجابة عنها من القرآن الكريم، لأنّه يتضمَّن الحقيقة، ويتضمَّن المنهج المناسب لعرضها، ثم نقارنها بما توصَّل إليه العلم إن كان حقيقة وليس نظرية، فالانطلاق من التصورات العلمية ومحاولة تقصيها في النّص القرآني هو الذي يوقع الباحث في خطإ الإسقاطات العلمية، ظنا منه «أن مواءمة القرآن الكريم للعلم التجريبي لا تتحقق إلاّ بتتبع جزئيات الحقائق العلمية وأفرادها وربطها بالإشارات القرآنية، مع أنّ مواءمة القرآن للعلم التجريبي متحققة بالمنهج العلمي الاستدلالي وطريقة التفكير النقدي التي يقررها القرآن، ويشهد على ذلك انسجام القضايا الكلية الكبرى في القرآن مع معطيات المنهج العلمي المعاصر»[1].

وإذا ساءلنا القرآن عن الأسئلة الوجودية أجابنا بكلّ وضوح وللجميع حقّه في المعرفة، ويتفاوت تحصيلها عندهم كلّ على حسب مؤهلاته، فإذا قلنا:

- من خلق الكون؟ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[2].
- ماذا كان قبل الخلق؟ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[3].
- كيف خلقهما؟ ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ﴾[4].
- ما هي مدَّة الخلق؟ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1].

1- كبرى اليقينيات الكونية/03.

2- هود، الآية07، الأعراف، الآية54، يونس، الآية/03، إبراهيم، الآية/32، الإسراء، الآية/99.

3- هود، الآية/07.

4- الأنبياء، الآية/30.

– ما بيان ذلك أو تفصيله؟ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[2].

هذه معطيات القرآن حول نشأة الكون عرضها القرآن بأسلوب معجز جمع بين الإيجاز والدقة، إيجاز تطمئن له الفطرة، وتبتلى به عقول النخبة. إنّ القرآن يقدِّم لنا هذه الحقائق في صورتها النهائية كما يراها العام والخاص، حتى يهتدي بها الإنسان إلى وجود الله، ويعرضها صورا مجزأة للاستدلال بها على قدرة الخالق وحكمته، فلا يجب على الإنسان أن يتعامل مع القرآن تعامله مع الكون، فيسقط عليه النظريات والتجارب، فيكون بذلك قد حاول دون قصد منه إخضاع النص لسلطة العقل، وإن كان الخطاب القرآني موجها للعقل، فمعنى ذلك كما يقول سيد قطب: « أنّه وإن كان يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلاّ الإذعان. و يخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة. ويخاطب العقل أنّه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه.. فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلاّ التسليم بها فهو مؤمن، أو عدم التسليم بها فهو كافر.. وليس هو حكماً في صحتها أو بطلانها»[3].

والتّمكّن من فهم مدلولات الخطاب القرآني لا يكون إلاّ بامتلاك ناصية هذه اللغة التي اختارها الله لسانا له ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[4]، فكان البيان بمفهومه الواسع الذي «يشمل الإفصاح والإظهار والإبانة

---

1 – ق، الآية/38.

2–سورة فصلت / 09 _12.

3– الوقفات الفكرية في ظلال القرآن /383.

4– سورة الشعراء، الآية/195.

عن كلّ ما يختلج في النّفس من المعاني والأفكار»[1]، خاصيتها التي أبرزها القرآن من خلال أساليبه في استعمالها، فالصوت فيه يوحي بظلال المعنى، والصيغة تبرز هيئة المعنى كما هو موجود في الواقع الحسي أو العقلي، ودلالة المفردة تكشف عن تواطؤ الأصوات في تشكيل معناها الأصلي ومناسبته لمعنى الآية، أمّا التركيب فهو يكشف عن الصورة، ويعكس الأزمنة المشكلة لها، والسياق يهدي إلى الغاية من مجموع ما سبق، والكلّ يجتمع على إقرار التوحيد.

إنّ ما تقدَّم عرضه حول نظريّة الانفجار الأعظم، وحيرتها أمام حقيقة نشوء الكون في القرآن وفي الواقع، لا يعني أنّ العلم لا يتوافق مع القرآن، فالعلم عندما يكون مبنيا على دلائل يقينية من المستحيل أن يصطدم مع القرآن والكثير من الظواهر الفلكية التي تمكّن الإنسان من رصد حركتها، ومعرفة خصائصها من خلال أجهزته العلميّة، وافقت ما جاء به القرآن عنها سواء من خلال تخصيص التعبير عنها بمفردات تدخل في حقل دلالي واحد يعكس حقيقة وجودها في الكون، أو من خلال اختيار صيغ معينة للتعبير عنها.

2- حقائق السّماء والأرض بين القرآن والعلم

2- 1- السّماء بين القرآن والعلم:

من خلال التّحليل اللغوي لمفردة السّماء في التعبير القرآني بالمقارنة بين دلالتها في اللغة، ومعانيها في القرآن الكريم، ومن خلال ما دلّت عليه صفاتها في القرآن (الطرائق، الطباق، البناء...)، والتقابل بين أحوال تكوينها وأحوال زوالها، أمكننا القول إنّ السّماء عالم علوي لا متناه في الاتساع، يتميز بالتعدد والإحكام.

وقد دلَّ على تعددها في القرآن استخدامها بصيغتي الإفراد والجمع، فتجيء مفردة إذا قصد بها العلو أو الرّفعة، أو إذا قصد بها السّقف الذي يعلو الأرض أي السّماء الدنيا، أمّا إذا قصدت بها ذواتها المحسوسة –كما قال ابن القيم– تذكر جمعا[2]، وفي الحالتين ارتبط العدد سبعة بذكرها في القرآن، يقول سبحانه وتعالى:

1- الإعجاز البياني في القرآن الكريم (دراسة نظرية في الآيات المحكمات)، ج167/01.

2- بدائع الفوائد، ج115/01.

- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1]

- ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾[2].

- ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[3].

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[4].

- ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾[5].

- ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴾[6].

- ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴾[7].

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾[8].

1- سورة الإسراء، الآية/44.
2- سورة المؤمنون، الآية/86.
3- سورة فصلت، الآية/12.
4- سورة الطلاق، الآية/12.
5- سورة الملك، الآية/03.
6- سورة نوح، الآية/15.
7- سورة النبأ، الآية/12.
8- سورة المؤمنون، الآية/17.

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[1].

هناك من أخذ عن العرب[2]، وعن اليونان والرومان استخدامهم الرقم سبعة لما يفيد التّعدد غير المحدود[3]، ورأوا بأنّ استخدامه في القرآن إشارة إلى تعدد الأكوان أي السّماوات والأرض، يقول موريس بوكاي بعد أن عرض بعض الآيات الذي ذكرناها: «بالنسبة لكلّ هذه الآيات يجمع مفسرو القرآن على أنّ الرقم سبعة يشير إلى تعدد دون تحديد آخر، السّماوات إذن متعددة، وكذلك الكواكب المشابهة للأرض»[4]. لو نلاحظ الآيات السّابقة نجد المولى عزّ وجلّ كرر ذكر هذا العدد –سبعة– مقترنا بلفظ السّماء بصيغة الجمع في سبع آيات، وفي موضعين: (النبأ/**12**، المؤمنون/**17**)، عدل عن ذكر لفظ السّماء وترك ما يدل على معناها الوصفي (العلو والرفعة).

من أساليب العربية في التأكيد؛ التّكرار، «وهذا التّكرار القرآني في الإشارة إلى سبع سماوات في سبع آيات (وهو أمر معجز في حد ذاته)، لا بدَّ وأن يكون القصد منه التحديد والحصر، لا مجرد التعبير عن التعدد و الكثرة»[5]. فإرادته بكونهن سبع سماوات كانت نافذة، فعبَّر بذلك بقوله: (فقضاهن) في سياق تفصيله لعملية خلق السّماوات بعد أن كانت دخانا، ولم يعلمنا عن أحوالهن شيئا ما عدا بعض أحوال السّماء الدنيا، والتي عجز العلم عن الإحاطة بمكوناتها، لكنّ الجزء المحدود والمدرك منها لا يتجاوز حدود الفضاء المحيط بالأرض والذي يطلق عليه أيضا لفظ السّماء لإحاطته بالأرض من جهة العلو.

ولقد خصَّ التعبير القرآني هذه العوالم المحيطة بالكرة الأرضية بلفظ (البناء) بصيغته المصدرية والفعلية، وهو حقل دلالي ضمَّ تحته عدة ألفاظ عبَّر بها القرآن عن تكوين السّماء (الرّفع، السّمك، التّسوية، الطباق، الشَداد)، ويكون ذلك دائما في سياق تقابلي مع الأرض وتكوينها، أو ما يدلّ على انتفاع الأرض من جهة السّماء، كذكر المطر، الشمس، القمر... فقوله تعالى: «فبنينا فوقهم سبعا شدادا»

1- سورة البقرة، الآية/29.
2- السّماء في القرآن الكريم /142.
3- القرآن والعلم الحديث /171.
4- المرجع نفسه.
5- السّماء في القرآن الكريم /143.

سبقه الحديث عن الأرض ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾[1]، وجاء بعده الحديث عن الانتفاع بنور الشّمس وما ينزل من السّحاب من غيث: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[2]، والملفت للنظر أنّ هذه المادة (بناء) عبّر بها عن السّماء سبع مرات.

أمّا حقيقة البناء من المنظور العلمي فيمكن الحديث عنها من خلال أقرب سماء إلى الأرض وهو غلافها الجوي، الذي يحيط بها بشكل مستوٍ لا شقوق فيه ولا فطور فـ«الأرض محمية بسبع طبقات هوائية، وكأنّها أسقف من الفولاذ تحمي الأرض، لذا نرى النيازك الهابطة على الأرض تصبح كغبار يطير في الهواء أو التراب»[3]، فهو يحمل خاصية البناء وهو ذو تركيب «كيميائي واحد تزداد كثافته قرب سطح الأرض وتقل مع ارتفاعنا إلى أعلاه، فهو مرتب كتركيب الجدار، أساس مركَّز ثم جدار حامل أقلّ تركيزا من الأساس ثم جدار ضعيف... وعلى ارتفاع معين من هذا البناء العالي تأتي طبقة الهواء الحارّ الغنيّة بعنصر الأوزون لتكون بمثابة السقف الحافظ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣ ﴾[4]، إذ سيقوم بامتصاص حرارة الشمس، وتقوم على حماية الأحياء على الأرض من أكثر الأشعة الشمسية فوق البنفسجية نشاطا»[5]، وتسبح كرتنا الأرضية بغلافها الجوي في فضاء – السّماء الدنيا– الذي يتشكل من مجموعة من المجرات عجز العلم الحديث عن حصرها، «ويحصي علماء الفلك بالجزء المدرك من الكون مائتي ألف مليون مجرة على الأقل من أمثال مجرتنا (درب التبانة)، بعضها أكبر كثيرا، وبعضها أصغر قليلا منها»[6].

والخاصية التي تميز هذه المجرات هي التباعد الذي عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[7]، وموسعون اسم فاعل من أوسع يدل على القوة الفاعلة –التي كنى عنها بأيد–

1- سورة النبأ / 06-07.
2- سورة النبأ / 13-14.
3- الموسوعة الكونية الكبرى /151.
4- سورة الأنبياء، الآية/32.
5- المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، 62/04.
6- السّماء في القرآن الكريم/87.
7- سورة الذاريات، الآية/47.

هذه القوة المتحكمة في خط سير هذا البناء، يقول زغلول النّجار: «تشير هذه الآية الكريمة إلى أنّ الكون الشّاسع الاتساع الدقيق البناء المحكم الحركة، والمنضبط في كلّ أمر من أموره، والثابت في سننه وقوانينه، قد خلقه الله تعالى بعلمه وحكمته وقدرته، وهو سبحانه الذي يحفظه من الزوال والانهيار... والجزء المدرك لنا من هذا الكون شاسع الاتساع بصورة لا يكاد عقل الإنسان إدراكها... وهو مستمر في الاتساع اليوم وإلى ما شاء الله، والتعبير القرآني: «إنَّا لموسِعون» يشير إلى حقيقة توسع هذا الكون باستمرار إلى ما شاء الله، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلاّ في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، حيث ثبت لعلماء كلّ من الفيزياء النظرية والفلك أنّ المجرات تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات تتزايد بتزايد بعدها عن مجرتنا، وتقترب أحيانا من سرعة الضوء المقدرة بحوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية»[1].

ورغم اتساعها المطرد، يبقى بناؤها محكما فلا فروج ولا فطور، قال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ۝٦﴾[2]، والفروج في اللغة جمع (فَرْج)، و«(فَرَجَ) الْفَاءُ وَالرَّاءُ وَالْجِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَفَتُّحٍ فِي الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ الْفُرْجَةُ فِي الْحَائِطِ وَغَيْرِهِ. الشَّقُّ»[3]، ويقول صاحب الظلال في تفسير هذه الآية: « إنّ هذه السّماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقوه. أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب! إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا. مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال. ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج»[4]، ويتحدى المولى عزّ وجلّ بهذه الآية –عدم وجود شقوق في السّماء–عباده في سورة الملـــك فيقـــول: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ**

1- السّماء في القرآن الكريم / 87-88.
2- سورة ق، الآية/06.
3- مقاييس اللغة، مادة (فرج).
4- في ظلال القرآن، ج 3359/06.

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾[1].

أمّا علميّا ففي وقت ليس ببعيد سمى علماء الفلك المناطق المظلمة التي بين المجرات وبين التجمعات النّجمية فراغات أو فجوات، ودَفَع انقياد بعض العلماء المسلمين وراء التخمينات العلميّة الغربيّة، إلى إخراج "ما" في الآية السّادسة من سورة "ق" من دلالتها على النفي، وحمّلوها قصرا دلالة ما الموصولة[2]، حتى يثبتوا وجود فروج في السّماء متجاهلين المواطن الأخرى من القرآن التي نفى فيها الله تلك الصفة عن السّماء، يقول زغلول النّجار: «إلى عهد قريب كان علماء الفلك يعتقدون أن أجرام السّماء تسبح في فراغ تام، ولكن البحوث المتأخرة أثبتت أنّ المسافات بين كلّ من النّجوم وتجمعاتها المختلفة (المجرات وتجمعاتها وحشودها إلى نهاية الجزء المدرك من الكون) تنتشر فيها الأشعة الكونية وما تحمله من جسيمات أولية، والدخان الكوني وما يحمله من هباءات المواد الصلبة (الرماد) بالإضافة إلى ما يعرف باسم المادة الداكنة»[3].

وسبحان الذي قال: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[4].

2-2- الأرض بين القرآن والعلم:

في الفصل الثاني خلصنا إلى أنّ الأرض من حيث دلالتها اللغوية تطلق على العوالم السّفلية المقابلة للسّماء، ومن حيث استعمالها في القرآن الكريم، فهي تطلق على اليابسة التي جعلها الله قرارا للإنسان فمهّدها وبسطها وفرشها حتى تكون صالحة لمعاش الإنسان، أمّا تخصيصها بصيغة الإفراد على عكس السّماوات التي جاءت مفردة وجمعا، فرأينا فيه بعدا معنويا، وهو تفردها بالصلاحية لمعاش الكائنات الحية، أمّا القيمة العددية سبعة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ

1- سورة الملك / 03-04.
2- السّماء في القرآن /359.
3- المرجع نفسه /367.
4- سورة النّمل، الآية/93.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[1]،

فيجب التسليم بها إلى أن يشاء الله كشف حقيقتها؛ لكنّه رقم يظل يرتبط ببنية الكرة الأرضية من حيث عدد طبقاتها[2]، وفيما يخص ما وصفه القرآن بها بأنّها قرار ومهد، وفراش فكلّ لفظ يختص بالدلالة على ميزة من مميزاتها.

الأرض قـرار: قـال تعـالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[3].

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية:« وَالْقَرَارُ أَصْلُهُ، مَصْدَرُ قَرَّ، إِذَا سَكَنَ. وَهُوَ هُنَا مِنْ صِفَاتِ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ فِي حُكْمِ الْخَبَرِ عَنِ الْأَرْضِ، فَالْمَعْنَى يَحْتَمِلُ: أَنَّهُ جَعَلَهَا قَارَّةً غَيْرَ مَائِدَةٍ وَلَا مُضْطَرِبَةٍ فَلَمْ تَكُنْ مِثْلَ كُرَةِ الْهَوَاءِ مُضْطَرِبَةً مُتَحَرِّكَةً، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ قَارَّةً لَكَانَ النَّاسُ فِي عَنَاءٍ مِنَ اضْطِرَابِهَا وَتَزَلْزُلِهَا، وَقَدْ يُفْضِي ذَلِكَ بِأَكْثَرِهِمْ إِلَى الْهَلَاكِ وَهَذَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾[4]، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى جَعَلَ الْأَرْضَ ذَاتَ قَرَارٍ، أَيْ قَرَارٍ لَكُمْ، أَيْ جَعَلَهَا مُسْتَقَرًّا لَكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[5]، أَيْ خَلَقَهَا عَلَى كَيْفِيَّةٍ تُلَائِمُ الِاسْتِقْرَارَ عَلَيْهَا بِأَنْ جَعَلَهَا يَابِسَةً غَيْرَ سَائِلَةٍ»[6]

---

[1]- سورة الطلاق، الآية/12.

[2]- الأرض في القرآن الكريم /407.

[3]- سورة غافر، الآية/64.

4- سورة الأنبياء، الآية/31.

[5]- سورة المؤمنون، الآية/50.

[6]- التحرير والتنوير، ج190/24..

يذهب الطاهر بن عاشور في تفسيره للقرار انطلاقا من دلالته على الثبات، نحو الطبيعة التكوينية للأرض من جهة أنّها لا تميد و لا تضطرب، فهي مثبتة بالجبال، ومن جهة كونها يابسة صالحة للاستقرار، بالإضافة إلى هذه المعاني يكشف العلم من خلال غوره في أعماق هذه الأرض على السّر الذي يجعلها تحافظ على استقرارها في مجالها الكوني –المجرة– فإذا كانت الجبال تثبّت قطعها المتجاورات فلا تقع الواحدة على الأخرى رغم حركة الأرض حول محورها، فإنّ ما تحمله نواتها التي هي عبارة عن نواة من الحديد وبعض النيكل بمنحها جاذبية عالية، «ولولا البنية الداخلية للأرض ما تكوَّن مجالها المغناطيسي، و قوتها الجاذبية، ولولا جاذبية الأرض لهرب منها كلّ من غلافها الغازي والمائي، واستحالت الحياة على سطحها، ولولا المجال المغناطيسي للأرض لدمّرتها الأشعة الكونية المتسارعة القادمة إليها من الشّمس ومن بقية النجوم»[1].

وهنا تظهر الحكمة من استخدام المصدر (قرارا)؛ لأنّه أوسع في الدلالة من اسم المكان (مستقر)، فهذا الأخير يقتصر على كونها مكانا لحياة الإنسان، تجمع فيه أسباب العيش، أمّا التعبير بالمصدر فهو يدل على خصوصية هذا الكوكب، وقدرته على الحفاظ على مكانه وعلى مميزاته وسط الحراك الكوني الكبير ومؤثراته، قال تعالى: ﴿**قُلۡ أَرَءَيۡتُم شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ۝٤٠ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤١**﴾[2].

الأرض مهد: قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ**﴾[3]، يقول أحمد بن فارس في الدلالة اللغوية لمفردة مهد: «(مَهَدَ) الْمِيمُ وَالْهَاءُ وَالدَّالُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَوْطِئَةٍ وَتَسْهِيلٍ لِلشَّيْءِ. وَمِنْهُ الْمَهْدُ. وَمَهَّدْتُ الْأَمْرَ: وَطَّأْتُهُ. وَتَمَهَّدَ: تَوَطَّأَ وَالْمِهَادُ: الْوِطَاءُ مِنْ

[1]- الأرض في القرآن الكريم /408.
[2]- سورة فاطر / 40-41.
[3]- سورة الزخرف، الآية/10.

كُلِ شَيْءٍ. وَامْتَهَدَ سَنَامُ الْبَعِيرِ وَغَيْرِهِ: ارْتَفَعَ»[1]، ويقول الفخر الرازي في وصف الأرض بالمهد: «الْمُرَادُ مِنْ كَوْنِ الْأَرْضِ مَهْدًا أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهَا بِحَيْثُ يَتَصَرَّفُ الْعِبَادُ وَغَيْرُهُمْ عَلَيْهَا بِالْقُعُودِ وَالْقِيَامِ وَالنَّوْمِ وَالزِّرَاعَةِ وَجَمِيعِ وُجُوهِ الْمَنَافِعِ»[2]، أي تسهيل ممارسة الحياة عليها والانتفاع بخيراتها، ويقول صاحب التحرير والتنوير:«جَعَلَ الْأَرْضَ مَمْهُودَةً مُسَهَّلَةً لِلسَّيْرِ وَالْجُلُوسِ وَالِاضْطِجَاعِ بِحَيْثُ لَا نُتُوءَ فِيهَا إِلَّا نَادِرًا يُمْكِنُ تَجَنُّبُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿**وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا**﴾[3]»[4].

إنّ المعنى الأول في التفسيرين يشير إلى الدلالة العلميّة لهذه الآية، والتي لا تخرج عن الدلالة اللغويّة، فبعد شرح مستفيض لزغلول النّجار في كتابه "الأرض في القرآن الكريم" لتضاريس الأرض وتنوعها ودورها في حياة الإنسان[5]، خلصنا إلى أنّ الدلالة العلمية لوصف الأرض بالمهد؛ المقصود بها تنوع تضاريسها، وتسهيل الحركة عليها. أمّا كونها بساطا فهو يتعلّق بشكل الأرض، فرغم كرويتها إلاّ أنّ الإنسان لا يشعر بذلك وهو عليها، فكلما تقدَّم في السّير تبدو له منبسطة، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾[6].

إنّ القرآن دقيق جدا في اختيار الألفاظ التي يعبِّر بها عن خصائص العنصر الكوني حتى وإن لم يكن ذلك في سياق حديثه المباشر عنه، كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿**وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[7]، يقول النّابلسي: «قد يسأل سائل لم قال (من كلّ فج عميق) ولم يقل: (من كلّ فج بعيد)، قال العلماء: إنّ في استعمال هذه الكلمة (عميق) مكان كلمة (بعيد) إشارة إلى كروية الأرض، فالخطوط على سطح الأرض ليست مستقيمة ولكنها منحنية، والخط المنحني يحتاج إلى بعد ثالث، يحتاج إلى سطح وإلى عمق، ولكنّ الشيء الذي

---

[1]- مقاييس اللغة، مادة (مهد).
[2]- مفاتيح الغيب، 60/22.
[3]- سورة نوح/ 19-20.
4- التحرير والتنوير، ج 236/16.
[5]- الأرض في القرآن الكريم /209.
[6]- الغاشية، الآية/17-20.
[7]- الحج، الآية/27.

يلفت النظر أيضا هو أنّ حكمة القرآن الكريم وفّقت بين معطيات العصر الذي أنزل فيه القرآن ومعطيات العصور اللاحقة»[1]، ومعنى التوفيق بين العصور أن الخطاب القرآني مركّز الدلالة، يأخذ كل جيل منه على قدر معارفه ووسائله العلمية.

أمّا وصف الأرض بالفراش في قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[2]، وإن كانت دلالته اللغوية تعني تمهيد الشيء وبسطه[3]، الأمر الذي يجعل الكثير يفسّر الألفاظ التي وصفت بها الأرض في القرآن ببعضها، يقول الطبري: «الجاعل لكم الأرض فراشًا. يعني بذلك أنّه جعل لكم الأرض مهادًا مُوَطَّأً وقرارًا يُستقرّ عليها»[4]. إلاّ إنّ استخدامه في القرآن يؤكد الفروق بينها، واجتماع دلالة الأصوات المشكِّلة للفظة (فراش) يحيل إلى الدلالة الفارقة، فالمعنى المقصود من فراش يجمع بين الإبانة والتكرار والانتشار، وهذه المعاني تعدُّ خصائصا للشيء المطلق عليه، فما هو الشّيء البيِّن الليِّن المنتشر على الأرض حتى توصف به؟ ويجيب العلم؛ هو فرشها بالسّهول الخصبة والتربة الغنية[5].

من خلال هذا المبحث نخلص إلى ما يأتي:

– إهمال علماء الفلك لحقيقة وجود الماء قبل الكون.

– تفسير نشوء الكون بنظرية الانفجار الأعظم، وإسقاطها على مدلول الرتق والفتق في القرآن الكريم.

– نظرية الانفجار الأعظم تبقى مجرد نظرية علمية تعاني قلقا فيزيائيا يصطدم مع المنطق (قضية التفردية).

– تجمع الدلالة اللغوية والدلالة الصوتية في دلالة الفتق على وجوب وجود شيئين أحدهما كان ملتصقا بالآخر، وإحداث بينونة وفرجة بينهما هو مدلول الفتق، أمّا نظرية الانفجار الأعظم فهي تنطلق من

[1]– موسوعة الإعجاز العلمي للنابلسي /49.

[2]– البقرة، الآية/22.

[3]– مقاييس اللغة، مادة (فرش).

[4]– جامع البيان في تأويل القرآن، 365/01.

[5]– الأرض في القرآن الكريم /300.

فكرة الجرم الواحد، إذا أخذنا بفكرة هذا الجرم وقربناه إلى معنى الفتق فلا بدّ له من وجود شيء كان مرتتقا فيه، ما هو؟

– لا بدّ من وجود علاقة بين جملة (وجعلنا من الماء كلّ شيء حي) وبين ما قبلها، خاصة وأنّه لم يأت في سياقها ما يدل على خلق الكائنات الحية.

– عدد الآيات التي أراد الله بها السّماوات السبّع بذواتها سبع آيات، وهذا التكرار بهذا العدد يعد تأكيدا على حقيقة عددهن، وليس دلالة على التعدد –والله أعلم–.

– ما جاء به القرآن عن السّماء من ألفاظ البناء وما ينتمي إلى حقله الدلالي خاص بالسّماء الدنيا، وما تنتفع به الأرض من أحوالها.

– ما وصل إليه العلم الحديث بواسطة أجهزة الرصد العلمية من حقائق –لا نظريات–تتوافق مع التّعبير القرآني حول خصائص السّماء بدلالتها الوصفية (كلّ ما علا فأظلّ) وخصائص الأرض.

– هناك مقصدية في اختيار الألفاظ المعبَّر بها عن أحوال كلّ من السّماء والأرض فلا يجب تفسيرها ببعضها اعتمادا على الدلالة الغوية فقط دون تحديد الفارق بينها، ويمكن ذلك من خلال دلالة بنيتها، أو دلالة أصواتها، أو من خلال السياق، ويجب أخذ كلّ أنواع الدلالات السّابقة في محاولة التحقق من موافقتها للحقيقة العلمية.

– تعتبر الحقيقة العلمية إذا كانت موافقة للتعبير اللغوي –على جميع المستويات– وجها دلاليا جديدا يرفعه القرآن إلى مقام المقدسات الفكرية[1] التي يستدل بها الإنسان على عظيم قدرة الخالق.

3- خلق الإنسان بين التعبير القرآني والتّفسير العلمي:

3-1- إسقاط النظريات العلمية على آيات خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ**﴾[2]، وعن أبي

[1]– كبرى اليقينيات الكونية /23.

[2]– الأعراف، الآية/172.

هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»[1]، وعن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزْن، والخبيث والطيب، وبين ذلك»[2].

كلّ النّصوص الشّرعية تؤكد على خلق آدم، وأنّ البشر من ذريته، وكما رأينا في الفصل الثالث لم يترك القرآن شيئا يتعلق بخلق الإنسان وتكوينه المادي والروحي إلاّ وذكره مجملا ومفصلا، وكان التعبير دقيقا إلى حد تخصيص مصطلحات خاصة بمراحل تكوينه، مصطلحات تتضمن حقيقة كلّ مرحلة من حيث الحجم والشّكل، وتراكيب لغوية تعكس الصّورة الجنينية لهذا المخلوق، وروابط لغوية تتضمن دلالتها الزمن الانتقالي بين كلّ مرحلة ومرحلة، وأخذ المسلمون بفطرتهم السّليمة منذ زمن سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه بما جاء في القرآن عن خلق الإنسان دون جدال، وجاء العصر الحديث الحامل لريبة العلم الغربي، ليغزو الفكر العربي بقلقه الوجودي. وفي محاولات العلم الحديث للبحث عن قضية وجود الإنسان كان من بين النظريات التي أُسقطت كرها على نصوص القرآن، نظرية النّشوء والتطور لداروين؛ ورغم أنّ هذه النظرية أبطلت، إلاّ أنّ الهدف من التطرق لذكرها عرض انسياق بعض العرب المسلمين نحو فكر الآخر، والأكثر من هذا تأويل الآيات القرآنية بالاعتماد على آليات لغوية في محاولات مفرطة لجعل مدلولات هذه الآيات تتفق مع النظريات التي يدّعون أنّها حقائق علمية، وتقول هذه النّظرية: «أنّ جميع الأحياء نشأت من أصل واحد، وتكونت بخلق الطبيعة وبالتولد الذاتي، لا بخلق الله وقدرته، وتتعارض بصورة جلية مع الآيات القرآنية، وخاصة المتعلقة بخلق الإنسان مباشرة من طين، أو بدء خلق الكون بقدرة الله جلّ وعلا»[3].

أمّا بعض مسلمينا فقد أسقطوا فكرة نشأة الأحياء من أصل واحد على قوله تعالى: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ**

[1]- صحيح مسلم، 585/02.

[2]- مسند الإمام أحمد بن حنبل 413/32.

[3]- الخلق بين العنكبوتية والداروينية /175.

﴿ **فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ** ﴾[1]، يقول محمد شحرور في كتابه "الكتاب والقرآن": «هذه الآية تحمل فكرة متكاملة، فالفكرة هي تاريخ خلق البشر ومراحل تطوره حتى أصبح بالشّكل الذي نراه عليه الآن، وهذا الموضوع لا يمكن فهمه وإخراج نظرية نشوء الإنسان على الأرض إلاّ من خلال الترتيل أولاً، ثم فهم كلّ آية على حدة لأنّها تحوي حلقة كاملة في نظرية الخلق»[2]، ثم يبدأ بإسقاط نظرية النشوء والتطور على الآية السّابقة، وهو يرى فيه إخراجا! ويمضي بتأويل الآية فيقول: «تبدأ الآية (خلقكم من نفس واحدة) أي أنّ أساس الخلق أحادي دون قانون الزوجية، فعندما وجدت الحياة على الأرض وجدت خلية واحدة تكاثرت عن طريق الانقسام الذاتي لا عن طريق التلاقح الزوجي، وبعد ذلك تطورت وحيدة الخلية هذه لتصبح كثيرة الخلايا مع اختلافها بالنوع لذا قال: ﴿ **إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا** ﴾[3]، وقد مرت الحياة حتى نضج فيها البشر بثلاث مراحل من الخلق (التصميم): المرحلة الأولى: المرحلة البحرية، المرحلة الثانية: المرحلة البحرية البرّية، المرحلة الثالثة: المرحلة البرّية»[4]، ثم يسقط الكاتب هذه المراحل على عبارة (في ظلمات ثلاث)، يقول: «ففي ثلاث مراحل يوجد ظلمة: الظلمة البحرية، الظلمة البحرية البرية، الظلمة البرية (الرحم)، فحتى وصل الإنسان إلى الشّكل الذي نراه عليه الآن مرت الحياة العضوية على الأرض بهذه المراحل الثلاث، فكان الإنسان وليد المرحلة البرّية، وفي هذه المرحلة كان التكاثر زوجيا، أي عن طريق اللقاح بين الذكر والأنثى، أي كان الفصل موجودا بين الذكورة والأنوثة، لذا قال: (ثم جعل منها زوجها)، والجعل هو: التغيير في الصيرورة، و"ثم" هي للتعاقب مع التراخي، لذا فإننا نرى أنّ الجنين في بطن أمّه يمر بهذه المراحل الثلاث، وبما أنّ الفواصل الفعلية بين هذه المراحل عبر ملايين من السنين قال: (خلقا من بعد خلق) أي تصميما بعد تصميم، ولم يقل: (خلقا بعد خلق)»[5]، عندما تجد الكاتب يربط بين الدلالة اللغوية للأفعال والحروف ويقحم من خلالها أفكار نظرية التطور على مدلول الآية يتراءى لك أنّه يتبع منهجا يتناسب مع طبيعة الخطاب القرآني، لكنّك إذا تأملت تخريجاته تجده يفكّك هذه الآية ويقدِّمُ في تراكيبها ويؤخِّر حسب ما

---

[1]- الزمر، الآية/06.

[2]- الكتاب والقرآن /202.

[3]- الإنسان، الآية/02.

[4]- الكتاب والقرآن /201.

[5]- المرجع نفسه/ 202 -203.

يتلاءم مع الفكرة الداروينية، وليس حسب ما يتوافق مع مدلول الآية، فتراه يُقدِّم عبارة (في ظلمات ثلاث) ويربطها بالعبارة الأولى (خلقكم من نفس واحدة) تماشيا مع فكرة نشأة الأحياء من خلية واحدة ومرورها بمراحل التصميم الثلاث، ويؤخر عبارة (ثم جعل منها زوجها) ويجعلها آخر مرحلة بعد تصميم الإنسان، ويستفيد من دلالة "ثم" ويجعلها رابطا بين جملتها وبين الظلمات الثلاث، ليؤكِّد زعم داروين، وزد على ذلك أنّه يُحَمِّل (خلقا من بعد خلق) الملايين من السّنين التي كانت بين مراحل التصميم –على حد تعبيره– ومدلول هذه العبارة واضح في الآية متعلق بما قبلها «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ»، فالآية إذًا متعلقة بمراحل تخليق الجنين، ويواصل الكاتب البتر في الآية، فيتجاهل عبارة (لكم) في قوله تعالى: «**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**» فقط ليثبت أن المرحلة الحيوانية، إحدى مراحل التطور في نشأة الإنسان، يقول: «والآن يظهر السّؤال التالي: متى ظهر البشر حيث ظهر على سلم التطور في المرحلة البرية؟ فيأتي الجواب مباشرة: «**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**»، لاحظ قوله (وأنزل) ولم يقل (نزل)؛ أي أنّ البشر ظهر نوعا مميزا بين الأنواع مع ظهور الإبل والبقر والغنم والماعز، فتزامن ظهور البشر مع ظهور الأنعام، فإذا أردنا أن نبحث عن بداية ظهور البشر نوعا مميزا على سلم التطور والنشوء، فعلينا أن نبحث في مرحلة ظهور الأنعام على نفس السّلم، حيث كانت غذاءً له حتى وهو في مرحلته الحيوانية»[1]، فأيّ منهج هذا الذي يدعو صاحبه إلى إتباعه، وهو يقوم بقص الآية وتجاهل بعض تراكيبها وإعادة تركيبها، وهو نفسه في هذا الكتاب جعل عدم الوقوع في التعضية أحد قواعد التأويل، يقول: «والتعضية هي قسمة ما لا ينقسم... والتعضية في القرآن تعني أن الآية القرآنية قد تحمل فكرة متكاملة وحدها أو فقرة من موضوع كامل، وبعد الترتيل مثل آيات آدم وخلق الكون، ونظرية المعرفة الإنسانية فإن جمع كل مواضيعها مع بعضها يخرج الموضوع الكلي كاملا»[2].

ولا يتأتى للمتلقي إدراك هذه الموضوعات وهذه الدلالات إلاّ بالنظر في أوجه الاستعمال اللغوي، وغير اللغوي (أسباب النزول والسياق)، فلا يجب إهمال أيّ عنصر دلالي بما في ذلك مواقع الكلم، ورسم الحروف المتشاكلة في النطق، ولذلك نجد مفسرينا القدامى أقرب إلى مدلول الآيات؛ لأنّ مرجعيتهم المعرفية جمعت بين الفطرة السّليمة والحنكة اللغوية، يقول الزجّاج في تفسير الآية السّادسة من سورة الزمر: «والنّفس الواحدة يعني بها آدم – صلى الله عليه وسلم – وزوجها حَوَّاءُ. وإنَّما قوله " ثُمَّ " لمعنى

[1]– الكتاب والقرآن /203.

[2]– المرجع نفسه /199.

خلقكم من نَفْس واحدةٍ، أي خلقها وَاحِدة ثم جعل منها زوجها، أي خلقها ثم جَعَل مِنها زَوْجَها قَبْلَكُمْ، وقوله: (وأَنْزَلَ لَكُمْ مِن الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ). يعنى من الإبل ذَكَراً وأُنْثَى، ومن البقر ذكراً وأنثى ومن الضأن كذلك ومِن المِعْزِ ذكراً وأُنثى. يقال للذكر والأنثى زوجان كلّ وَاحِدٍ منهما يقال له زوج. المعنى فمن أين تصرفون عن طريق الحق، مثل: (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أيّ فكيف تعدلون عن الحق بعد هذا البيانِ الذي يدل على صحة التوحيد. (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ). نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عِظَاما ثم تُكْسَى العظامُ لحْماً، ثم تُصَوَّرُ وتنفخُ فيها الروحُ، فذلك معنى قوله: خَلْقاً من بعْدِ خَلْقٍ في ظلمات ثلاث في البطن، والرَّحِم، والمشيمة. وقد قيل في الأصلاب والرحِم والبَطْن.(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ). المعنى الَّذِي دَبَّر الخَلْقَ هَذا التَدْبِيرَ لَيْس كَمثِله شيء. المعنى فمن أين تصرفون عن طريق الحق، مثل: (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)؛ أي ْفكيف تعدلون عن الحق بعد هذا البيانِ الذي يدل على صحة التوحيد»[1]. اعتمد الزجّاج على تفسير الجمل المكونة للآية جملة جملة، بإعطاء مدلولها العام، مستفيدا من ترتيب الجمل وعلاقتها ببعضها في إظهار ترتيب الأحداث الواقعة، والنّفس الواحدة تطلق على أبينا آدم وتطلق على الجنس الحي؛ أي من نفس جنس، لأن من الدلالات اللغوية للنفس الذات والعين.

ومن حكمته أن جعل زوج كلّ نوع حيّ من جنسه، وهو ما يتوافق مع الجملة التي بعدها «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ»، ليشير إلى أن قانون الزوجية من نفس الجنس ناموس كوني ينتج عنه الانسجام بين الأنواع الحيّة، وبما أنّ الغاية من هذا القانون التناسل، بيَّن وضع الجنين الناتج عن عملية التزاوج عند البشر وعند الأنعام، وهي متماثلة كون الأنثى تحمل الجنين في بطنها، وهناك من علماء المسلمين من حاول التوفيق بين نظريات التطور والحقائق القرآنية؛ معتمدين على الفرق بين مدلول الإنسان والبشر، ومن حيث أن وصول البشر إلى مرتبة الإنسان يكون بالعقل، وجعلوا من قصة أبينا آدم مدخلا في سوق نظريتهم حول الوجود البشري، و«قاموا بطرح سؤال أثر جدلا كبيرا وهو: هل آدم هو أول البشر؟ وهؤلاء الباحثون يستأنسون في ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ**

[1]- معاني القرآن للزجّاج ، ج346/04.

قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1]، فهم يعتقدون أن الملائكة لم يقولوا ذلك إلا رؤيتهم من سبقوا آدم من الخلق الذين كانوا على صورته، والذين عاثوا في الأرض فسادا وسفكوا الدماء، وأن آدم خليفة، إنما كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا»[2].

ومن هؤلاء المسلمين: عبد الصبور شاهين في كتابه: "أبي آدم (قصة الخليفة بين الأسطورة والحقيقة)"، حاول طرح قضية نشوء الإنسان من أشباه الإنسان الذين سبقوه تحت مسمى آخر، وذلك بطرح سؤال وهو: هل كان وجود هذه الخليفة البشرية مشروعا واحدا على الأرض أرادته القدرة الإلهية، وتابعته في مراحله المتطاولة؟ أم كان مجموعة من المشروعات المتقاطرة على السّاحة الأرضية عبر الوجود الزمني الهائل؟ وكان آدم أحد هذه المشروعات؟ وقد طرح هذه التساؤلات بعد أن ساق ما يدحض نظرية داروين، ويثبت أنّ الكائنات خلقت مستقلة الأنواع[3]، وبعد أن ساق الكاتب الكثير من الأدلة من خلال تحليله للآيات التي جاء فيها لفظ آدم ولفظ البشر خاصة ما كان نكرة في محاولة منه لإثبات وجود فارق بين آدم والبشر، وانتهى إلى أنّ وجود آدم كان بعد انقراض البشر، وذهب إلى أنّ الله تعالى خلق البشر أطفالا أو كالأطفال بلا أسماع ولا أبصار ولا عقل، ثم جعلت لهم هذه الأدوات في مراحل التّسوية المتطاولة حين شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشري بما يحتاج من أدوات الكمال، فالبشر لفظ عام في كلّ مخلوق ظهر على سطح الأرض يسير بقدمين منتصب القامة، والإنسان لفظ خاص بكلّ من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته، فكلّ إنسان بشر، وليس كلّ بشر إنسان[4].

ويقول في نهاية فصله الذي أثبت فيه الفارق بين البشر وآدم، والبشر والإنسان في قوله تعالى: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾**[5]، يقول: «إنّ هذا البيان الإلهي نداء إلى جميع النّاس يذكرهم بوحدة الأصل، فهم جميعا قد نسلوا من ذكر وأنثى، هما آدم وزوجه حواء، باعتبارهما أوّل من تألقت من

---

[1]- البقرة، الآية/30.

[2]- الخلق بين العنكبوتية والداروينية /190.

3- أبي آدم (قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة) /42-46.

[4]- المرجع نفسه /96-97.

[5]- الحجرات، الآية/13.

السّلالات والأجيال»[1]. وقد قام بالرد على هذا الكتاب: جواد عفانة في كتاب سماه: "آدم الإنسان أبو البشر (رد علمي شامل على كتاب أبي آدم (قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)"لمؤلفه الدكتور عبد الصبور شاهين)"؛ حيث انتقد أفكاره، وبيَّن الثغرات العلمية في الحجج التي ساقها لإثبات أفكاره؛ فيقول معلقا على رأي عبد الصبور شاهين بعد أن قدم لطرحه بالقول بنسبية العلم وقطعية القرآن استحالة التناقض بين القرآن وما توصَّل إليه العلم من حقائق نهائية[2]، يسائل جواد عفانة كتاب عبد الصبور شاهين بناءً على ما سبق: «هذا قول حق، ولكن هل توصل العلم إلى حقائق نهائية في مسألة خلق آدم؟ وأين ومتى حصل ذلك؟»[3]، ويجد الإجابة في رأي عبد الصبور شاهين بظنية النظريات العلمية وعدم استقرار دلالتها[4]، ثم يناقض هذا الأخير نفسه حين يتهم التفكير الديني بالجمود لتوقفه عند القول بالبداية الآدمية للحياة على الأرض، ويدعو إلى اللجوء إلى العلم لمعرفة الحقيقة من خلال «فهم واع للنصوص القرآنية... فهم يخرج عن المذهب التقليدي الذي التزمت به التّفاسير كلّها، ويسعى إلى استنطاق النّظم القرآني مادام هناك إمكان لالتقاء العلم بالقرآن»[5].

ويعلّق جواد عفانة على هذا الرأي بقوله: «أقول: هنا بدأ الاستعباط العلني، فالدكتور قد شطب كلّ مقدماته عن العلم غير المستقر، الذي لم يقدِّم حقائق نهائية بعد، ليقول: "لالتقاء العلم بالقرآن"! ترى لو أنّ عالما نقض كلام الدكتور هذا، وأثبت عدم التقاء القرآن مع تقديرات العلماء المتفاوتة هذه —وهو فعلا يتناقض معها– فهل يكذِّب القرآن لا سمح الله؟ أم هل يعني عدم التقائه معها عدم التقاء العلم بالقرآن؟ وهل قدَّر الدكتور عبد الصبور مقدار وحجم التشكيك والبلبلة الفكرية التي سيحدثها كتابه المسخ هذا؟»[6]، ثم بدأ بنقد منهجه من ذلك اعتماد عبد الصبور شاهين في عرضه للسور القرآنية التي تعرّضت لقصة الخلق على ترتيبها حسب النزول، وهو في رأي جواد عفانة ترتيب اجتهادي، ولم يتفق العلماء على ترتيب لها معين قطعي، أما ترتيب سور القرآن في المصحف فهو ترتيب توقيفي[7].

---

[1]- أبي آدم/101.

[2]- المرجع نفسه/49.

[3]- آدم الإنسان أبو البشر /54.

[4]- المرجع نفسه.

[5]- أبي آدم /50.

[6]- المرجع السابق/55.

[7]- آدم الإنسان أبو البشر/65.

بالإضافة إلى ذلك إهمال بعض القرائن اللغوية التي لا تتماشى مع غاياتهم تجاهلها، ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ**﴾[1]، لقد ركّز عبد الصبور على لفظتي الخلق والتّسوية باعتبارهما مرحلتين متمايزتين في مشروع خلق آدم –على حد تعبيره– فيقول: «والمذكور هنا هو مطلق الخلق، مطلق التّسوية، دون ذكر لمحلهما»[2]، ويقول جواد عفانة: «مفاهيم الخطوة الأولى والخطوة الثانية في خلق آدم، والمرحلة الأولى والمرحلة الثانية، والمشروع والمشاريع المتقاطرة، ما هي إلاّ هذرمات من الدكتور لا دليل عليها في القرآن ولا في السّنة، ولا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، فالفاء في "فسوى" تدل على الترتيب والتعقيب دون تراخ بما يفهم منه تمام التسوية بعد أو مع خلق آدم مباشرة»[3]. فهو يفصل بين الخلق والتّسوية متجاهلا دلالة "الفاء"؛ لأنّ ذلك لا يخدم نظريته المزعومة.

ومن الاستعمالات اللغويّة في القرآن الكريم التي اتخذها عبد الصبور شاهين قرينة على صدق نظريته، استعمال الإنسان معرفة في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ**﴾[4]، واستعمال بشر نكرة في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٢٩**﴾[5]، يقول: «وينبغي أن نلاحظ أسلوب القرآن في سوق الحقيقة هنا: فهو يذكر الإنسان هكذا معرّفا، باعتباره الموضوع الأساسي المقصود بالذكر، والمخاطب بالآيات، وهو مقابل (الجان) المشارك للإنسان في التكليف والمسؤولية على هذه الأرض، فإذا شرع في بيان حقيقة الخلق منذ البداية ذكر أنّ هذه البداية كانت في صورة (بشر) هكذا منّكرا، باعتباره النموذج الذي أجريت عليه عملية التسوية والتصوير، والنفخ من روح الله (أو التزويد بالملكات العليا التي كان بها البشر إنسانا وهي:(العقل واللغة والدين)، فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشري إنسانا... بل كان بداية خلق إنسان في حيز القوة قبل أن يكون إنسانا في حيز الفعل»[6]، لقد جعل عبد الصبور شاهين من إطلاق

---

[1]- الأعلى، الآية/01،02.

[2]- أبي آدم/51 .

[3]- آدم الإنسان أبو البشر /70.

[4]-سورة الحجر/26-27.

[5]- الحجر، الآية/28.

[6]- أبي آدم /71.

بشر نكرة في الآية الثامنة والعشرين من سورة الحجر، وفي الآيتين: واحد وسبعون واثنان وسبعون من سورة ص، في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ**﴾[1]، أن من مقاصدها إخبار الله الملائكة بأنّه سيخلق البشر، لكن جاء نكرة للدلالة على المفرد، لأنّ المقصود هنا آدم عليه السلام بدليل قوله تعالى للملائكة: «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» فالهاء في "له" هي نفسها في "فيه" وفي سويته تعود على أول بشر مخلوق من الطين.

لاحظنا من خلال هذه النماذج كيف يتصرّف بعض أصحاب هذه اللغة من المسلمين مع القرآن ويجعلونها مناطا لإسقاط النظريات العلمية على آياته، والعيب ليس في اللغة؛ لأن اللغة العربية من خصوصياتها المرونة التي تسمح لصاحبها بالتعبير عما يريد، لكن لغة الخطاب القرآني لا يجب النظر إليها أثناء عملية التأويل أو التفسير من مستوى واحد واتخاذه ذريعة في الحكم على مدلول الآية؛ بل يجب النظر إليها كنسق واحد منتظم، تستدعي فيه مستويات اللغة بعضها بما يتناسب مع السياق لتشكيل المعنى، لذلك على القارئ أن لا ينخدع بأي تفسير علمي يشير إلى اللغة، وكأنّه يتّبع المنهج اللازم في التعامل مع النّص القرآني، فالسّؤال الذي تطرحه النماذج السّابقة إلى أيّ مدى يستوعب المفسّر لغة الخطاب القرآني وليس اللّغة العربية فقط؟ فعندما يكون المفسّر قادرا على تحديد آليات التناسق الأدائي للغة، وآليات التناسق المعنوي في جملة من الآيات تشكّل مدلولاتها التّصور القرآني للظاهرة الكونية، يكون قد اقترب من مقصدية الخطاب القرآني وحتى عند هذا الحد لا يجوز له أن يعطي الآية دلالة علمية ما لم تكن حقيقة يقينية أثبتها العلم بآلياته الأدائية، وليس بتصوراته الذهنية.

3-2- أطوار خلق الإنسان بين القرآن والحقائق العلمية:

كان أوّل خطاب قرآني موّجه إلى الإنسان، قوله تعالى في سورة العلق: ﴿**ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[2]، آيات جمعت بين خلق الإنسان، وحقيقة العلم إجمالا إشارة إلى أساسيهما، وإلى العلاقة التكاملية بينهما العبودية لله عز وجل.

[1]-سورة ص/ 71-72.

[2]- سورة العلق / 01-05.

آثرت أن أبدأ هذا المبحث بما جاء في كتاب التعريفات للجرجاني من مقاربة دلالية معنوية بين حصول العلم بالقلم، وكيفية خلق الإنسان، يقول في تعريف القلم في هذا الموضع من سورة العلق: « القلم: علم التفصيل؛ فإن الحروف التي هي مظاهر تفصيلها مجملة فبمداد الدواة، ولا تقبل التفصيل ما دامت فيها، فإذا انتقل المداد منها إلى القلم تفصّلت الحروف به من اللوح،، وتفصّل العلم بها إلى لا غاية، كما أنّ النطفة، التي هي مادة الإنسان، ما دامت في ظهر آدم مجموع الصّور الإنسانية مجملة فيها، ولا تقبل التفصيل ما دامت فيها، فإذا انتقلت إلى لوح الرحم بالقلم الإنساني تفصّلت الصورة الإنسانية»[1].

فعلم الإنسان بكيفية خلقه أساس علمه بالمنهج الإلهي في خلق الكون، لذلك كان الخطاب القرآني موجها إلى العقل بالدرجة الأولى لاستغلال آليات التحصيل التي زوَّده بها السّمع البصر والفؤاد... ويدل على ذلك أيضا ما جاء في القرآن من مصطلحات دقيقة خاصة بما تعلق بعلم الأجنة: «وما عرفه العلم أتى مطابقا تماما لما جاء به القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمة، والقرآن الكريم توسّع في أكثر من أربعين آية كريمة تتحدث عن خلق الإنسان... ذلك أن المخاطب في القرآن الكريم هو الإنسان... ومن رحمة الله بالإنسان أعلمه كيف يتم خلقه في رحم أمه، بل وكيف يكون الحمل وتكوين النطفة، وتطورها وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة في رحم الأم وفي ظلمات ثلاث حتى يتنبه الإنسان إلى قدرة الله سبحانه وتعالى في خلقه»[2].

وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أطوار الخلق جملة وتفصيلا، وقد وضَّحنا الدلالة اللغوية لألفاظ كل طور وأحصينا عدد ذكرها في القرآن الكريم، وما جاء عنها في بعض التفاسير، وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه المراحل في الآية الخامسة من سورة الحج، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ**

[1]- التعريفات /178.

[2]- الموسوعة الكونية الكبرى، ج.149/14.

عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾[1].

المرحلة الأولى: التراب:

يقول الرازي في تفسيره للجزئية المتعلقة بالتّراب: «قَوْلُهُ: فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّا خَلَقْنَا أَصْلَكُمْ وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تُرَابٍ، لِقَوْلِهِ: ﴿**كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 59] وَقَوْلِهِ: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ** ﴾**[طه: 55]** ، وَالثَّانِي: أَنَّ خِلْقَةَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَنِيِّ وَدَمِ الطَّمْثِ وَهُمَا إِنَّمَا يَتَوَلَّدَانِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ، وَالْأَغْذِيَةُ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ وَغِذَاءُ الْحَيَوَانِ يَنْتَهِي قَطْعًا لِلتَّسَلْسُلِ إِلَى النَّبَاتِ، وَالنَّبَاتُ إِنَّمَا يَتَوَلَّدُ مِنَ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ، فَصَحَّ قَوْلُهُ: فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ»[2]، إنّه لتفسير عقلي يشير إلى العناصر التي يشمل عليها جسم الإنسان، ولقد «أثبت العلم الحديث أن العناصر التي يتركب منها الجسم البشري هي نفسها التي تتركب منها القشرة الأرضية، وهي اثنان وعشرون عنصرا منها: الأوكسجين، والهيدروجين، ومن المعادن: الكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنيزيوم، والفوسفور، والكبريت، والحديد، واليود، والنحاس... وغيرها»[3]، ثم جمع الله سبحانه وتعالى كلّ هذه الخصائص في خلية واحدة هي النطفة.

المرحلة الثانية: النطفة:

يقول الرّازي في تفسيره: «وَالنُّطْفَةُ اسْمٌ لِلْمَاءِ الْقَلِيلِ أَيِّ مَاءٍ كَانَ، وَهُوَ هَاهُنَا مَاءُ الْفَحْلِ فَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: أَنَا الَّذِي قَلَبْتُ ذَلِكَ التُّرَابَ الْيَابِسَ مَاءً لَطِيفًا، مَعَ أَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَهُمَا الْبَتَّةَ»[4]، وتفسير النطفة بالماء القليل يتفق في الدلالة مع قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ**﴾[5]، من حيث دلالة بنية السّلالة على القلّة، ويتفق هذا المدلول مع تخصيص التّعبير القرآني لمصطلح الماء المهين لماء الرجل وماء المرأة، وكذا النطفة من ماء الجنسين، «أمّا بالنسبة لكلمة (السّلالة) فهي تعني النخبة

---

[1]- الحج، الآية/05.

[2]- مفاتيح الغيب، ج 203/23.

[3]- الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني /68.

[4]- المرجع نفسه، ج 204/23.

[5]- السّجدة، الآية/08.

المستخلصة من الشّيء وتعتبر هذه الآية إعجازا طبيا آخر لأنّها تتفق مع الطب الحديث الذي يقول أنّه يوجد حيوان منوي واحد فقط ينسل من هذه الملايين من الحيوانات المنوية (السّلالة) ليلقّح بويضة المرأة التي بدورها تنسلّ أيضا من حويصلة البويضة داخل المبيض»[1]، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ خَلْقَ شَيْءٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ»[2]، والتقاء السلالتين يشكل النطفة الأمشاج، قال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا**﴾[3]، ومعنى «نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ»: «قطرة مختلطة من ماءين، وتأخذ البيضة الملقحة شكل القطرة وهو ما يتفق مع المعنى الأول للفظ "نطفة" أي قطرة»[4].

المرحلة الثالثة: العلقة:

من خلال الدلالة اللغوية لهذا المصطلح القرآني رأينا في الفصل الثالث أنّه يدل على قطعة الدم الغليظة، ويدل على علوق شيء بشيء آخر، ويطلق على دودة مائية، وهذه الدلالات تنطبق على الحقيقة العلمية للجنين، وهو في هذه المرحلة من حيث تحول النطفة بعد تكاثر خلاياها إلى قطعة دم غليظة تعلّق بجدار الرحم أمّا مشاكلتها للدودة المائية، يقول محمد فياض: «قد عقد القرآن الكريم تشابها بين دودة العلق والجنين في مرحلة العلقة من حيث إنّهما: كلاهما متطفل في غذائه الجاهز على المصدر الذي يقتات منه، وإنّ غذاء كلّ منهما هو الدم، وإنّهما يتعلقان، تلك على جسد المخلوق، وهذه على بطانة الرحم، ومن هنا نجد أنّ لفظة "علقة" قد جاءت مطلقة في القرآن الكريم لتشمل على كلّ المعاني»[5]، وهذا يدل على دقة التعبير القرآني في اختيار المفردة التي تعبر عن حقيقة الظاهرة علميا، فيرفعها إلى مستوى المصطلح، وقد ربط القرآن بين مفردة نطفة وعلقة بالحرف "ثمّ"، «ونلاحظ هنا أنّ حرف العطف (ثم) الوارد في الآيات يوفر دلالة واضحة على الفترة التي تتحول فيها النطفة إلى علقة، حيث يدل هذا الحرف على انقضاء فترة زمنية حتى يتحقق التحول إلى المرحلة الجديدة لأنّ الحرف (ثم) يفيد الترتيب والتراخي، ويتسع اسم "العلقة" فيشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة عالقة، كما يشمل

---

[1]- الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني /69.

[2]- صحيح مسلم، 1064/02.

[3]- الإنسان، الآية/02.

[4]- إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان /78.

[5]- إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان /86.

الأحداث الداخلية كتكوّن الدماء والأوعية المقفلة، كما يدل لفظ "علقة" على تعلق الجنين بالمشيمة»[1]، يظهر من خلال هذا الوصف المتكامل لهذه المرحلة الجنينية من خلال هذا التركيب قدرة البيان القرآني على الكشف عن حقائق ما هو غيبي بأوجز عبارة.

المرحلة الرابعة: المضغة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[2]، كنا قد بيَّنا في الفصل الثالث كيف اجتمعت الدلالة المعجمية و الصوتية ودلالة البنية الصرفية لهذه المفردة على تشكيل المفهوم القرآني للمرحلة الثالثة من تكوين الجنين من حيث دلالة المعنى على الشّكل ودلالة الصيغة على الحجم أمّا دلالة الأصوات فتجمع بينهما، إذ انفصال العلقة عن جدار الرّحم على شكل قطعة لحم مرنة يدل عليه مجيء حرف الميم في أوّل تركيب المفردة من حيث دلالتها على الانقطاع[3]، والمرونة المتأتية من مرونة مخرجها (الشفاه)، كما تدل بحركتها الصغيرة –الضمة– على حجم هذه القطعة، ثم تحدث شدة صوت الضّاد أثرا عليها لانطباق الأسنان على اللسان، فالضاد «صوت أسناني لثوي، شديد مجهور منفتح»[4]، وتسمح انفتاحيته مع رخاوة الصوت الذي بعده –الغين– بإحداث أثر أكثر عمقا دون فساد هذه القطعة، والغين صوت طبقي[5] في مخرجه واستتاري[1] في معناه.

---

[1]– المرجع نفسه/89.

[2]– الحج، الآية/05.

[3]– الدلالة الصوتية في اللغة العربية/ 151.

[4]– المرجع نفسه/143.

[5]– المرجع نفسه، 142.

إنّ هذه الدلالات تتفق مع الحقيقة العلمية لهذه المرحلة، فبعد تصوير المضغة تحت المجهر وجدوا أنّها أشبه بقطعة لحم ممضوغة، «وقد استعمل القرآن الكريم لفظ "مضغة" ليصف بها الجنين في هذه المرحلة، حيث يبدو كقطعة لحم حجمها بمقدار ما يمضغ، وهذه اللفظة تصف بإيجاز معجز ساحر شكل الجنين بالنسبة إلى: 1- حجمه. 2- شكله. 3- قوامه، فإذا ألقينا نظرة على الجنين، فإنّنا نجده يكون في اليومين الثالث والعشرين، والرابع والعشرين في نهاية مرحلة "العلقة" ثم يتحوّل إلى مرحلة المضغة في اليوم الخامس والعشرين والسادس والعشرين، ويكون هذا التحول سريعا جدا، ويبدأ في آخر يومين من مرحلة "العلقة" في اتخاذ بعض خصائص المضغة، فتأخذ الفلقات في الظهور لتصبح علما بارزا لهذه المرحلة»[2].

إذن فهناك تعاقب بين مرحلة العلقة ومرحلة المضغة، وهو ما يعكسه استخدام القرآن لحرف (الفاء) الذي يفيد التعاقب بين الأحداث، وذلك في سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا**﴾[3]، وقد يقول قائل: لماذا استخدم "ثم" في سورة الحج؟ وذلك لأنّه كان في سياق تعداد مراحل الخلق التي يمرُّ بها الإنسان، أمّا في هذا الموضع من سورة المؤمنون فهو يصف كيفية الخلق.

لقد ذكر القرآن الكريم أنّ المضغة قسمان: مخلقة وغير مخلقة، في قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾[4]، واختلف المفسِّرون في تفسير هذا التقسيم، فرأى الفراء وابن قتيبة أنّ المقصود بمضغة مخلّقة وغير مخلّقة: تامة وغير تامة تعني السّقط[5]، ورأى الزجّاج بغير ذلك، حيث قال: «وصف الخلق أو منهم من يتمم مضغته فتخلق له الأعضاء التي تكمّل آلات الإنسان ومنهم من لا يتمم الله خلقه»[6]، ومن لا يتمم الله خلقه، أي من كان فيه عيب، وهو ما يراه الزمخشري وأبو حيان، حيث يقول صاحب الكشاف: «والمضغة: اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ.

---

[1]- الدلالة الصوتية في اللغة العربية/ 150. وينظر: فقه اللغة وخصائص العربية،260.

[2]- إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان /91.

[3]- المؤمنون، الآية/14.

[4]- الحج، الآية/05.

[5]- غريب القرآن، ج 247/01.

[6]- معاني القرآن للزجاج، ج 412/03.

والمخلقة: المسّواة الملساء من النقصان والعيب. يقال: خلق السواك والعود، إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء، وإذا كانت ملساة، كأنّ الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم»[1].

إنّ المعنى الأول –تماما وسقطا– يدل عليه سياق الآية؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يستدلّ على حقيقة البعث بقضية خلق الإنسان، فهو المتصرف فيه، إن شاء لهذا المخلوق الوجود أتمَّ خلقه وقدَّر معاشه، ويؤكِّد هذا المعنى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ورد في صحيح البخاري في باب قوله عزَّ وجلَّ: «مخلقة وغير مخلقة»، جاء: حَدَّثَنَا يُونُسُ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يُتِمَّ خَلْقَهَا قَالَ: يَا رَبِّ ذَكَرًا أَمْ أُنْثَى، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَيُكْتَبُ ذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»[2]، ويقضي بمعنى يُتِمُّ، وإن أبى كانت مضغة غير مخلقة فتسقط.

أمّا ما جاء عن الزمخشري وأبي حيان اعتمادا على دلالة التسوية في الخلق، فهو معنى معقول يمكن أن يضاف إلى المعنى الأول دون أن يخرج عنه، لأنّ المعنى الأول أدقّ، ومن المحدثين من رأى فيها معنى آخر لا يستقيم مع المعنى الأول، وهو الطاهر بن عاشور يقول في تفسيره: « فَقَوْلُهُ تَعَالَى: مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ صِفَةُ مُضْغَةٍ. وَذَلِكَ تَطَوُّرٌ مِنْ تطورات المضغة. أَشَارَ إِلَى أَطْوَارِ تَشَكُّلِ تِلْكَ الْمُضْغَةِ فَإِنَّهَا فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ غَيْرَ مُخَلَّقَةٍ، أَيْ غَيْرُ ظَاهِرٍ فِيهَا شَكْلُ الْخِلْقَةِ، ثُمَّ تَكُونُ مُخَلَّقَةً، وَالْمُرَادُ تَشْكِيلُ الْوَجْهِ ثُمَّ الْأَطْرَافِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُذْكَرْ مِثْلُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ عِنْدَ ذِكْرِ النُّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ، إِذْ لَيْسَ لَهُمَا مِثْلُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ بِخِلَافِ الْمُضْغَةِ. وَإِذْ قَدْ جُعِلَتِ الْمُضْغَةُ مِنْ مَبَادِئِ الْخَلْقِ تَعَيَّنَ أَنَّ كلا الوصفين لَا زمَان لِلْمُضْغَةِ، فَلَا يَسْتَقِيمُ تَفْسِيرُ مَنْ فَسَّرَ غَيْرَ الْمُخَلَّقَةِ بِأَنَّهَا الَّتِي لَمْ يُكْمِلْ خَلْقُهَا فَسَقَطَتْ. وَالتَّخْلِيقُ: صِيغَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَكْرِيرِ الْفِعْلِ، أَيْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ، أَيْ شَكْلًا بَعْدَ شَكْلٍ. وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْمُخَلَّقَةِ عَلَى ذِكْرِ غير المخلقة على خِلَافَ التَّرْتِيبِ فِي الْوُجُودِ لِأَنَّ الْمُخَلَّقَةَ أَدْخَلُ فِي الِاسْتِدْلَالِ، وَذَكَرَ بَعْدَهُ غَيْرَ الْمُخَلَّقَةِ لِأَنَّهُ

[1]- الكشاف، ج 144/03. وينظر: البحر المحيط، 477/7.

2- صحيح البخاري، ج 70/1.

إِكْمَالٌ لِلدَّلِيلِ وَتَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ تَخْلِيقَهَا نَشَأَ عَنْ عَدَمٍ. فَكِلَا الْحَالَيْنِ دَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْشَاءِ وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْكَلَامِ»[1].

ما الذي يمنع كون (مخلّقة وغير مخلّقة) وصفين لازمين للمضغة، وأن تدل على إتمام الخلقة أو إسقاطها؛ بل إنّ ذلك يدلّ على مشيئة الله المتصرِّفة في خلقه، فإن شاء عدم إيجاد هذا المخلوق لن يوجده وإن اجتمعت نطفة الرجل بنطفة المرأة وعلّقت العلقة بجدار الرحم.

وإذا كان الطاهر بن عاشور يعتمد على دلالة صيغة مصدر مخلّقة في الدلالة على تكرار الفعل وإنّه بذلك خلقٌ بعد خلقٍ، فما الذي يمنع أن يكون التخليق هنا بمعنى التقدير والتسوية، فهما أكثر ارتباطا بهذه الصيغة لأنّهما تأتيان بعد الخلق من العدم، والمضغة ليست من عدم، فهي المرحلة الثالثة من مراحل تكوين الجنين، ويبدو لنا شيء من التناقض في هذا التفسير في قوله أنّ: «غير مخلقة إكمال للدليل وتنبيه على أنّ تخليقها نشأ عن عدم»، فأيّ عدم خُلِقَت منه المضغة ؟! وكيف تكون الصيغة الدالة على التكرار دالة على الخلق من عدم، وقد سبق في الآية نفسها ذكر أطوار خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة.

وإذا أخذنا بقول الطاهر بن عاشور أنّ المقصود بغير مخلّقة (غير ظاهر فيها شكل الخلقة) وأن مخلّقة المراد بها (تشكيل الوجه ثم الأطراف) فما حاجة التعبير القرآني إلى حمل دلالة مضغة على عبارة (غير مخلّقة)، خاصة وأن مفردة مضغة –كما رأينا– دالة بأصواتها وصيغتها، ومعناها في لغة العرب على حجم وشكل الجنين قبل ظهور أعضائه، ولو كان المقصود بها تطور هذه الأعضاء وبروزها لاكتفى بلفظة مخلّقة.

المرحلة الخامسة: العظام:

قال تعالى: ﴿**فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا**﴾[2]، من خلال هذا التركيب يكشف القرآن أنّ مرحلة العظام تأتي بعد مرحلة المضغة، فهي تشير إلى «كيفية تكوين العظام ابتداءً من المضغة المخلقة إذ يتحول قسم

[1]– التحرير والتنوير، ج 17/198-199.

[2]– سورة المؤمنون، الآية/14.

من هذه الكتل للمضغة إلى أنسجة عظيمة لتشكيل العمود الفقري والهيكل العظمي، فتظهر أوّل ملامح الإنسان في أوّل الأسبوع السّابع»[1]، وتحمل الدلالة اللغوية لهذه المفردة الصلابة التي يختص بها هذا العنصر من جسم الإنسان دونا عن باقي مكوناته.

المرحلة السادسة: اللحم:

قال تعالى: ﴿**فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا**﴾[2]، بعد الانتهاء من مرحلة تشكّل العظام يعقبها مباشرة إكساء العظام باللحم، واللحم يطلق في اللغة على العضلة، والكتلة المتلاحمة، و«هذا إعجاز قرآني عظيم، ذلك أنّ هذه الظاهرة لم تكتشف إلاّ في أواسط القرن العشرين، وذلك بعد عملية تصوير العالم المشهور نلسن الذي حاز على جائزة نوبل للتصوير الطبي، وقد أثبت العالم بواسطة الصور أن العظام تتكون قبل أسبوع من بداية اكتساء العظام باللحم»[3]، فالمدة الزمنية بينهما وتتابعهما يدل عليه أداة الربط بين المرحلتين في التعبير القرآني (الفاء).

المرحلة السابعة: التسوية:

عبّر عنها القرآن بلفظ التّسوية في قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾[4]، وعبر عنها بتركيب آخر هو النشأة في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ**﴾[5]، وقد بيّنا الفرق الدلالي بين التعبيرين، وقلنا إنّ مرحلة التسوية خاصة بالجنين، أمّا النشأة فتبدأ مع مرحلة التّسوية، لكنّها تمتد إلى ما بعد الولادة.

نخلص من خلال هذا المبحث إلى القول بأنّه لا يوجد تعارض بين الحقائق العلمية الثابتة حول أطوار خلق الإنسان، وبين مدلول الآيات الكونية الخاصة بذلك، فقد عبّر القرآن عن كلّ المراحل بأسلوب دقيق يجمع بين قدرة المفردة على حمل الخصائص الأساسية لكلّ طور، وبين الوظائف الأساسية لكلّ طور، وبين الوظائف الأساسية لأجهزة الإنسان الحيّة التي يتكّون فيها الجنين –وصف الرحم بأنه قرار مكين– بطريقة تجعل المعاني الأصلية لهذه المفردات في اللّغة محورا أساسيا في تشكيل المصطلحات القرآنية

---

[1]– الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني /70.

[2]– سورة المؤمنون، الآية/14.

[3]– الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني/70

[4]– سورة الأعلى/01-02.

[5]–سورة المؤمنون، الآية/14.

العلمية، فإنّك تجد المفردة القرآنية تتحدث عن أحجام بالغة الصغر للجنين لا يمكن رؤيتها ولا قياسها إلاّ تحت الميكروسكوب فقط، فالنطفة يبلغ قطرها (**0.1**ملم)، والعلقة يتراوح طولها بين (**7- 30** ملم)، والمضغة طولها (**3.2** إلى **13**سم)[1]، أمّا اختيار حروف العطف فقد جاء متميزا للتدليل على توقيت حدوث المراحل والأطوار الرئيسية الأربعة، فجاء الحرف (ثم) للإشارة إلى المراحل الأساسية، وجاء حرف (الفاء) للإشارة إلى المراحل الفرعية التي تحدث بتتابع سريع. فالقرآن إذًا قدَّم لنا و لعلم الأجنّة مصطلحات دقيقة، وتشخيصا كاملا لحالة الجنين، و أسائل بهذه الحقائق أصحاب اجتهادات التوفيق بين النظريات التطورية وبين الآيات القرآنية.

مما سبق يمكن القول: إنّ القرآن دقيق في استخدام المفردات والتراكيب التي يريد التعبير بها عن قضايا علميّة، وليس بالضرورة أن تكون تجريبية فقط، بل كلّ ما هو واقعي مدرك عند عامة النّاس عن طريق الحواس أو العقل، أو عند طائفة مخصوصة في مجال معين، فالقرآن يختار لسياقاته من هذه اللّغة ما تتوافق دلالته في أصل الوضع مع المستوى الإدراكي السّليم لدى المتلقي، وهذا ما يجعل القرآن معينا مفهوميّا للكون في جزئياته وكلياته، ينهل كلّ قوم منه ما يتناسب مع مستوياتهم المعرفية الفطريّة والمكتسبة.

[1]- إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان /42.

الخاتمة

خاتمـــــة

خاتـمة:

نخلص في نهاية هذا البحث إلى ما يأتي :

- تعدد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم دليل على واقعية الخطاب الديني، وشموليته لكلّ أنواع المعارف والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة والعلميّة.
- لا يمكن الوقوف على أيّ وجه من أوجه الإعجاز إلاّ من خلال لغة القرآن وبيانه.
- تعددت الدراسات حول كلّ نوع من أنواع الإعجاز، لكن خدمة اللغة العربية تحتاج إلى دراسات تبيِّن العلاقة الوطيدة بين الإعجاز البياني وبين باقي الأوجه، للكشف عن قدرة هذه اللغة في احتواء أشكال الوجود ودلالاته وأبعاده من خلال أساليب القرآن في استعمالها.
- الاعتماد على علم الدلالة كمنهج في الكشف عن أوجه الإعجاز في القرآن أنسب منهج لغوي في التعامل مع النّص القرآني، لأنّه منهج يلمّ بالدلالات اللغوية وغير اللغوية في النّص، وبالتالي يمكن أن يقرّب الباحث من مقصدية الخطاب القرآني.
- الاعتماد على نظرية الحقول الدلالية يسهّل على الباحث الإلمام بموضوعات القرآن الكريم، وتصنيفها، وتحديد التّصور القرآني لها.
- إذا كان وضع حقول دلالية يعتمد على الكلمات المركزية في الآيات، فإنّ تحديد مفهوم مواضيع هذه الحقول يحتاج إلى فهم التعابير المفتاحية لهذه الآيات، ولا يكون ذلك على مستوى السّورة الواحدة فقط، بل بالنّظر في كلّ الكتاب.
- يتمّ تحديد هذه التعابير بناءً على التشكيل اللفظي من خلال وصف الظاهرة الكونية بمفردات تنتمي إلى نفس الحقل الدلالي.
- الآيات الكونية موضوع من موضوعات القرآن الكبرى ؛ لأنّها دليل هداية، والتّعبير عنها لا يخرج في خصائصه عن سمة التناسق الفني في القرآن الكريم.

خاتمـــــة

- لا يمكن تحديد مفهوم ظاهرة كونية إلاّ من خلال مجموع الآيات التي تشترك في التعبير عنها مجملة ومفصلة، ثم الوقوف على الإفرازات الدلالية لهذه الآيات بناءً على البحث في جميع المستويات اللغوية والأسلوبية ومحددات السياق.

- استعمال المفردة العربيّة في القرآن الكريم لا يكون مبنيا على أساس واحد، بل القرآن يجمع في اختيارها بين دلالة أصلها الاشتقاقي، ودلالة أصواتها، ومخارجها، ودلالة بنيتها، لذلك فعلى الدارس مراعاة هذه الجوانب والأخذ بها في تحديد المعنى؛ لأنّ أحد هذه المستويات قد يشكّل الفارق في المعنى، خاصة إذا كانت المفردة مكرّرة، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بالنظر إلى هذه الجوانب في السياق الذي جاءت به.

- السياق الذي تأتي فيه هذه المفردة يعزّز من القيمة الدلالية لها، فهو يحفظ لها معناها الأصلي، ويكسبها دلالة معنوية قد تأخذ بعدًا اصطلاحيا إذا اختصَّ ذكرها بسياقات معينة.

- يجب مراعاة الزيادة في المباني سواء على مستوى المفردة أو التركيب، لأنّها زيادة في المعاني، أو دليل على الاختلاف بينها وبين المتشابه في موضع آخر.

- يجب النّظر في دلالة المفردات والتراكيب حسب موقعها في الآية ولا يجوز تفكيكها، وإعادة تركيبها حسب ما يتوافق مع فكرة خارج النّص كالنّظريات العلمية.

- دقة القرآن في استخدام الأسلوب الذي يعبر به عن الظاهرة الكونية فإذا كان لها وجود واقعي محسوس؛ فإنّه يعبّر عنها بمفردات تدل بلفظها على هذه الظاهرة، حيث تجد اللفظ يعكس شكل وحجم الظاهرة، وهو الذي يُمَكِّننا من التأكيد على أنّ القرآن في مجال الكونيات يقدِّم مصطلحات، وليس مفردات فقط، بحيث إنّنا إذا أخرجنا هذه المصطلحات من سياق النّص القرآني تبقى تعبِّر عن الظاهرة كأطوار خلق الإنسان مثلا.

خاتمـــــة

- الأفعال المتعلّقة بكيفيات الخلق يراعي القرآن في استخدامه لها مداها الزمني، فالكيفيات الحادثة لمرة واحدة عبَّر عنها بفعل مخصوص يدلّ على المضي، وغير متكرر في القرآن مع مقابله (الرّتق، والفتق)، أمّا الكيفيات المتكرر فعبَّر عنها بأفعال بالإضافة إلى دلالتها على المضارعة، فهي تدل برسمها على حدوثها على وجه الأرض، كالفعل يبدأ (يبدئ) الذي تكرّر ذكره في القرآن مع فعل الإعادة للتعبير عن الخلق الجاري في الكائنات الحيّة، والذي يستدلّ به الله على حقيقة البعث.

- اعتمد البيان القرآني في الآيات الخاصة بالسّماوات والأرض على الإيحاء الدلالي للمفردات والتراكيب في رسم المشهد الكوني.

- اعتمد القرآن في وصفه للنّفس البشرية وأحوالها على عرض نماذج بشرية، وهذا يعد إعجازا نفسيا من خلال مراعاة القرآن لطبيعة النّفس في رفض النقد الصريح والتوجيه المباشر.

- القرآن بأسلوبه في التعامل مع النّفس الإنسانية يقدِّم لنا أسلوبًا تربويًا وتعليميًا إلهيًا يجب الاستفادة منه في المجالات التربويّة والتعليميّة وبناء شخصية إسلاميّة متميّزة.

- استخدام أفعال العقل ووظائفه في أغلب خواتيم الآيات الكونية سمة أسلوبية قرآنية تدل على مقاصد الآيات الكونيّة.

- أعطى القرآن في الآيات الخاصة بخلق الإنسان مصطلحات دقيقة جمعت بين خصائص المفردة القرآنيّة وبين الحقيقة العلميّة لمراحل خلق الإنسان التي كشف عنها الطب الحديث بوسائله التصويريّة الدقيقة.

- هناك مقصديّة في اختيار الألفاظ المعبّر بها عن أحوال الظواهر الكونيّة، ولا يجب تفسير الألفاظ ببعضها اعتمادا على الدلالة اللغوية فقط دون تحديد الفارق بينها، والذي يكون على مستوى صيغتها الإفراديّة أو يعرف من خلال السياق.

- تدل البنية الإفراديّة للمفردة القرآنيّة على شكل تواجد الظاهرة الكونيّة في الواقع.

خاتمـــــة

- يجب العودة إلى استقراء المنهج العقلي في فهم الكون من خلال التعبير القرآني عن الظواهر الكونيّة، لأنّ القرآن تضمَّن منهجا تكامليا في الأداء، وفي عرض الحقائق الكونيّة بما يتناسب وطبيعة كلّ مجال.

- لا يجب الخوض في تفسير آية كونيّة تفسيرا علميًا ما لم تثبت حقيقة الظاهرة علميًا، وعلى الباحث المسلم تجنّب إظهار التّوافق بين النّص القرآني وبين النّظريات العلميّة ما لم تثبت صحتها، وإن أجمعت الدلالة اللغوية على الاقتراب من مفهومها فبقاؤها في مجال التصور لا يخدم النّص القرآني.

- اعتمد القرآن في أسلوبه –أيضا- على التقابل اللفظي في الكشف عن حقائق الظواهر الكونيّة، والتقابل المعنوي سمة مشتركة في بناء الكون وبناء النّص.

- تعتبر الحقيقة العلميّة إذا كانت موافقة للتعبير اللغوي على جميع المستويات بما في ذلك السياق وجها دلاليا جديدا يبرز القيمة العلميّة للغة العربيّة.

- لا يحقُّ للباحث استغلال اللّغة لتطويع دلالات النّصوص القرآنيّة الكونيّة بما يتناسب مع النظريات العلميّة.

-يجب الانطلاق من حقيقة النّص بفك شفرات خطابه، ورؤية الكون من خلاله، فإذا توافقت الحقائق مع دلالات هذا الخطاب جاز أن تكون هذه الحقيقة أحد الأبعاد الدلاليّة للخطاب القرآني.

-توجد فجوة بين عالِم الكونيات و عالِم اللغة، وخدمة النّص القرآني لا تكون إلاّ بتعاون العالِمين لأنّ مجاليهما متكاملان في خدمة النّص القرآني، لذلك أدعو في آخر هذا البحث إلى التعاون الأكاديمي بين مخابر البحث اللغويّة، ومخابر البحث العلميّة، والنفسيّة، والاجتماعيّة في مجال الدراسات القرآنية حتى تستقيم رؤانا نحو قرآننا ونحو عربيتنا.

الفهارس:

_ فهرس الآيات القرآنية.

_ فهرس الأحاديث النبوية

فـــــهرس الآيات

سورة البقرة

الآية	رقم الآية	الصفحة
«أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ...»	19	87
« الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ...»	22	212-74
«هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ...»	29	204 -103
«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ...»	30	217 -114
«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»	44	173 -162
«أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ...»	75	173
«أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...»	107	74
«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ...»	164	174 -28
«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ...»	177	20
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ْ... »	179-178	22
«أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ...»	187	145
«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ... »	188	22
«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ »	207	162
«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ...»	240	653
«كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»	242	173
«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ...»	256	20
«أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ...»	259	143
«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ...»	260	169
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ...»	264	127
«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...»	269	176

سورة آل عمران

الآية	رقم الآية	الصفحة
«هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ...»	06	147
«إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ... »	59	23
«وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ»	154	13
«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...»	159	24
«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا...»	191 -190	187
«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ...»	191	61 -25
« فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»	192	24

سورة النساء

الآية	رقم الآية	الصفحة
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ...»	01	161 - 110
« وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ...»	06	117
« يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا»	42	79
«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ...»	97	79
«فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ...»	103	170

سورة المائدة

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا»	45	22
«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ...»	48	109
«أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»	50	19

سورة الأنعام

الآية	رقم الآية	الصفحة
«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ... »	01	197
«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ...»	02	128
« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ...»	38	79
«وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ...»	60	69
«لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»	67	38
«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ...»	73	71 -51
«إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ...»	95	83
« بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ... »	101	54 - 03
«قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »	151	174

سورة الأعراف

الآية	رقم الآية	الصفحة
« قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»	23	161
«يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ...»	26	110
«يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ...»	27	122
«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ...»	158	02
«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ... »	172	213
«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ...»	179	34
«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ...»	189	197
«وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً... »	205	162

سورة الأنفال

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ...»	42	193

سورة التوبة

الآية	رقم الآية	الصفحة
«الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ...»	67	119

سورة يونس

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ... »	03-04	55
« هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ...»	05	29
«قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ...»	34	55
«إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»	44	162
«وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ...»	61	100
«قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... »	101	58

سورة هود

الآية	رقم الآية	الصفحة
«أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ»	02	70
«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ...»	07	72- 85- 94- 182- 200
«وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ»	09	199
«وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ...»	44	14
« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ...»	52	73
« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ...»	106	73
«وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ...»	108	73

سورة يوسف

الآية	رقم الآية	الصفحة
«فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ...»	31	115
«وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ...»	53	166
«قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»	55	79
«يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ..»	87	153
« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ»	105	30

سورة الرعد

الآية	رقم الآية	الصفحة
«اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ...»	02	74
«اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...»	03-02	28
«وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ...»	03	81
«وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ »	04	85
« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»	28	168

سورة إبراهيم

الآية	رقم الآية	الصفحة
«رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ...»	38	185 -96
«يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»	48	185 - 80

سورة الحجر

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ»	16	87

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ»	27-26	220 -121
«فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»	29	220 - 111
«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ْ... »	30-28	113
«قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ...»	33-32	132

سورة النّحل

الآية	رقم الآية	الصفحة
«يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... »	02	156
«خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»	03	51
«خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ »	04	137 -124
«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ ...»	11-10	33
«وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ ...»	12	175
«وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ...»	14	34
«وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»	15	34
«وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ...»	78	34
«قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ...»	102	156 - 154
«يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ...»	111	162

سورة الإسراء

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ...»	13	123
«مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ...»	15	123
«رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ...»	25	162
«تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ...»	44	203
«وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ...»	70	114-111
«وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا...»	76	79
«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ...»	85	151
«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ	88	02

بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»		

سورة الكهف

الآية	رقم الآية	الصفحة
« مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ... »	51	130
« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ...»	54	123 -08
« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ...»	110	116

سورة مريم

الآية	رقم الآية	الصفحة
« فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ...»	17	155 -126-116
« قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا»	20	116
« فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ...»	26	125 -110
« وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ...»	67-66	110
«أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْ»	67	124

سورة طه

الآية	رقم الآية	الصفحة
« تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى»	04	103
« إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا...»	10	118
«كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ... »	54	175
«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ... »	115	118

سورة الأنبياء

الآية	رقم الآية	الصفحة
«أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ...»	30	-195 -96 -83 -72 199-197-194
«وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ...»	32-31	209-99 -30
«وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ»	32	74
«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»	33	32
«قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض... »	56	190
«وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ...»	91	155
«يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ...»	104	185

سورة الحج

الآية	رقم الآية	الصفحة
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ...»	05	-150 -142 -36 227 -223
«مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ...»	15	73
«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ...»	27	211
« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ...»	46	177

سورة المؤمنون

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ...»	14-12	127 -54
«ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ...»	14	-226 -148 -143 229
«وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ...»	17	204 -76
«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ...»	24	115

«وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ...»	33	110
«فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ»	47	115
«وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً... »	50	209-198
«وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ...»	61-60	167
«وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»	62	162
«قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»	86	203

سورة النّور

الآية	رقم الآية	الصفحة
«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ...»	03-02	21
«وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ...»	46-45	135 -97 -68-34

سورة الفرقان

الآية	رقم الآية	الصفحة
«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ...»	44	173
«وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ...»	48	73
«لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا»	49	120-117
«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا»	54	115
«الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...»	59	180

سورة الشعراء

الآية	رقم الآية	الصفحة

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ»	193	156-154
«بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»	195	202

سورة النمل

الآية	رقم الآية	الصفحة
«حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...»	18	13
« أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا...»	61	80
«أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ...»	64	55
«وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»	93	208-41

سورة القصص

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ»	16	161

سورة العنكبوت

الآية	رقم الآية	الصفحة
«أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ...»	20-19	56
« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ...»	20	70-69- 65- 57
«وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ...»	22	60
«وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ»	43	173
«خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ»	44	51
«وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ...»	49-48	44

سورة الروم

الآية	رقم الآية	الصفحة
«غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ»	03-02	79
«أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ...»	08	61
« اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»	11	55
«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ»	20	131- 127- 116
«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ...»	46	33
«فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...»	50	61
«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ...»	54	138

سورة لقمان

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ...»	14	124
«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ...»	34	79

سورة السّجدة

الآية	رقم الآية	الصفحة
«الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ...»	08-07	133
«ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ»	08	224- 147
«ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ...»	09	155

سورة الأحزاب

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ...»	72	124

سورة سبأ

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ »	03	101

سورة فاطر

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ...»	11	136
«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ...»	28-27	47
«قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...»	41-40	210
« فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا »	43	31
«وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ...»	45	68

سورة يس

الآية	رقم الآية	الصفحة
« وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ... »	37 -40	33 -190
«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ...»	81-83	27

سورة الصافات

الآية	رقم الآية	الصفحة

«إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ...»	06-04	33
«فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ...»	11	131- 128
«قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ»	97	75

سورة ص

الآية	رقم الآية	الصفحة
«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ... »	12، 13	109
«إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ... »	22	51
«وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ»	71	115- 113
«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ»	72	155

سورة الزمر

الآية	رقم الآية	الصفحة
«خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...»	06	214- 136
«وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ... »	08	27
«اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ... »	42	159
«لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...»	63	88
«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ...»	68	101
« وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ... »	74	78

سورة غافر

الآية	رقم الآية	الصفحة
«لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ...»	57	71
«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ...»	64	208- 115- 75
«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ...»	67	150

سورة فصلت

الآية	رقم الآية	الصفحة
« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »	10-09	-103- 98
« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ...»	12-11	201- 185-86
« فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ... »	12	88
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ... »	29	122
« لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ»	49	118
« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ...»	53	161 -44 -32

سورة الشورى

الآية	رقم الآية	الصفحة
« فاطر السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...»	11	190
« فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ...»	15	23
« وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...»	38	23
« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا »	52	154

سورة الزخرف

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»	03	197
«الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»	10	210- 81
«سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ»	82	88
«يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ... »	71	161

سورة الدخان

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ»	51	165

سورة الجاثية

الآية	رقم الآية	الصفحة
«اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ...»	13-12	88

سورة الأحقاف

الآية	رقم الآية	الصفحة
«كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ»	03	51

سورة الحجرات

الآية	رقم الآية	الصفحة
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ...»	13	218- 125

سورة ق

الآية	رقم الآية	الصفحة
«أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ»	06	206- 74
«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»	37	177
«وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...»	38	201

سورة الذاريات

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ»	07	77
«وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ»	20	161- 79
«وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»	21	161- 35
«وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ»	47	206- 185- 73
«وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ»	48	81

سورة النّجم

الآية	رقم الآية	الصفحة
«الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ... »	32	136
«وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »	39	123

سورة الرحمن

الآية	رقم الآية	الصفحة
«عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ»	03-02	123
«خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ»	14	130
«خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»	15-14	122
«يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ»	33	122

سورة الحديد

الآية	رقم الآية	الصفحة
«هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...»	04	180
«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ...»	25	34

سورة الحشر

الآية	رقم الآية	الصفحة
«كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ...»	16	123

سورة التغابن

الآية	رقم الآية	الصفحة
«خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ...»	03	52

سورة الطلاق

الآية	رقم الآية	الصفحة
«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ...»	12	208- 203- 86

سورة الملك

الآية	رقم الآية	الصفحة
«الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ...»	03	203- 76
«الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ...»	05-03	207- 192
« وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ...»	12-06	09
«وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ»	10	174- 173
«أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»	14	17

سورة الحاقة

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ»	16	77

سورة المعارج

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا»	19	120
«إِلَّا الْمُصَلِّينَ»	22	120

سورة نوح

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا»	14	126
«أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا»	15	203- 76
«وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا»	19	81
« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا»	20-19	201

سورة الجن

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا»	06	118

سورة المدثر

الآية	رقم الآية	الصفحة

«لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ»	29	116

سورة القيامة

الآية	رقم الآية	الصفحة
«لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ»	02-01	167
«أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى...»	37	135
«ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى...»	38	140

سورة الإنسان

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»	02	224- 215- 139- 11
«إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»	03	163

سورة المرسلات

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ»	09	77
«أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ»	20	97

سورة النّبأ

الآية	رقم الآية	الصفحة
«أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا»	07-06	205
«وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا»	12	204- 75
«وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا»	14-13	205

سورة النّازعات

الآية	رقم الآية	الصفحة
«أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا»	27	104
«وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ»	33-30	81
«وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى»	40	161

سورة التكوير

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ»	07	161
«وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ»	11	77

سورة عبس

الآية	رقم الآية	الصفحة
«قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ...»	32-17	68
«ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا»	26	86

سورة الانفطار

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ»	01	77
«إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ	04-01	93

(3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ»		
«الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ »	07	146
«فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ»	08	147

سورة الانشقاق

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ»	01	77

سورة الطارق

الآية	رقم الآية	الصفحة
«فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ»	06-05	137
«خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ»	06	97
«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ»	12-11	189- 86

سورة الأعلى

الآية	رقم الآية	الصفحة
«سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى»	02-01	230- 220

سورة الغاشية

الآية	رقم الآية	الصفحة

«أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ...»	20-17	211

سورة الفجر

الآية	رقم الآية	الصفحة
«هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ»	05	175
«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً»	28-27	168

سورة البلد

الآية	رقم الآية	الصفحة
«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ»	04	124

سورة الشمس

الآية	رقم الآية	الصفحة
«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا»	10-07	163

سورة العلق

الآية	رقم الآية	الصفحة
«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ»	02-01	140
«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ...»	05-01	222- 123
«كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى»	06	124

سورة القدر

الآية	رقم الآية	الصفحة
«تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»	04	156

سورة العصر

الآية	رقم الآية	الصفحة
«إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ...»	03-02	120

فـــــهرس الأحاديث

متون الحديث	الحديث	الصفحة
صحيح البخاري	«ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب»	137
صحيح البخاري	«إِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يُتِمَّ خَلْقَهَا قَالَ: يَا رَبِّ ذَكَرًا أَمْ أُنْثَى، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَيُكْتَبُ ذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّه. »	227
صحيح البخاري	« إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ.. »	142
صحيح البخاري	«من ظلم من الأرض شيئا طوّقه من سبع أراضين»	86
صحيح البخاري	«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض».	92 184
صحيح مسلم	إنّما أهلك الذين من قبلكم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»	19
صحيح مسلم	«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ منها. »	213
صحيح مسلم	«مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ خَلْقَ شَيْءٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ»	224

صحيح مسلم	«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلاَ منيُّ الرجل أذكرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة على منيّ الرجل آنثا بإذن الله»	135
مسند الإمام أحمد بن حنبل	«إنّ الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزْن، والخبيث والطيب، وبين ذلك»	213
مسند الإمام أحمد بن حنبل	«اذهب فانظر إليها، فإنه أجدر أن يؤدَمَ بينكما»	106
	«من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»	152
السنن الكبرى للنسائي	«لا تسبوا الريح فإنّها من نفس الرحمن» .	152

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص

1- المصادر والمراجع العربية:

1. أبي آدم (قصة الخليفة بين الأسطورة والحقيقة)، عبد الصبور شاهين، الناشر: دار أخبار اليوم، القاهرة، د.ط، د.ت.

2. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، الناشر: دار المعرفة، بيروت، د.ت.

3. آدم الإنسان (أبو البشر)، جواد عفانة، الناشر: دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثالثة، 1429هـ/2008م.

4. الأرض في القرآن الكريم، زغلول راغب محمد النّجار، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1426هـ- 2005م.

5. أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.

6. أسرار العربية، كمال الدين الأنباري، دار الأرقم بن أبي الأرقم، الطبعة: الأولى 1420هـ-1999م.

7. أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، محمد عمر باحاذق، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م.

8. إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، بديع الزمان سعيد النورسي ، المحقق: إحسان قاسم الصالحي، الناشر: شركة سوزلر للنشر، القاهرة، الطبعة: الثالثة، 2002

9. أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، عباس محمود العقاد، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.

10. الأصول في النحو، ابن السراج، المحقق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت، د.ت.

11.الإعجاز البياني في القرآن الكريم (دراسة نظرية في الآيات المحكمات)، عمار ساسي، دار المعارف للإنتاج والتوزيع، البليدة، ط.الأولى، 2003م.

12.الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة محمد علي عبد الرحمن، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الثالثة، د.ت.

13.الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم (دراسة ونظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة)، عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، 2002م

14.إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء، محمد موسى الشريف، الناشر،: دار الأندلس الخضراء، جدة، د.ط، د.ت.

15.إعجاز القرآن في ما تخفيه الأرحام ،كريم نجيب الأغر، الناشر: دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

16.إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1424هـ/2004م.

17.إعجاز القرآن، الباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت.

18.إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فيّاض، الناشر: دار الشروق، القاهرة، ط.الأولى، 1999م.

19.إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة: الرابعة ، 1415 هـ.

20.إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ.

21. الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م.

22. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ.

23. بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.د.ت.

24. البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م

25. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادى، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1416 هـ - 1996م.

26. البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، ط.الأولى، 1993م.

27. تبسيط العقائد الإسلامية، حسن محمد أيوب، دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1403هـ/1983م.

28. تجربتي مع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية، صالح بن أحمد رضا، مجمع الملك فهم لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة،د.ت. د.ط.

29. التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير الأقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ج02.

30. التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، الناشر: دار الشروق، مصر، د.ت.

31. التعريفات، الجرجاني، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م.

32. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ت.

33. تفسير الراغب الأصفهاني، الراغب الأصفهاني أبو الحسين بن محمد، تح: محمد عبد العزيز بسيوني، كلذية الآداب، جامعة طنطا، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م.

34. التفسير العلمي للقرآن الكريم. منير العلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط.الأولى، 1434هـ/ 2013م.

35. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي القلموني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

36. تفسير القرآن العظيم، بن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.

37. التفكير فريضة إسلامية، العقاد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.د.ت.

38. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م.

39. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (النكت في إعجاز القرآن للرماني، بيان إعجاز القرآن للخطابي)، الرسالة الشافية، للجرجاني، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

40. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م

41. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م.

42. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة، د.ت.

43. خلق الكون بين العلم والإيمان، محمد باسل الطائي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط.01، 1418هـ/1998م.

44. الخلق بين العنكبوتية والداروينية والحقيقة القرآنية، كريم حسنين إسماعيل عبد المعبود، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت.

45. دراسات أصولية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الخماوي، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، القاهرة، 1422هـ/2002م.

46. دراسات في فقه اللغة، صبحي إبراهيم الصالح، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الطبعة الأولى 1379هـ - 1960م.

47. درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني)، تح: محمد مصطفى آيدين، معهد البحوث العلمية، مكة المكرّمة، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م، ج01.

48. دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم، عبد المحسن بن زينب بن متعب المطيري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م.

49. دقائق العربية (جامع أسرار البلاغة وخصائصها)، أمير آل ناصر الدين، مكتبة لبنان، المكتب العربي الحديث، الاسكندرية، د.ط، د.ت.

50. دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر أبو فهد، دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، 1413هـ/1992م، ج01.

51. الرسائل الأدبية، عمرو بن بحر بالجاحظ ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط.02،\، 1423 هـ.

52. رسائل الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384 هـ - 1964م.

53. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ.

54. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم بن أحمد السهيلي، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م

55. السّماء في القرآن الكريم، زغلول راغب محمد النّجار، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1426هـ- 2005م.

56. سنن ابن ماجه، ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.

57. السنن الكبرى، النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

58. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، الناشر: دار الحديث- القاهرة، الطبعة: 1427هـ-2006م.

59. شرح الكافية الشافية، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي، الناشر: جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، د.ت.

60. شرح مشكل الآثار، الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة: الأولى - 1415 هـ، 1494 م.

61. شريعة القرآن من دلائل إعجازه، حمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، دار العروبة، القاهرة، د.ط، 1381هـ/1961م.

62. شريعة القرآن من دلائل، محمد بن أحمد، دار العروبة – القاهرة، 1381 هـ - 1961 م .

63. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

64. الصيام معجزة علمية، عبد الجواد الصاوي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1413هـ/1993م.

65. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة، المكتبة العنصرية – بيروت، ط.01، 1423 هـ.

66. عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنّة، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، د.ط، د.ت.

67.علل النحو، ابن الوراق، المحقق: محمود جاسم محمد الدرويش، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض / السعودية الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999م.

68.علوم القرآن الكريم، نور الدين محمد الحلبي، مطبعة الصباح، دمشق، ط01، 1414هـ/1993م.

69. العلوم في القرآن، محمد جيل الحبال، ومقداد مرعي الجواري، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م

70.عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، حسن عبد الفتاح أحمد، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، د.ت.

71.عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، علي أحمد عبد العال الطهطاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ/2006م.

72.غرائب التفسير وعجائب التأويل، برهان الدين الكرماني،دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن — بيروت، د.ت.

73.فتح القدير، الشوكاني ، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414 هـ .

74.الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، الإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط05، 1402هـ.

75.الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة — مصر. د.ت.

76.فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، د.ط، د.ت.

77.الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط02، 1393هـ/1973م.

78.في ظلال القرآن، سيد قطب، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – 1412 هـ.

79. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، موريس بوكاي، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، 2004م.

80. القرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، و.م.أ، ط.01، 1993م.

81. كبرى اليقينيات الكونية. وجود الخالق ووظيفة المخلوق، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثامنة، سنة 1982م.

82. كتاب التوحيد، عبد المجيد الزنداني، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، 1425هـ/2004م.

83. الكتاب والقرآن، محمد شحرور، الناشر: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، د.ط، د.ت.

84. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.

85. اللغة العربية معناها ومبناها، المؤلف: تمام حسان عمر، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الخامسة 1427هـ-2006م.

86. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل بن صالح السامرائي، الناشر: دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الثالثة، 1423هـ/2003م.

87. مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 1426هـ/2005م.

88. مجموع الفتاوى،ابن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م.

89. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001م.

90. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج،، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

91. مشاهد القيامة في القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة، 1986م.

92.معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين البغوي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، 1420 هـ.

93.معاني القرآن وإعراب، إبراهيم الزجاج، ، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م

94.معاني القرآن، أبو زكريا الفراء، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الطبعة: الأولى. د.ت.

95.معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، الناشر: شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، الأجزاء (الأول والثاني والثالث).

96.معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988

97.معجزة القرآن في خلق الإنسان، هارون يحي، ت: أورخان محمد علي، استانبول، 2003م.

98.المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، أحمد عمر أبوشرفة، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2003م.

99.المعجزة الكبرى القرآن، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة الناشر: دار الفكر العربي، د.ت.

100.معجم مقاييس اللغة،أحمد بن فارس، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.

101.مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط.03، 1420 هـ

102.مقالات الإسلاميين، للغمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تح: هلموت ريتر، نشر، فرائد شتتايز، فيسبادن، ط03، سنة: 1400هـ.

103.المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله يوسف بن عيملي بن يعقوب، مركز البحوث الإسلامية، ليدر، بريطانيا، الطبعة الأولى، 2001م.

104.مقومات التصوير الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1418هـ/1997م.

105.مقومات التكليف، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، سورية، الطبعة 02، 1431هـ، 2010م.

106.من أسرار البيان القرآني . فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1429هـ/2009م.

107.مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.

108.المنتخب من تفسير القرآن، محمد متولي الشعراوي، دار النصر، بيروت، د.ط، د.ت.

109.منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، مصطفى حلمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1426هـ.

110.موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، الناشر: دار المكتبي، سورية، دمشق، ط.03، 1426هـ/2005م.

111.الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني، سمير عبد الحليم، الناشر، مكتبة الأحباب، دمشق، ط.الأولى، 1421هـ/2000م.

112.الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الناشر: المجلس الأعلى بشؤون الإسلامية، مصر 1423هـ/2007م.

113.الموسوعة الكونية الكبرى، ماهر أحمد الصوفي ومجموعة من العلماء، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م، الأجزاء: 14/04/03/01

114.الموطأ، مالك بن أنس ، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي – الإمارات، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004م.

115.نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

116.الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي –

جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة،الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.

117.الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد عثمان، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1428 هـ - 2007 م.

118.وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م.

119.الوقفات الفكرية في ظلال القرآن. محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2007م.

2- الدوريـــات:

1- صيغة فعلان واستعمالاتها في اللغة العربية، مصطفى أحمد النماس، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد108/39.

2- الإعجاز العلمي تأصيلا ومنهجا، عبد المجيد الزنداني، مجلة الإعجاز، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد الأول، صفر 1416هـ/يوليو 1995م.

3- المعاجم والقواميس:

1- تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، القاهرة، د.ت.

2- جمهرة اللغة، أبو بكر بن دريد، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، 1987م.

3- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم، للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987م.

4- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

5- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

6- مجمل اللغة لابن فارس، أحمد بن فارس ، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية - 1406 هـ - 1986 م.

7- المخصص، بن سيده، المحقق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1417هـ 1996م.

8- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

9- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمـــة ..... أ

الفصـل الأول أوجه الإعجاز في القرآن الكريم 02

تمهيد 02

1- أوجه الإعجاز في القرآن الكريم 03

1-1- الإعجاز في رأي القدامى 03

1-2- آراء المحدثين حول الإعجاز 08

2- أنواع الإعجاز في القرآن الكريم 11

2-1- الإعجاز البياني 11

2-2- الإعجاز التشريعي 16

2-3-الإعجاز الكوني 25

2-3- 1 تعريف الكون 25

2-3-2 القرآن والكون 27

2-3-3 الآيات الكونية 31

أ- آيات الآفاق 32

ب- آيات الأنفس 35

2-4-الإعجاز العلمي 38

2-4-1- الفرق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي 38

2-4-2- التفسير العلمي للقرآن الكريم بين المعارضة والتأييد 42

2-4-3- ضوابط البحث في الإعجاز العلمي للقرآن..... 48

الفصل الثاني دلائل الآيات الآفاقية..... 51

1- دلالة التعبير القرآني على الخلق وبدئه..... 51

1-1- الخلق في القرآن الكريم..... 51

1-2- بدء الخلق..... 54

2- دلالة التعبير القرآني على خلق السّماوات والأرض..... 71

2-1- الدلالة اللغوية..... 72

2-2- دلالة الأصوات والصيغ الصرفية..... 86

2-3 - دلالة التركيب والنظم..... 89

الفصل الثالث: دلائل آيات الأنفس في القرآن الكريم..... 109

1- مسميات الإنسان في القرآن الكريم..... 110

1-1- آدم..... 111

1-2- بَشَرٌ..... 114

1-3- الإنسان..... 116

2- دلالة التعبير القرآني على خلق الإنسان وتكوينه..... 126

2-1- المرحلة الأولى: خلق الإنسان ابتداء:..... 127

أ- خلق الإنسان من تراب..... 127

ب-خلق الإنسان من ماء آدم.....132

2-2- المرحلة الثانية: تكوين الجنين.....135

2-3- المرحلة الثالثة: مرحلة النشأة.....148

3 – دلالة التعبير القرآني على الذات الإنسانية.....150

3-1-الروح.....151

3-2-النفس.....157

3-3-العقل.....170

الفصل الرابع الإعجاز اللغوي وعلاقته بالتفسير العلمي في القرآن الكريم.....180

تمهيد.....180

1-نشأة الكون بين التعبير القرآني والتفسير العلمي.....182

1-1-مرحلة ما قبل الخلق.....182

1-2- نشوء الكون.....189

2-حقائق السماء والأرض بين القرآن والعلم.....202

2- 1-السّماء بين القرآن والعلم.....202

2-2-الأرض بين القرآن والعلم.....207

3-خلق الإنسان بين التعبير القرآني والتفسير العلمي.....213

3-1-إسقاط النظريات العلمية على آيات خلق الإنسان.....213

3-2-أطوار خلق الإنسان بين القرآن والحقائق العلمية.....221

الخاتمة 233
فهرس الآيات القرآنية. 238
فهرس الأحاديث النبويّة 261
قائمة المصادر والمراجع 264
فهرس الموضوعات 277

ملخص:

هذا البحث الموسوم بـ:"تعدد أوجه الاستعمال اللغوي للمدلولات الكونية في القرآن الكريم" هو دراسة دلالية للآيات الكونية، نحاول أن نبرز من خلالها الاستخدام القرآني الخاص للغة في التعبير عن الآيات الكونية، كما نحاول أن نتبع القراءات حول المفاهيم القرآنية الخاصة بالآيات التي يشكل مدلولها موضوعاً للعلوم الكونية، ثمّ مقارنة نتائج التحليل الدلالي لهذه الآيات مع الدلالات العلمية، وإبراز نقاط تلاقيها حين تكون الدلالة العلمية حقيقة ثابتة، أو تحديد إشكالياتها حين تكون الدلالة العلمية قيد التنظير من غير تثبت.

فالهدف هو الكشف عن العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الكونية التي اكتشفها العلم، في سبيل البحث عن المنهج الأمثل للتعامل مع اللغة عند التفسير العلمي للقرآن الكريم.

Résumé :

Le titre de cette recherche est de: La multiplicité des usages linguistiques dessignifiés cosmique dans le Coran ; Est une étude sémantique des versets traitant de phénomènes cosmiques, Nous essayons de mettre en évidence à travers cette étude l'utilisation coranique correspondant à la langue pour exprimer les versets cosmiques ; En revanche, nous essayons de suivre les interprétations des concepts coraniques dans les versets qui mentionnent l'objet de la science cosmique, ensuite, nous comparons les résultats de l'analyse sémantique de ces versets avec des faits scientifiques, Et nous montrons les points communs lorsque la signification scientifique établi fait, ou nous identifions les Problématiques quand ils sont encore sous endoscopie.

Le but est de découvrir la relation entre les phénomènes linguistiques et les phénomènes cosmiques découverts par la science, Afin de trouver la meilleure méthode lorsque nous interprétons le Coran selon les données scientifiques.